جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات بالزقازيق

السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة

إعداد

أ.د/ محمود عمر هاشم

أستاذ بقسم الحديث وعلومه بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات – فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

السيرة النبوية

في

ضوء الكتاب والسنة

إعداد

أ.د/ محمود عمر هاشم

أستاذ الحديث بكلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات - جامعة الأزهر بالزقازيق

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلي آله واصحابه اجمعين

وبعد،

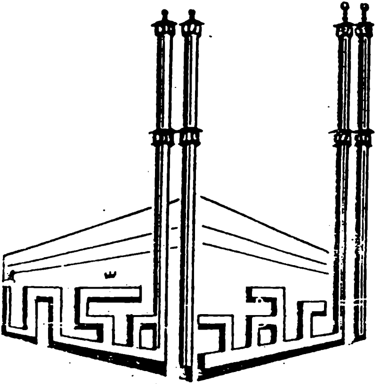
فإن السيرة النبوية، هي أعظم وأشرف سيرة عرفتها البشرية، تتجلي فيها الاسوة الحسنة من خلال حياة الرسول ﷺ ومن أجل ذلك يجب علي كل مسلم ان ياخذ منها الصبرة والعظة في كل مراحل حياته، وأن يتعلم منها حتي يكون علي بينة من أمر دينه، ويطبقها عملياً.

ومن خلال السيرة النبوية يقف المسلم علي نماذج البطولة في الجهاد، وفي البذل والعطاء للصحابة الاخيار رضي الله عنهم أجمعين، ونحن من خلال هذه الدراسة في السيرة النبوية نقدم دروسا نافعة إن شاء الله تعالي، هذا،

وصلي الله علي نبينا محمد وعلي آله وصحبه وسلم

أ.د/ محمود عمر هاشم

القسم الأول



خَصَائِصُ وَمُمَيِّزَاتُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ ومصادرُها

للسيرة النبوية خصائص ومميزات ، أبرزها وأهمها : أنها تعطى صورة متجسدة للحياة الإسلامية متمثلة فى أشرف خلق «الله» وهو سيدنا محمد (ﷺ) الذى أمرنا «الله» تعالى أن نقتدى به فى قوله جل شأنه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1] ..

فإذا درس الإنسان أحكام الإسلام وقواعده الفقهية ، ومسائل العقيدة وكتاب ربه تعالى وسُنَّة نبيِّه (ﷺ) وغير ذلك من العلوم والمعارف ، والقواعد والمبادئ ، والعبادات والمعاملات ، إذا درس كل ذلك ، فهو بحاجة إلى تطبيق ما درسه عمليًّا ، وتجسيد كل ذلك حياة وحركة ، وتطبيقا وسلوكا ، فيرى تلك القواعد والمبادئ والأحكام والأخلاق واقعًا ملموسًا محسوسًا متمثلاً فى الرعيل الأول بعد أن درسه وقرأه مبادئ ودروسًا فى الذهن .

● والسيرة النبوية العطرة تطلع قارئها على عظمة الرسول الكريم (ﷺ) الذى أيّده «الله» تعالى بالوحى والمعجزات ، وبالآيات البينات ، فلم يكن (ﷺ) مجرد قائد عبقرى أو مجرد بشرٍ عظيم كسائر العظماء ، وإنما كان (ﷺ) بشرًا يُوحَى إليه ، كما قال «الله» تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[2] ..

بل إن «الله» تعالى وصفه بصفتين هما من صفات «الله» تعالى وأسمائه ، وذلك فى قوله تعالى :

---

(١) الأحزاب : ٢١ (٢) الكهف : ١١٠ .

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1] ..

● وفى السيرة أيضًا زادٌ رُوحىٌ وعِلْمىٌ يُيَسّر المراد من الكتاب العزيز بتوضيح المواقع التاريخية والأحداث والمواقف التى عايشها رسول الله (ﷺ) .

● كما أنها تضيف إلى المعارف الإنسانية والعلوم الإسلامية ، والثقافة الدينية أعظم رصيد فى كل مناحى الحياة الدينية والاجتماعية والأخلاقية والتربوية والسياسية ، وهذا كله يثرى التراث الدينى والمعارف لدى الدعاة والمصلحين والمربين ، وفى رياض السيرة النبوية ، يرى ولىُّ الأمر ، والحاكم القدوة المثلى فى الحكم وسياسة الأمور ، ويرى الداعية الإسلامى المنهج الأمثل فى الدعوة إلى «الله» بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويرى الزوج الحياة الزوجية المثلى ، ويرى الأب الدقة فى تحقيق الواجبات والحقوق والمواءمة بين العاطفة الجياشة والحزم فى تربية الأبناء ، ويرى القائد العسكرى الثقافة العسكرية والقيادة الماهرة ، وهكذا فى كل مجال من مجالات الحياة تشرق السيرة النبوية بالمثاليات الرائدة والفريدة .

ومن أجل هذا كله وعى سلفنا قيمة السيرة النبوية فى بناء جيل صالح عظيم فكانوا يتدارسونها ، بل ويحفظونها ، ويلقنونها لأبنائهم وأطفالهم كما يحفظونهم القرآن الكريم . عن زين العابدين على بن الحسن (رضى الله عنهما) قال : كنا نعلم مغازى رسول الله (ﷺ) كما نعلم السورة من القرآن .

ويقول الإمام الزهرى : فى علم السيرة علم الدنيا والآخرة ، وروى إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه) قال : **كان أبى يعلّمنا**

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

المغازى والسرايا ويقول : يا بَنِيَّ هذه شرف آبائكم فلا تضيِّعوا ذكرها[1] .

وأما عن مصادر السيرة النبوية أو مراجع أحداثها ووقائعها فأول تلك المصادر : كتاب «الله» تعالى ، فقد جاءت فيه مشاهد كثيرة وغزوات وأحداث وغير ذلك على سبيل الإجمال .

وثانى هذه المصادر : السُّنَّة النبوية المطهرة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وقد دُوِّنت بأدق طرق النقل والتدوين .

ثم على ذلك : المراجع الأصيلة فى السيرة النبوية منذ عهد التابعين الذين تلقفوا سيرة رسول الله (ﷺ) بعناية فائقة مثل : عروة بن الزبير وابن شهاب الزهرى ، ثم ظهر من المصنفين فى السيرة محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥٢ هـ ، ثم ظهرت طبقة أخرى مثل الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، ومحمد ابن سعد - صاحب الطبقات الكبرى - المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، ثم ابن هشام ، ثم كثر التصنيف بعد ذلك . ويجدر بنا أن نذكر مقالة الفيلسوف الإنجليزى الذى شهد بعظمة هذا الرسول (ﷺ) ، وكيف استضاءت الدنيا به ، وارتقى أتباعه وعزُّوا بفضل ما جاءهم به من دين .. قال فى كتاب الأبطال : « قوم يضربون فى الصحراء عدة قرون لا يؤبه لهم ، فلما جاءهم النبىُّ العربىُّ أصبحوا قِبْلَةَ الأنظار فى العلوم والعرفان ، وكثروا بعد قلة ، وعزُّوا بعد ذلة ، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم » .

---

(١) السيرة الحلبية ، شرح المواهب ، السيرة النبوية د . محمد أبو شهبة .

عموم الرسالة وخلودها :

لقد أرسل «الله» تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين ، بالرسالة العامة الخالدة ، وختم به جميع رسله وأنبيائه ، قال «الله» تعالى :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[1] ..

وقال (ﷺ) : «**مَثَلِى وَمَثَلُ الأنبياءِ مِنْ قَبْلِى كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ إلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فى زَاوِيَةٍ مِنْ زواياهُ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بهِ ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ ، ويَقُولُونَ : هَلاَّ وُضِعَتْ هَٰذِهِ اللَّبِنَة ؟ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**» .(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .

ومعلوم أن دعوة الأنبياء جميعا واحدة فيما يتصل بجانب العقيدة ؛ لأنهم جميعا ، يدعون إلى عبادة إلهٍ واحدٍ ، لا شريك له . فجميع الرسل والأنبياء ، يدعون إلى توحيد « الله » تعالى ، وتنزيهه عما لا يليق بذاته العلية ؛ وكل الأنبياء يتفقون فى العقيدة من لدن آدم (عليه السلام) إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ) ، وكانوا جميعًا يسيرون وفق بعثة «الله» لهم ، ووحيه ، فيصدق اللاحق منهم السابق ، ويبشر السابق ببعثة اللاحق .

وهكذا اتفقوا جميعا فى أصول العقيدة ، توحيدًا «لله» وتنزيهًا له ، وإيمانا باليوم الآخر ، وما فيه من حساب وثواب أو عقاب ، وجنة أو نار .. إلى غير ذلك من الأمور .. وما شرعه من الدين للرسالة الخاتمة هو ما وصَّى به الأنبياء السابقين كما قال تعالى :

---

(١) الأحزاب : ٤٠ .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(١) ..

وإذا كانت دعوات الرسل السابقين حتى خاتمهم سيدنا محمد (ﷺ) كلها قد اتحدت واتفقت ، في جانب العقيدة .. فإنها بالنسبة إلى جانب التشريع وبيان الأحكام ، قد اختلفت ، كمًّا وكيفًا ، ما بين كل نبيٍّ وآخر ، فإن التشريع يستهدف صالح الدنيا والآخرة ، وللتطور واختلاف الأمم والشعوب وتغيير الحياة أكبر الأثر .. فلابد أن تتوخى كل شريعة ما يوائم أمتها وما يتفق مع زمنها وأهلها ، لا سيما وأن كل شريعة من الشرائع السابقة كانت خاصة ، فكانت الأحكام التشريعية لها خاصة ، فلم تأخذ صفة العموم ، لأن الشريعة السابقة لم تكن عامة للناس .. فموسى (عليه السلام) ، بعثه «الله» تعالى إلى بني إسرائيل ، وكانت شريعتهم شديدة قائمة على العزائم ، فلما جاء عيسى (عليه السلام) جاء بشريعة أيسر ، قال «الله» تعالى على لسان عيسى (عليه السلام) - مخاطبا بني إسرائيل :

﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم

(١) الشورى : ١٣ .

- بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[١] ..

وكانت كل شريعة تنسخ ما قبلها إلا إذا ورد تأييد من الشريعة المتأخرة لبعض ما فى السابقة ، أو أن يسكت التشريع اللاحق .

هذا فيما يتصل بجانب التشريعات أما العقيدة فهى واحدة وأما الدين فواحد لا اختلاف فيه :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[٢] ..

وكانت الشرائع السابقة خاصة فى الزمان وفى المكان ، حيث كانت الحياة البشرية تتقلب فى أطوار مختلفة حتى إذا ما بلغت الرشد العقلى ، ونمت واكتملت قضت حكمة العزيز الحكيم أن يرسل رسوله محمدًا (ﷺ) بالشريعة العامة التامة الثابتة الخالدة ، فجاءت الشريعة الخاتمة عامة فى الزمان والمكان ، شاملة للإنس والجن والعرب والعجم والأحمر والأسود ، قال « الله » تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[٣] ..

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[٤] ..

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[٥] ..

---

(١) آل عمران : ٤٩ – ٥١ . (٢) آل عمران : ١٩ . (٣) الأعراف : ١٥٨ .
(٤) سبأ : ٢٨ . (٥) الأنبياء : ١٠٧ .

وىما يدل على عموم رسالة سيدنا محمد (ﷺ) من السنة قوله : «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ ، فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلى النَّاسِ عَامَّةً»(١) فعموم الرسالة من خصوصيات رسول الله (ﷺ) وليس لأحد من الرسل السابقين عموم فى رسالته وهذا العموم لرسالة سيدنا مُحَمَّد (ﷺ) كان فى أصل بعثته ومن مبدئها وأولها .

كما أنه عموم فى بقاء شريعته إلى يوم القيامة ، فلا نبى بعده ولا شريعة بعد شريعته ، وللحافظ بن حجر فى هذا المقام كلام طيب دقيق ، أرى من تمام الفائدة أن أورده هنا ، قال : ولا يُعْتَرَضُ بأن « نُوحا » (عليه السلام) كان مبعوثا إلى أهل الأرض بعد الطوفان لأنه لم يبق إلاَّ من كان مؤمنا معه ، وقد كان مُرْسَلاً إليهم ، لأن هذا العموم لم يكن فى أصل بعثته ، وإنما اتفق بالحادث الذى وقع ، وهو انحصار الخلق فى الموجودين بعد هلاك سائر الناس . وأما نبينا (ﷺ) فعموم رسالته من أصل البعثة ، فثبت اختصاصه بذلك ، وأما قول أهل الموقف لـ (نُوح) كما صح فى حديث الشفاعة : أنت أول رسول إلى أهل الأرض .. فليس المراد به عموم بعثته ، بل إثبات أولية إرساله ، وعلى تقدير أن يكون مُرَادًا ، فهو مخصوصٌ بتنصيصه سبحانه وتعالى فى عدة آيات على أن إرسال (نُوح) كان إلى قومه ، ولم يذكر أنه أُرْسِلَ إلى غيرهم .

واستدلَّ بعضهم لعموم بعثته بكونه دعا على جميع من فى الأرض ، فأُهْلِكوا بالغرق إلاَّ أهل السفينة ، ولو لم يكن مبعوثا إليهم لما أُهْلِكوا ، لقوله تعالى :

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[1] ..

وقدْ ثبت أنه أول الرسل ، وأجيب بجواز أن يكون غيره أُرْسِلَ إليهم فى أثناءِ مدة (نوح) ، وعلم (نوح) بأنهم لم يؤمنوا ، فدعا على من لم يؤمن من قومه ومن غيرهم فأجيب ، وهذا جوابٌ حسن .

لكن لم ينقل أنه نُبِّئَ فى زمن (نوح) غيره ، ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا (ﷺ) بقاء شريعته إلى يوم القيامة ، و (نوح) وغيره بصدد أن يُبعث نبىٌّ فى زمانه أو بعده فينسخ بعض شريعته .. ثم قال الحافظ : ويحتمل أنه لم يكن فى الأرض عند إرسال (نوح) إلاَّ قومه ، فبعثه خاصة لكونها إلى قومه فقط ، وهى عامة فى الصورة ، لعدم وجود غيرهم ، ولكن لو اتفق وجود غيرهم لم يكن مبعوثا إليهم[2] . وثبت فى رواية الإمام مُسْلم : «وبُعِثْتُ إلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَد» .. والمراد بالأحمر : العجم ، وبالأسود : العرب ، وقيل : الأحمر الإنس ، والأسود الجن .. وفى رواية أبى هريرة (رضى الله عنه) عند الإمام مُسْلِم ما هو أصرح من ذلك فى الدلالة على عموم الرسالة إلى جميع الخلق : وَأُرْسِلْتُ إلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وأما خلود رسالته (ﷺ) ، فقد تكفَّل ربُّ العزة سبحانه وتعالى بحفظها وحفظ دستورها السماوى وهو القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[3] ..

وقد ختم «الله» تعالى به جميع الأنبياء والمرسلين ؛ فلا نبى بعده ولا رسالة بعد رسالته ، قال (ﷺ) : « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَّهُ لا نبىَّ بَعْدِى وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ » .

---

(١) الإسراء : ١٥ . (٢) فتح البارى ج ١ ص ٤٥٣ ط الحلبى .
(٣) الحجر : ٩ .

حَاجَةُ الإنسانِ إِلَى رِسَالَةِ سَيِّدِنَا محمد (ﷺ)

لم تتوفر همم المسلمين على جمع تراث وتفاصيل حياة بأكملها كما توفرت لجمع كل ما يتصل بحياة خاتم الأنبياء ورسول الله الذى بَعَثه « الله » رحمة للعالمين .

فقد جمعت أقواله (ﷺ) وأفعاله ، وتقريراته وصفاته الخِلقِيَّة ، والخُلُقِيَّة ، وسيرته ، ومغازيه . وكان اهتمام المسلمين بالغا فى تسجيل جميع عباداته ، وعاداته ، وحركاته ، وسكناته لقد سجل التاريخ ، والسُّنَّة ، وكتب السيرة ، والشمائل جميع ما يتصوره العقل البشرى فيما يتصل بحياة رسولنا الكريم (ﷺ) . ولم يكن ذلك مجرد جمع وتسجيل فحسب بل كان بأدق الطرق فى التوثيق والصحة مما لايسع المُطَّلع عليه إلاَّ الإيمان به وتصديقه . وحسبك - أيها القارىء العزيز - أن تلقى نظرة عابرة على موازين التحمُّل والأداء ، وقوانين الرواية وقواعد الجرح والتعديل .. وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب علوم الحديث .

ولم يقتصر تسجيل وقائع الحياة على حياته العامة فقط ، ولا على عباداته (ﷺ) ومعاملاته ، بل إنه شمل حياته الخاصة ودقائق ما يتصل به ، مثل : مرضعاته ، وحواضنه ، وأعمامه ، وأزواجه ، ومواليه ، وخدمه ، وكُتَّابه ، وشعرائه ، ودوابِّه ، وملابسه .. وغير ذلك من أموره وشئونه (ﷺ) .

ثم ما يتَّصل ببدنه (ﷺ) فى : أكله وشُرْبه ، ونومه وانتباهه ، وركوبه ومشيه ، وبيعه وشرائه ، وجلوسه واتِّكائه ، وضَحِكه وبُكائه ، وما نقلته كتب الشمائل المحمدية وغيرها من كتب السُّنَّة والسيرة والتاريخ الإسلامى .

ولم يكن هذا كله ليقع مصادفة ودون حكمة من « الله » العزيز الحكيم . وإنما كان نقل كل ما يتَّصل برسول الله (ﷺ) على هذا النحو الشامل ؛ حتى

لا يكون هناك عذرَ لمعتذر ، ولا علة لمتعلِّل فى ترك الاقتداء به أو العدول عن الاهتداء بهَديه وحتى لا يكون شىء من ذلك ؛ فقد حفظ «الله» تعالى أقوال هذا الرسول العظيم (ﷺ) ، وأفعاله ، وتقريراته ، وصفاته ، وكل ما يتصل به . وحفظ «الله» كل حقيقى وصادق من سُنَّته الشريفة ليكون بيانًا للقرآن الكريم الذى تكفَّل «الله» تعالى بحفظه فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾(١) ..

وقال سبحانه فى شأن بيان القرآن الكريم وأنه تكفَّل به :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾(٢) ..

وجعل «الله» تعالى الدليل على محبته - سبحانه - هو اتباع الرسول (ﷺ) فى قول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣) ..

فكل مُدَّعٍ لمحَبَّة «الله» تعالى ولم يتبع رسول الله (ﷺ) فهو كاذب فى دعواه حتى يتبع شريعة «الله» تعالى وكما جاء فى الحديث : « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عليه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »(٤) .

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسيره : فدل على أن مخالفته فى الطريقة كفر ، و «الله» لا يحبُّ من اتَّصَفَ بذلك وإن ادعى وزعم فى نفسه أنه مُحِبٌّ «لله» ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبى العربى الأمى خاتم الرسل ورسول الله إلى الثقلين - الجن والإنس - الذى لو كان الأنبياء بل المرسلون بل

---

(١) الحجر : ٩ . (٢) القيامة : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٣) آل عمران : ٣١ . (٤) رواه أحمد ومسلم .

[illegible] يوم [illegible] في زمانه [illegible] إلا [illegible] في طاعته واتباع شريعته .

ولقد حمل سيدنا عيسى (عليه السلام) البشارة برسول الله (ﷺ) ، وقصّ القرآن نبأ تلك البشارة فى قول « الله » تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[1] .

وفيما رواه الإمام أحمد – بسنده – عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبِرْنى عن صفة رسول الله (ﷺ) فى التوراة ، فقال : أجل «والله» إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ ، لا فَظٌّ وَلاَ غَلِيظٌ وَلاَ صَخَّابٌ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَلَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا : لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ فَيَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا)[2] .

وكان طبيعيًّا أن يحفظ «الله» تعالى سُنَّةَ النبى (ﷺ) ويوفق المسلمين فى كل عصر ومصر ليتناقلوها ، ويدونوا كل ما يتصل بحياته بحيث من شاء أن يصدر فى حياته العامة والخاصة وباقى شئون حياته عن سُنَّة رسول الله (ﷺ) ، وأن يقتدى به وجد الأمر سهلا ومُيسَّرًا . إنه النبى الخاتم الذى لا نبىَّ بعده ، فالاقتداء به دائم ومستمر إلى أن يقوم الناس لرب العالمين . وقد وجه «الله» المسلمين للاقتداء به ، واتخاذه الأسوة الحَسَنَةَ لكل من يرجو «الله» واليوم الآخر ويعرف «لله» حقه ويذكره ذكرًا كثيرا .

---

(١) الصف : ٦ . (٢) رواه أحمد .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾(١) .

ويقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه : « النبىُّ الخاتَم » مُبشِرًا إلى أخبار الأنبياء السابقين؛ منها المطمور فى الماضى ، ومنها ما لا يكمل نقول : أما الأنبياء الآخرون وعظماء الملل والديانات السابقة فيصح القول بأن أخبارهم وصور حياتهم مطمورة فى ركام الماضى ، وهنالك حلقات رئيسية لا يكمل بغيرها التاريخ ولا يتسنّى بدونها الاقتداء والتقليد ، مفقودة لا يمكن البحث عنها والاهتداء إليها فى هذا العصر المتأخر ، وهذا ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء ؛ فالمثل الإنسانية لها أعمار طبيعية وحيوية محدودة ، فإذا انتهت لم تكن مصلحة فى تناقلها .. أما ما كانت الحاجة إليه قائمة دائمة فيبقى على اختلاف الزمان والمكان ، ويستمر ، وينتشر ، ويورق ، ويثمر .

وكما تكفّل «الله» تعالى بحفظ القرآن الكريم وهو دستور هذا الدين والأصل الأول من أصول تشريعه ، وكما حفظ الصحيح من (السُّنَّة) ليكون بيانا للكتاب العزيز ، وهى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم فإن «الله» تعالى بَشَّرَ بأن الإسلام سيبلغ منتهاه وذروته العالية وتعلو كلمته ويظهره «الله» على الدِّين كُلِّه قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٢) ..

ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾(٣) ..

---

(١) الأحزاب : ٢١ . (٢) الصف : ٩ . (٣) الفتح : ٢٨ .

ويعلن «الله» تعالى بأنه متكفّل بحفظ هذا الدّين وتمامه وإظهاره على الدّين كله مهما حاربه أعداؤه ومهما حاولوا إطفاء نوره .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ ﴾(١) .

وإن لرسولنا (ﷺ) مكانته العالية ، ومنزلته السامية ، فهو المتمم لمكارم الأخلاق ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أكمل «الله» به البناء وأتمّ به النعمة وبعثه رحمة للعالَمين لهذا كانت حاجة الإنسان إلى رسالة سيدنا محمد (ﷺ) .

ومن ذلك كله نقف على مكانة هذا الدِّين ، وأن «الله» تعالى هو الذى تكفَّل بحفظ أصوله ومصادره من الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهرة وأنه سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ الدعوة نفسها ، ومظهرها على كل الدعوات ، ومتمم لها ، ومهما حاول أعداء الإسلام قديما وحديثا أن يُطفئوا نورها فلن يستطيعوا ولن ينالوا منها منالا ، أو يبلغوا منها مبلغا لأن حافظها ومُمسكها هو الذى يمسك السموات والأرض هو «الله» رب العالمين ، وإذا عرفنا بأن الإنسان كان فى أمَسّ الحاجة إلى رسالة سيدنا محمد (ﷺ) لِيُخرِجَ الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى ومن الباطل إلى الحق ، فلنقف على المرحلة الأولى من حياته (ﷺ) .

---

(١) الصف : ٨ .

حول المرحلة الأولى من حياة الرسول (ﷺ)

إن حياة رسول الله (ﷺ) كلها خير وحق، وكلها نور وهداية .. أحاطتها العناية الإلهية منذ أول وهلة ..

- فلقد اختار «الله» تعالى رسوله (ﷺ)، من أشرف القبائل، ومن أبر البطون، وأزكاها، وأطهر الأصلاب، وأنقاها، فهو خير أهل الأرض نسبًا وشرفًا، حتى إن أعداءه قد شهدوا بذلك، ولم يستطيعوا إنكاره فيه.

سيدنا محمد (ﷺ) بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .. وإلى هنا اتفق النسابون على نسبه، ولم يختلفوا فيه.

وعدنان هذا من ولد إسماعيل (عليه السلام) فنسبه يصل إلى سيدنا إبراهيم (عليه السلام). ولقد تحدث رسول الله (ﷺ) عن نسبه فقال: «إنَّ الله اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ، واصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَة، واصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، واصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِم»[١].

وقال (ﷺ) – متحدثًا بنعمة «الله» عليه، ومبلغا أمته ليعرفوه ويوقروه: «أنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ القَبْرُ، وأوَّلُ شَافِعٍ، وأوَّلُ مُشَفَّعٍ»[٢].

وقد حفظ التاريخ عراقة أصله (ﷺ)، وشرف محتده، وكرم آبائه وأجداده، فأبوه هو عبد الله، الذي كان شعاره: «أمَّا الحَرَامُ فَالمَمَاتُ دونه»، وقد قالت له فاطمة الخثعمية: «إنِّي لأعْرِفُ فِيكَ نُسُكَ أبِيكَ».

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه مسلم.

وأما جَدُّه عبد المطلب ، وهو المعروف بشيبة الحمد ، فقد تولى الرفادة والسقاية فكان يطعم الحجيج ويسقيهم فى حياض من أدم إلى أن حفر زمزم ، وكانت زمزم سقيا من «الله» ، لقد أتاه فى النوم آت ، فأمره بحفرها قائلا له : احفر طيبة ، فقال : وما طيبة ؟! ، فلما كان الغد أتاه فقال : احفر بره ، فقال : وما بره ؟! فلما كان الغد أتاه وهو نائم فقال : احفر المضنونة ، قال : وما المضنونة ؟! أين لى ما تقول ؟! فلما كان الغد أتاه فقال : احفر زمزم ، قال : وما زمزم ؟! قال : لا تنزح ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم . فلما بيَّنها له ذهب عبد المطلب هو وابنه الحارث وحفرها ، وكان عبد المطلب أجود قريش كفًا ، وأبعد الناس عن كل موبقة تفسد الرجال ، وكان سيد قريش حتى مات ، كما وصفه المؤرخون .

وأما هاشم فاسمه عمرو ، وهو الذى عقد الحلف لقريش من هرقل ، لتختلف إلى الشام فى أمان وسلام ، وهو صاحب إيلاف قريش : أى دأبها وعادتها ، وأول من سَنَّ الرحلتين : رحلة الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشى ، ورحلة الصيف إلى الشام وإلى غزَّة .. وحين أصابت قريشا سنوات جدب خرج إلى الشام ، وأمر بخبز كثير وحمله حتى وافى مكة وهَشَم ذلك الخبز أى كسره ، وثرده ونحر الإبل ، وقدم الطعام لأهل مكة . وقد تولى هاشم السقاية والرفادة ، وكان كثير الثراء ، إذا حضر الحج قام فى قريش فقال : يا معشر قريش إنكم جيران «الله» وأهل بيته وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار «الله» يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف «الله» ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصَّكم «الله» بذلك ، وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره فأكرموا ضيفه وزواره .

وكان يطعمهم قبل التروية بيوم بمكة ، وبمنى ، وعرفة

وأما عبد مناف فإن رسول الله (ﷺ) اقتصر عليه حين أنزل « الله » تعالى عليه :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[١].

فحين اجتمع به بنو عبد مناف أخبرهم بأن «الله» أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ، قال (ﷺ) : «وأنتُمُ الأقْرَبُونَ مِنْ قُرَيْش» .

وأما قُصَيٌّ فكان شريف أهل مكة ، بنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت ، وكانت إليه الحجابة وهي : سدانة البيت ، والسقاية وهي : سقيا الحجيج ، والرفادة وهي : إطعام الحجيج ، واللواء : للحرب ، والندوة : للمشورة وقبل موته أعطى مناصب الشرف إلى أكبر أبنائه وهو عبد الدار ، ومن أبنائه عبد مناف ..

وأما عن ولادته صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه قبل ذلك رأت أمه آمنة بنت وهب أمارات الحمل ، ولكنها لم تكن تتأكد وتشعر أنها حامل ، وذلك من عناية «الله» تعالى ورعايته ، ولم تر في حمله تعبًا ولا مشقّة ، ولذلك كانت تقول :

مَا شَعرتُ أَنِّي حَمَلْتُ بِهِ وَلاَ وَجَدتُ له ثقله ، كما تَجِدُ النِّسَاء ، إلاَّ أَنِّي قَدْ أَنكَرْتُ رَفْعَ حَيْضَتِي ، وَرُبَّما كَانَتْ تَرْفَعُنِي وَتَعُودُ وَأَتَانِي آتٍ وَأَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ فَقَالَ : هَلْ شَعُرْتِ أَنَّكِ حَمَلْتِ ؟ فَكَأَنِّي أَقُولُ : مَا أَدْرِي ، فَقَالَ : إِنَّكِ قَدْ حَمَلْتِ بِسَيِّدِ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَنَبِيِّهَا . وَذَلِكَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ ، قَالَتْ : فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا أَيْقَنَ عِنْدِي الْحَمْلَ .

وكانت ولادته (ﷺ) يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول (عام

(١) الشعراء : ٢١٤ .

الفيل) . وبعد ولادته جاء جَدُّه عبد المطلب فنظر إليه ودخل به الكعبة ، وقام يدعو «الله» ، وسمَّاه مُحَمَّدًا فقيل له : مَا سَمَّيت ابْنَكَ ؟ قال : مُحَمَّدًا ، فقيل له : كَيفَ سَمَّيتَهُ باسمٍ لَيسَ لأحدٍ مِن أبنائِكَ وَقومِكَ ، فقال : إنى لأرجُو أن يَحمدَهُ أهلُ الأرضِ كُلُّهُم .. وتحدث رسول الله (ﷺ) عن أسمائه ، قال : «إنَّ لى أسماءً : أنا مُحَمَّدٌ وأنَا أحْمَدُ وأنَا الحَاشِرُ الَّذِى يُحشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِى وأنَا المَاحِى الَّذى يُمحَى بِهِ الكُفرُ وأنَا العَاقِبُ»[١] .

وقد فرح عبد المطلب بولادته (ﷺ) أيما فرح ، وعنى به كل العناية ، أما أبوه فقد توفى وهو (ﷺ) فى بطن أمه حيث كانت حاملا به لشهرين ، فولد يتيمًا ، ولكن جَدّه كان معنيًّا به فرحًا بقدومه وولادته .

ولقد التمس جَدُّه عبد المطلب له المراضع ، قال ابن إسحاق : حدثنى جهم ابن أبى جهم مولى الحارث بن حاطب الجمحى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أو عمن حدثه عنه ، قال : كانت حليمة بنت أبى ذُؤَيْب السعدية أم رسول الله (ﷺ) التى أرضعته تحدث أنها خرجت مِنْ بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، خرجت على أتان لى قمراء معنا شارف لنا[٢] والله ما تبض بقطرة[٣] ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا ، من بكائه من الجوع وما فى ثديى ما يغنيه وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك فلقد أذمت بالركب[٤] ؛ حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفا وعجفا[٥] حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلاَّ وقد عرض عليها رسول الله (ﷺ)

---

(١) رواه الإمام أحمد . (٢) ناقة مسنة . (٣) ما ترشح بشىء .

(٤) أى حبستهم أو بمعنى أذمت الأتان : جاءت بما تذم عليه ، أو من قولهم بئر ذمة : قليلة الماء .

(٥) هزالا .

فتأباه ، إذا قيل لها : إنه يتيم ، وكذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجَدُّه ، فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معى إلاَّ أخذت رضيعًا ، غيرى ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : و « الله » إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعًا ، و « الله » لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخُذَنَّه ، قال : لا عليكِ أن تفعلى عسى « الله » أن يجعل لنا فيه بركة .

وقد لمست « حَلِيمَةُ » الخير الوافر ، والبركة الكثيرة فى اللبن ، والشارف ، والأتان ، وكانت بادية (بنى سعد) تعانى سنة مجدبة ، فما إن صار فيها سيدنا محمد (ﷺ) عند حليمة حتى أصبحت منازل حَلِيمة من حولها ممرعة خضراء كثيرة الخير ، وأحاطته العناية الإلٰهية منذ ولادته بل وقبل ذلك أثناء الحمل ، فكانت رعاية «الله» تعالى وحفظه إياه ونصرته له دائمًا وأبدًا .

عن ابن عباس (رضى الله عنهما) : إنه لما تُوفِّىَ عَبْدُ الله ، قالت الملائكة : إلهَنا وسيِّدَنا بقى نبيُّك يَتِيمًا ؟ : فقال «الله» تعالى :
﴿أنا له حَافِظٌ ونَصِيرٌ﴾ .

ثم حدث – وهو فى (بنى سَعْدٍ) – أن جاءه جبريل ، وكانت حادثة شق الصدر ، «أَتَاهُ جِبرِيلُ فأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ ، فَشَقَّ عَن قَلبِهِ فَاستَخرَجَهُ فَاستَخرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً ، فقال : هَذَا حَظُّ الشَّيطَانِ مِنكَ ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِى طِسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَم ، ثُمَّ لأَمَهُ وَأَعَادَهُ إِلَى مَكَانِهِ»[١] .
وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – أى مرضعته – أن مُحَمَّدا قد قُتِلَ ، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِعُ اللون وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات .

وتكررت حادثة شق الصدر ، عندما بلغ رسول الله (ﷺ) عشر

---

(١) رواه مسلم .

سنوات ، فعن أُبَيّ بن كَعْب : أن أبا هريرة (رضى الله عنه) كان جريئا على أن يسأل رسول الله (ﷺ) عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

يارسولَ الله ، ما أوَّلُ ما رأيتَ مِن أمْرِ النبوَّةِ ؟ فاستوى رسول الله (ﷺ) وقال : «لَقد سألتَ أبَا هُرَيرةَ ، إنِّي لَفِي صَحْرَاء ابن عَشر سِنِينَ وَأَشْهُر ، وَإِذَا بِكَلامٍ فَوقَ رَأسِي . وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ : أَهُوَ هو ؟ قال : نعم ، فاسْتَقْبلانى بِوُجُوهٍ لم أرَهَا لخَلْقٍ قطُّ ، وأرواحٍ لم أجدْها من خَلْقٍ قطّ ، وثيابٍ لم أرها على أحدٍ قطّ ، فأقبلا إليَّ يَمشِيانِ حتَّى أخذ كلُّ واحدٍ منهُمَا بِعَضُدِى لاَ أجِدُ لأحدِهما مَسًّا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضْجِعْهُ . فَأَضْجَعَانِي بِلاَ قَسْرٍ ولا هَصْرٍ ، وقال أحدهما لصاحبه : افْلِقْ صَدْرَه» ، فَهَوَى أحَدُهُمَا إلَى صَدرِى فَفَلَقَهُ - فيما أرى - بِدُونِ دَمٍ وَلاَ وَجَعٍ ، فقال له : أخرِجِ الغِلَّ وَالحَسَدَ . فَأَخْرَجَ شيئًا كَهَيئَةِ العَلَقَةِ ، ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا . فقال له : أدخِلِ الرَّأفَةَ وَالرَّحمَةَ ، فَإذَا مِثْلُ الَّذِى أخرَجَ يُشبِهُ الفِضَّةَ ، ثُمَّ هَزَّ إبهامَ رجلى اليُمنَى ، فقال : اغْدُ واسْلَمْ . فَرَجَعتُ بِهَا أغدُو رِقَّةً عَلَى الصَّغِيرِ وَالكَبِير»[1]

ثم تكررت حادثة شقِّ الصدر مرة ثالثة عندما جاوز (ﷺ) الخمسين عندما كان فى الحطيم ، وأتى بطستٍ مملوء إيمانا فغسل قلبه ثم حُشِيَ ثم أُعِيدَ .

وقال (ﷺ) : «فُرِجَ عَن سَقفِ بَيتِى وَأنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جبريلُ (عَلَيهِ السَّلام) فَفَرجَ صَدرِى ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمزَم ، ثُمَّ جَاءَ بِطِستٍ مِن ذَهَبٍ مُمْتَلِىءٍ حِكمَةً وَإيمَانًا ، فَأفْرَغَهُ فِي صَدرِى ، ثُمَّ أطبَقَهُ ، ثُمَّ أخَذَ بِيَدِى فَعَرَجَ بِى إلى السَّمَاءِ الدُّنيَا»[2] .

وهذا الحديث يوضح أن الشق كان فى هذه المرة ليلة المعراج .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم . (٢) رواه البخارى .

وقال الشيخ الشرقاوى - فى : « فَتْحِ المُبْدِى » ، عند الكلام على هذا الحديث - : وفعل به ذلك لاستعداده للتلقى الحاصل له فى تلك الليلة ، قال : ووقع له ذلك فى صغره عند مرضعته «حَلِيمة» وهو ابن أربع لنزع العَلَقة التى هى حظُّ الشيطان منه ، وفى كِبَرِه عند مجىء (جبريل) له بالوحى فى غار (حِرَاء) ، ليتلقى الوحى بقلب قوى ، وروى شقُّ الصدر أيضا وهو ابن عشر أو نحوها ، وروى مرة أخرى خامسة ، ولم تثبت[1] . أ . هـ

وليست عملية شق الصدر استئصالا لغدة من الغدد فى داخل الجسم أو قطعة لحم تقطع من داخل الجسد فيصبح بذلك خيرًا ، وإلاَّ لأمكن استبعاد الشر واستئصاله بعملية جراحية .. كلا ، وإنما هى عملية تطهير معنوى أخذت الصورة المادية والشكل المحسوس ليكون فى ذلك مزيد بيان وإيضاح ، وإعلان على مرأى ومسمع من الناس ، فيعلن أمر صاحب الرسالة الذى أُعِدَّ للعصمة وللوحى الإلٰهى فكان مجىء شق الصدر بالوسيلة المادية المحسوسة أقرب ما يكون لأن يؤمن به الناس ، وليصدقوه ، وليكون ذلك معلنًا عليهم ، وما ذلك إلاَّ بقدرة «الله» العزيز الحكيم .

وعندما حدثت حادثة شقِّ الصدر لرسول الله (ﷺ) قال أبوه - أى من الرضاع وهو زوج « حليمة » : ياحليمة : لقد خشيتُ أن يكونَ هذا الغلامُ قد أُصيبَ فأَلْحِقيه بأَهْلِهِ ، قبل أن يظهر ذلك به ، قالت : فاحتملناه فقدمْنا به على أُمِّه ، فقالت : ما أَقْدَمَكِ بِهِ ياظِئْر[2] ، وَقَدْ كُنتِ حَرِيصَةً عَلَيْهِ ، وَعَلَى مُكْثِهِ عِنْدَكِ ؟

قالت : فَقُلْتُ : قد بَلَّغَ «الله» بابنى ، وقضيتُ الَّذِى عَلَيَّ ، وَتَخَوَّفْتُ

(١) فتح المبدى . (٢) الظئر : المرضعة لغير ولدها .

الأحداث عَلَيهِ ، فأدَّيْتُهُ إِلَيكِ كما تُحِبِّين ، قالت : مَا هَذا شأنك ، فاصْدُقْنِي خَبَرَك .

قالت : فَلَمْ تَدَعْني حَتّى أخبرتُها ، قالت : أَفَتَخَوَّفْتِ عَلَيهِ الشَّيطَانَ ؟ قالت : قُلتُ : نَعَم ، قالت : كَلاَّ ، و«الله» مَا لِلشَّيطَانِ عَلَيهِ مِنْ سَبِيلٍ ، وإنَّ لِابنِي لَشَأْنًا ، أَفَلاَ أُخبِرُكِ خَبَرَهُ ؟

قالت : قلت : بلى ، قالت : رَأَيتُ حِينَ حَمَلْتُ به أَنَّهُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أضاءَ لِي قُصُورَ بُصرى مِن أرضِ الشام ، ثُمَّ حَمَلْتُ بِهِ ، فو «الله» ما رأيتُ مِنْ حملٍ قطُّ كان أخفُّ ولا أيسرَ منهُ ، وَوَقَعَ حِينَ وَلَدتُهُ ، وَأنّه لَوَاضِعٌ يَدَيهِ بالأرضِ ، رَافِعٌ رأسَهُ إلى السَّماء

الرَّسُولُ (ﷺ) فى شَبَابِهِ

● لقد كانت مرحلة شبابه (ﷺ) طاهرة نقية ، مستقيمة زكية ، بعيدة كل البعد عن اللهو والعبث ، بعيدة عن الشيطان ووساوسه ، وعن الهوى وهواجسه ، فقد عصمه «الله» تعالى ورعاه ، وحفظه من كل سوء ، فشرح «الله» له صدره ، ولم يجعل للشيطان عليه من سبيل .

لقد تُوفِّىَ أبوه وهو فى بطن أمه ، على أصح الآراء .. وأما أمه فقد تُوفِّيت بين مكة والمدينة بـ «الأبواء» منصرفها من المدينة ، من زيارة أخواله بنى النجار ، وهم أخوال أبيه عبد الله . وكان عمر الرسول (ﷺ) إذ ذاك لم يستكمل سبع سنين ، فكفله جَدُّه : عبد المطلب .

ثم تُوفِّى عبد المطلب ، وكان عمره نحو ثمان سنين ، وقيل ست ، وقيل عشر ، وعندئذ كفله عمه : أبو طالب .

وبرغم ما كانت تعج به الحياة من حوله ، من لهو وعبث ، ومن تهالك الشباب وتهافتهم على مظاهر اللعب والطرب ، فإن شباب رسولنا (ﷺ) كان مصونا من كل دنس ، محفوظا من كل سوء أو شر .

وكان طبيعيا أن ينشأ هذه النشأة الطاهرة النقية ، لأن العناية الإلهية كانت تُعِدُّه لأمر السماء ، ووحى «الله» ، وتبليغ الرسالة .. كما كان دعوة أبيه (إبراهيم) ، وبشرى أخيه (عيسى) ، ورأت أمه عندما حملت به من البشارات ما رأت .. وشرح «الله» صدره .

نُـورٌ ودَعْـوَةٌ :

● يقول ابن إسحاق : وحدثنى ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم -

ولا أحسب إلا عن خالد بن معدان الكلاعي - أن نفرا من أصحاب رسول الله (ﷺ) ، قالوا له : يارسول الله ، أخبرنا عن نفسك .

قال : نَعَمْ ، أنَا دَعْوَةُ أَبِي (إبْرَاهِيم) ، وَبُشْرَى أَخِي (عِيسَى) ، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ وَأَضَاءَ قُصُورَ الشَّامِ ، وَاسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بنِ بَكْرٍ ، فَبَيْنَمَا أَنَا مَعَ أَخٍ لِي خَلْفَ بُيُوتِنَا نَرْعَى بَهْمًا لَنَا ، إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ - عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ - بِطِسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ ثَلْجًا ، ثُمَّ أَخَذَانِي ، فَشَقَّا بَطْنِي ، وَاسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ ، فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ فَطَرَحَاهَا ، ثُمَّ غَسَلَا قَلْبِي وَبَطْنِي بِذَلِكَ الثَّلْجِ حَتَّى أَنْقَيَاهُ ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : زِنْهُ بِعَشَرَةٍ من أُمَّته ، فَوَزَنَنِي بهم فوزنْتُهم .

ثم قال : زِنْهُ بِمَائَةٍ مِن أُمَّتِهِ ، فَوَزَنَنِي بِهِم فَوَزَنْتُهُم ، ثم قال : زِنْهُ بِأَلْفٍ مِن أُمَّتِهِ ، فَوَزَنَنِي بِهم فَوَزَنْتُهُم .

فقال : دَعْهُ عَنْكَ ، فَوَ اللهِ لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَوَزَنَهَا ، زاد الطبري :

قال : ثُمَّ ضَمُّونِي إلى صَدْرِهِم ، وَقَبَّلُوا رَأْسِي مَا بَيْنَ عَيْنَيَّ ، ثم قالوا : يَاحَبِيبُ ، لَمْ تُرَعْ ، إِنَّكَ لَوْ تَدْرِي مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الخيرِ لَقَرَّتْ عَيْنُكَ .

شَبابُ الطُّهرِ والنَّقاءِ

● ولقد عاش رسول الله (ﷺ) ، فترة شبابه بالعمل والسعى ، واشتغل برعى الأغنام ، قال (ﷺ) : «**كُنتُ أرْعَى الغَنَم عَلَى قَرَارِيطَ لأهْلِ مَكَّةَ**»[1] .. وفى كده وجده ، وفى اشتغاله بالعمل - رغم كفالة عمه له - ما يفيد أهمية العمل ، وأن خير ما يأكله الإنسان ما كان من عمل يده ، كما أن فى العمل ثمرة هامة أخرى بالإضافة إلى نفع الإنسان لنفسه ، وتلك الثمرة هى انتفاع الحياة من العمل ، وازدهار حركة المجتمع بالنشاط فيها والتفاعل معها .

وحفظ «الله» تعالى رسوله (ﷺ) ، من أى عبث أو لعب ، كان يأتيه غيره فى مثل سِنّه قال (ﷺ) : «**مَا هَمَمْتُ بِشَىْءٍ مِمَّا كَانوا فى الجاهِلِيَّة يَعمَلُونَهُ غير مَرَّتَين ، كُلُّ ذَلِكَ يَحُولُ الله بينى وبَيْنَه ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بهِ حتى أكْرَمَنِى الله بالرِّسَالة ، قُلتُ لَيْلَةً لِلغُلاَمِ الَّذِى يَرْعَى مَعِى بأعْلَى مَكَّةَ : لَوْ أبْصَرْتَ لى غَنَمِى ، حَتَّى أدْخُلَ مَكَّةَ ، وَأسْمر بها ، كما يسمر الشَّبَابُ فَقَال : أفعل ، فَخَرجتُ حتَّى إذا كُنْتُ بمكَّةَ سَمِعْتُ عَزْفا ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : عُرْسٌ ، فَجَلَسْتُ أسْمَعُ ، فَضَرَبَ الله عَلَى أُذنى ، فَنِمْتُ ، فَمَا أيقَظَنِى إلاَّ حَرُّ الشَّمْسِ ، فَعُدتُ إلى صاحِبى ، فسألنى فأخْبَرْتُهُ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أخْرَى مِثْل ذَلِكَ وَدَخَلْتُ مَكَّةَ ، فَأصَابَنِى مِثل أوَّل لَيْلَة ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُ بِسُوءٍ**»[2] .

---

(١) رواه البخارى .   (٢) رواه الحاكم والطبرانى .

فَضَائِلُ مُثْلَى

هكذا كانت العناية الإلهية ، تحيط بحياة الرسول (ﷺ) ، فى كل لحظة من اللحظات ، وفى كل زمان ومكان .

واشتهر (ﷺ) بينهم بالأمانة ، والحكمة وكل فضيلة كريمة من الفضائل المثلى حتى إنهم كانوا يتحاكمون إليه فيما شجر بينهم أو اختلفوا فيه ..

ومن المواقف المذكورة المشهورة موقفه من وضع الحجر الأسود ، عندما دب الخلاف بين قريش بسبب وضعه ، فإنهم عندما انتهوا فى بناء الكعبة إلى هذا المكان ، قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه واختلفوا ، وكادت تقع فتنة كبرى ، خيف منها القتال ثم انتهوا إلى أن يتحاكموا إلى أول من يدخل عليهم من باب بنى شَيْبَة ، فيكون هو الذى يقضى بينهم .. فكان أول من دخل هو الرسول (ﷺ) ، فلما رأوه ، قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما قضى بيننا ثم أخبروه الخبر ، فقال (ﷺ) :

«هَلُمَّ إِلَىَّ ثَوْبًا ، فَأُتِىَ به فَأَخَذَ الرُّكْنَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ ، ثم قال : لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثوب ، ثُمَّ ارْفَعُوه جَمِيعًا» ، فَفَعَلوا ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ ، وَضَعَهُ هُوَ بِيَده ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ .

الوحي

موضـوع الوحى من أهم الموضوعات فى علوم القرآن ، فان نزول القرآن لا يسلم به ولا يقبله الا من آمن بالوحى وبامكان وقوعه ، لهـذا كان من الواجب ان نحدد معنى الوحى ، وكيفياته ، وامكان تحققه ، ودفع الشبهات حوله يزداد الذين آمنوا أيمانا وتنقطع اعذار الذين لم يدخل الايمان قلوبهم ، فنقول وبالله التوفيق .

تعـريف الوحى لغـة :

الوحى فى اللغة من الايحاء ، وهو نوع من الاعلام الخفى السريع يقال : وحى اليه واوحى : كلمة بكلام يخفيه عن غيره ، ووحى اليه واوحى اوما ، واوحى اليه الهمه ، واوحى الرجل : اذا بعث برسول ثقة الى عبد من عبيده ثقة .

قيـل : الأصـل فيـه التفهم ويكون بطرق : منها الكلام والاشـارة والالهام والكتابة بالجملة : هو يطلق على كل ما القيته الى غيرك وغالبا ما يكون فى خفاء(١) .

ولا يلزم أن يكون ذلك على وجه السرعة أو الخفاء ، وان قيل : الأصل فيه السرعة والخفاء ـ كما انه غير مقيد بلون معين من المعـرفة من الخير او الشر بل يشتمل كل ذلك ، وما من شـانه ان يكون طريقا للاعلام حتى يكون المعنى اللغوى جامعا لكل ما تقدم ، ولذلك فان المعنى اللغوى يتناول المعانى الآتيـة :

---

(١) لســان العــرب : مادة : وحى .

١ ـ فيكون الوحي من الله تعالى الى غير العاقل بمعنى الالهام الغريزى ، قال الله تعالى : « وأوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون »(٢) ٠

٢ ـ ويكون الوحى من الله تعالى على البشر على سبيل الالهام الفطرى الواضح من غير نبوة كقوله تعالى : « واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »(٣) ٠

٣ ـ ويكون الوحى من الله تعالى الى الملائكة بطريقة تتناسب مع ملائكيتهم كقوله تعالى : « اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان »(٤) ٠

٤ ـ ويكون الوحى من الشياطين الى أوليائهم بعيدين عن الخير قال تعالى : « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم ٠٠ »(٥) ٠

٥ ـ ويكون الوحى باشارة سريعة ، وقد حمل على ذلك قول الله تعالى عن زكريا : « فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا »(٦) ، اى اشار ٠

٦ ـ ويكون الوحى بالايمان بالجوارح ومنه قول الشاعر :

نظرت اليها نظرة فتحيرت دقائق فكر فى بديع صفاتها
فاوحى الى الطرف انى احبها فاثر ذاك الطرف فى وجناتها

---

(٢) النحل : ٦٨ ٠
(٣) القصص : ٧ ٠
(٤) الأنفال : ١٢ ٠
(٦) مريم : ١١ ٠

والملاحظ أن المعنى اللغوى للوحى يتسع لكل هذه المعانى ، وهذا التعميم سمة المعنى اللغوى ، ويتفق مع التعريف فى ترتيب القاموس(٧) . ولسان العرب كما قالوا ، وما جاء فى فتح البارى لابن حجر : « الوحى الاشارة والكتابة والرسالة والالهام والكلام الخفى وكل ما القيته على غيرك »(٨) .

واذا كان بعض العلماء قد قيد الاعلام بانه الخفى السريع فلأن الاصل فيه ذلك ، ولكنه أصبح يطلق على مطلق الاعلام ، والا فالكتابة والكتاب مثلا لا يتحقق فيها ذلك ، وأى تحديد لا يجعله يستوعب كل الصور المذكورة ، فالأولى التعميم فى المعنى اللغوى حتى يتسع لكل هذه المعانى، وان اختلفت كيفياتها ومصادرها وأهدافها ، فلا عليك أن تسمى كل ذلك وحيا لغويا ، ولكنه ليس بالوحى الشرعى ، أو الحقيقة الشرعية للوحى ، أو الوحى القرآنى .

تعريف الوحى فى الشرع :

تعريف الوحى شرعا هو : أن يعم الله تعالى ما اصطفاه من عباده كل ما أراد . اطلاعه عليه من الوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر .

وعلى هذا فلايكون الوحى الشرعى مصدره الا من الله تعالى ولا يتلقاه الا من اصطفاه الله تعالى ، أى أن الوحى الشرعى متميز عن غيره من صور الوحى بداية ونهاية ، فالوحى بالمعنى الشرعى مختص بالانبياء دون غيرهم ، وأن الموحى هو الله سبحانه وتعالى ، وليس أحد سواه .

---

(٧) ترتيب القاموس المحيط : ٥٨٥/٤ .
(٨) فتح البارى لابن حجز : ٩/١ ، طبعة دار المعرفة ببيروت .

كيفيات الوحى :

١ ـ **الكيفية الأولى : الرؤيا الصالحة** ، فقد كان عليه الصلاة والسلام أول ما بعثه لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح وكان ذلك تهيئة لرسول الله ﷺ حتى ينزل عليه الوحى يقظة ، وليس فى القرآن شىء من هذا النوع لأن القرآن نزل كله يقظة .

وقد ورد فى السنة الصحيحة ، ما يبين كيفية نزول الوحى من خلال الرؤيا الصادقة ، فقد أورد الامام البخارى فى حديثه المشهور باسناده الى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ اى يتعبد ويتطهر ـ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى اهله ، ويتزود الى ذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، فقال : ما انا بقارىء ، قال : فاخذنى نفطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت ما انا بقارىء ، فاخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال اقرأ ، فقلت ما انا بقارىء ، فاخذنى فغطنى الثالثة ، ثم قال : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم** .. » فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة واخبرها الخبر وقال : « لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله ابدا ، انك تصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى اتت ورقة بن نوفل بن أسد بن العزى ابن عم خديجة ، وكان امرءا قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله ان يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له

خديجة يا ابن عم اسمع ابن اخيك ، فقال له ورقة يا ابن اخى ماذا ترى ، فاخبره رسول الله خبر ما رآه ، فقال له ورقة هذا هو الناموس الذى انزل الله على سيدنا موسى ، ويا ليتنى فيها جذع ، ليتنى اكون حيا اذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : او مخرجى هم ؟ ، قال نعم لم يات رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى وان يدركنى يومك انصرك نصرا مؤزرا »(٩) .

ومما يبين ان الرؤيا الصادقة للانبياء فى المنام من انواع الوحى الالهى الذى يجب اتباعه ، ما جاء فى قصة ابراهيم عليه السلام من رؤيا ذبحه لولده ، قال تعالى : « فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ، فلما اسلما وتله للجبين ، وناديناه ان يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزى المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين ، انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين »(١٠) .

والواضح انه لو لم تكن هذه الرؤيا وحيا يجب اتباعه لما اقدم ابراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا ان تفضل الله عليه بالفداء .

ومن هذا النوع ما رآه النبى ﷺ من دخول المسلمين المسجد الحرام وادائهم مناسك العمرة ، وكانت هذه الرؤيا فى وقت لم يكن المسلمون فيه بمامن على انفسهم من اعدائهم ، ولقد تحققت رؤيا النبى ﷺ ، وذكر ذلك الله تعالى فى قوله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن

---

(٩) صحيح البخارى : كتاب الوحى .
(١٠) الصافات : ١٠١ ـ ١١٢ .

المسجد الحرام أن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا »(١١) .

٢ ـ الكيفية الثانية للوحى :

وهى ما يلقيه الملك فى روع النبى ﷺ وقلبه من غير ان يراه .

وذلك كما جاء فى قوله ﷺ : « ان روح القدس نفث فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله واجملوا فى الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فان ما عند الله لا ينال الا بطاعته »(١٢) .

وذلك شعور داخلى عميق كان النبى ﷺ يحسه احساسا يخالج روعه . وذلك هو النفث ، وهو صورة من صور الوحى التى لا يتراءى فيها جبريل للنبى ﷺ عيانا .

٣ ـ الكيفية الثالثة :

ان يأتى للنبى ﷺ على صورة آدمى . ويخاطب الرسول ، والرسول يعى ما يقوله له ، حتى ان الصحابة فى هذه الحالة كانوا يرونه احيانا ، وهذه الكيفية من كيفيات الوحى هى اهون ما يكون من مراتب الوحى بالنسبة للرسول ﷺ .

ولقد جاء فى السنة الصحيحة ما يدل على ذلك فقد أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ بارزا يوما للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الايمان ، أن تؤمن بالله

---

(١١) سورة الفتح : آية ٢٧ .

(١٢) كنز العمال : ١٩/٤ والنفث شبيه بالنفخ ، والروع بضم الراء . القلب .

وملائكته ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث ، قال: ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، قال : ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فهو يراك ، قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : اذا ولدت الأمة ربها ، واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان ، فى خمس لا يعلمهن الا الله ، ثم تلا النبى ﷺ : « ان الله عنده علم الساعة » الآية ، ثم ادبر ، فقال ردوه ، فلم يروا شيئا فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم ٠٠ »(١٣) ٠

ومما هو جدير بالذكر أن جبريل عليه السلام كان اذا أتى النبى ﷺ فى صورة آدمى كان غالبا ما يأتيه فى صورة الصحابى الجليل دحية بن خليفة الكلبى ٠ وكان أزواج النبى ﷺ يرونه معه فيغلب على ظنهن أنه دحية ٠

والذى يوضح ذلك ويؤيده ما أخرجه البخارى بسنده عن أبى عثمان النهدى قال : « أنبئت أن جبريل أتى النبى ﷺ وعنده أم سلمة فجعل يتحدث ، فقال النبى ﷺ لأم سلمة من هذا ؟ أو كما قال ، قالت : هذا دحية فلما قام قالت : والله ما حسبته الا اياه حتى سمعت خطبة النبى ﷺ يخبر خبر جبريل ٠٠٠ »(١٤) ٠

٤ ـ الكيفيــة الرابعــة :

ان يأتيه الوحى فى مثل صلصلة الجرس وكان ذلك أشد أنواع الوحى على النبى ﷺ وكان اذا جاءه الملك فى هذه الحالة لا يرى شخصه ، وانما

---

(١٣) صحيح البخارى : كتاب الايمان ٠
(١٤) المرجع السابق : كتاب فضائل القرآن ٠

يسمع النبى ﷺ عند مجيئه هذا الصوت الذى يشبه صلصلة الجرس ، وعند ذلك يعى النبى ما يقال ، وقد يسمع الجالس مع النبى ﷺ فى تلك الأثناء عند وجهه الشريف دويا كدوى النحل .

ومما يوضح ذلك ويؤيده ما اخرجه البخارى بسنده عن عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه ، سال رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، كيف ياتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : احيانا ياتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو اشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، واحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فاعى ما يقول »

قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا »(١٥) .

وحينما نتامل هذه الصورة من صور الوحى يتضح لنا الآتى :

(أ) ان الدوى الذى كان يسمعه الصحابة عند وجهه ﷺ ، وما كانوا يرونه بانفسهم رأى العين من تغير حال النبى ﷺ عند مجىء الوحى ، كل ذلك دليل حسى مشاهد على صدق ظاهرة الوحى .

(ب) ان العرق الذى كان يعترى النبى ﷺ حتى فى اليوم الشديد البرد عند هبوط الوحى عليه ، وهذه ظاهرة تدل دلالة قطعية على حدوث امر ليس كغيره من الأمور المعتادة ، ولكنه الأمر العظيم الذى يتجلى فى صدق نبوة الرسول وما اخبر به من نزول الوحى عليه ، وهو لا شك ثقيل وبالغ التاثير لما للوحى نفسه من منظر وصورة هائلة مخوفة فضلا عن كلمات القرآن التى كانت تنقش فى قلب النبى نقشا ثم تؤثر فيه اعظم تاثير .

---

(١٥)صحيح البخارى : كتاب بدء الوحى .

(حـ) الصوت القوى الذى كان يسمعه النبى قبل مجيئه الوحى والذى يشبه صلصلة الجرس . ولعل ذلك هو أن يأخذ النبى حذره مسبقا فلا يأتيه الوحى فجاة فتأخذه هزة ويملكه اضطراب لهول المنظر المريع ، فالصوت القوى يثير عوامل الانتباه فتهيأ النفس بكل قواها لقبول الرد ، فاذا نزل الوحى بهذه الصورة على الرسول ﷺ نزل عليه وهو مستجمع القوى الادراكية لتلقيه وحفظه وفهمه .

٥ ـ الكيفية الخامسة :

وذلك بان يكون الوحى بواسطة الملك ويرى النبى ﷺ فى هذه الحالة جبريل على صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها فيوحى اليه ما شاء الله ان يوحيه .

وقدوقعت رؤية النبى ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية مرتين :

المرة الاولى : وقد كانت ببطحاء مكة عند تحنثه فى غار حراء ، حيث رآه ﷺ يسد الافق لعظم خلقه قال تعالى : « ولقد رآه بالافق المبين » ويقول ايضا : « علمه الشديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الاعلى، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو ادنى فاوحى الى عبده ما اوحى »(١٧) .

وفى المرة الثانية : كانت عند سدرة المنتهى ليلة عروجه ﷺ الى السموات العلى يقول الله تعالى : « ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة الماوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى »(١٨) .

---

(١٦) سورة التكوير : ٢٣ .
(١٧) سورة النجم : ٥ ـ ١٠ .
(١٨) النجم : ١٣ ـ ١٧ .

صلصلة الجرس ، فانه بين صفة الوحى لا صفة حاملة(٢٤) .

٢ ـ لا يكون الوحى بالقرآن الا واضحا جليا وفى حال اليقظـة ، فلا يكون الهاما أو مناما ، أو نفثـا فى الـروع ، وانما يكون بواسطة جبريل عليه السلام ، قال تعالى : « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين »(٢٥) .

فواضح من هذه الآيات الكريمة ان القرآن كان ينزل به جبريل عليه السلام على النبى ﷺ بلسان عربى واضح وضوح النهار ، ولهذا كان ﷺ يتعجل القراءة فيحرك بها لسانه وقت تلقين جبريل له وذلك خوفا من ان ينفلت شىء من القرآن ، فانزل الله عز وجل : « لا تحـرك به لسـانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قـرآنه ، ثم ان علينا بيـانه »(٢٦) .

وهذا يدل على وضوح الوحى بالقرآن وضوحا جليا .

---

(٢٤) فتح البارى : ١٩/١ طبعة دار المعرفة ببيروت .
(٢٥) الشـعراء : آية ١٩٢ ـ ١٩٥ .
(٢٦) القيـامة : ١٦ ـ ١٩ .

الأدلة على وقوع الوحى

لما كان موضوع الوحى هو الموضوع الأول والأكبر للاسلام فهو طريق وصول العقيدة والتشريع والأحكام والأخلاق ، ومن اجل هذ اتجه اليه محترفوا الغزو الفكرى ، وصوب اعداء الاسلام سهامهم اليه محاولين التشكيل والتلبيس والخلط بينه وبين الحديث النفسى ، وما الى ذلك ما خاضوا فيه بتبجح وتمحل :

والمنكرون للوحى فريقان :

الفريق الأول : ملحد غير مؤمن الا بالمادة ، وهؤلاء لا ينكرون الوحى فقط بل ينكرون قبل ذلك الاله وهؤلاء لا يصح النقاش معهم فى الوحى بل النقاش معهم فى قضية الالوهية .

الفريق الثانى : يؤمن بوجود الله تعالى ولكنه ينكر الوحى اما انكارا مطلقا لأن الوحى يفقد الأساس العقلى للنبوة ، واما انكارا ملفقا بالاثبات وهو فريق المستشرقين .

وأمثال هؤلاء الضالين عن الحق ، قد سجنوا انفسهم فى دائرة المادة فلا يؤمنون الا بالحسيات التى ترتبط بحواسهم وبذلك يستخفون بامر الالهيات والنبوات والوحى استخفافا لم تصل اليه إظلم عهود الجاهلية .

وأنى لهم ذلك والوحى ثابت لا شك فى ذلك لأن الاساس الذى تقوم عليه أدلة الوحى امور واقعية ثابتة وليس مجرد احتمالات ، لأن الوحى فى حد ذاته عملية لها مظاهرها النفسية والعضوية ، ولها نتائجها التى يتمثل في ... ... بها مرضعها من حياة النبي ﷺ بكل ما تمتلىء

به الحياة من احداث واحوال ومن هنا كانت ضرورة الاعتماد علي الوقائع الثابتة فى ظاهرة الوحى او التى تتصل بها .

واليك الادلة على الوحى ليظهر لنا انه حقيقـة ثابتة لكل صاحب قلب سليم :

١ - الوحى والعـلم الحـديث :

استطاع العلم الحديث أن يقرب الوحى الى الناس بما اخترعه من وسائل الاتصال الحديثة حيث ينتقل الصوت والصورة خلال الهواء وعبر موجات الاثير ثم يستقبل بواسطة اجهزة الراديو واللاسلكى والتليفزيون والتليفاكس ، فبهذه الوسائل استطاع الانسان ان يتصل بغيره فى اى مكان ولو كان على بعد الوف الاميال فيخاطبه بما شاء وان يفهمه ما شاء ويرشده الى ما اراد ، فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية ان يعجز الاله القادر عن ان يوحى الى بعض عبـاده ما شـاء عن طريق الملك او غير الملك ؟ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

ومن الآيات العلمية الواضحة التى تمثل الوحى تمثيلا وتريوم من طريق التجارب التى لا يؤمنون الا بها - وهى ان اتصال النفس الانسانية بقوة اعلى منها قد يحدث فيها ظاهرة من جنس هـذه الظاهرة وينقش فيها معلومات لم تكن مخزونة فى العقـل ، ولا فى الحس قبل ذلك ، فها قد اراهم الله تلك الآية العجيبة فى « اعجوبة التنويم المغناطيسى » فقد اصبح الرجل القوى الارادة يستطيع أن يتسلط بقوة ارادته على من هو اضعف منه حتى يجعله ينام بامره نوما عميقا لا يشعر فيه بوخذ الابر وهنالك يكون رهين اشارته وتنمحى ارادته فى ارادته ، فلو شاء أن يمحو من نفسه رايا او عقيدة لمحاها بكمة واحدة ، بل لو شاء ان يمحو من

من نفسه رايا او عقيدة لمحاها بكمة واحدة ، بل لو شاء ان يمحو من

صدره اسم نفسه ويلقنه اسما آخر يقنعه بانه هو اسمه لما وجد منه الا ايمانا وتسليما ، ولاصبح اسمه الحقيقى نسيا منسيا ، ولبقى هذا الاسم المصنوع منقوشا علي قلبه ولسانه بعد ان يستيقظ الى ما شاء الله ، فاذا كان هذا فعل الانسان بالانسان فما ظنك بمن هو اشد قوة ؟

وحوادث التنويم المغناطيس وآثارها البدنية والنفسية اكثر من ان تحصى ، ولقد كان شاهد عيان فى تجربة من هذا النوع عالم فاضل من علماء الأزهر والشريف هو الاستاذ الشيخ « محمد عبد العظيم الزرقانى رحمه الله تعالى » .

يقول ـ رحمة الله تعالى ـ . . . وهذه التجربة ـ التى تقرب الوحى كل التقريب ـ رايتها بعينى وسمعتها باذنى بنادى جمعية الشبان المسلمين على مرأى ومسمع من جمهور مثقف كبير حضر ليشهد محاضرة مهمة فى التنويم المغناطيسى .

فلقد قام المحاضر وهو استاذ فى التنويم المغناطيسى ، واحضر الوسط وهو فتى فية استعداد خاص للتاثر بالاستاذ ، والاستاذ فيه استعداد خاص للتاثير على الوسيط ، فالأول ضعيف النفس ، والثانى قويها ، نظر الاستاذ فى عين الوسيط نظرات عميقة نافذة ، واجرى عليه حركات يسمونها سحبات ، فما هى الا لحظة حتى راينا الوسيط يغط غطيط النائم ، وقد امتقع لونه وهمد جسمه ، وفقد احساسه المعتاد ، حتى لقد كان احدنا يخزه بالابرة وخزات عدة ويخزه كذلك ثان وثالث ، فلا يبدى الوسيط حراكا ، ولا يظهر اى عرض لشعوره واحساسه بها وحينئذ تاكدنا انه قد نام ذلك النوم الصناعى أو المغناطيسى ، وهناك تسلط الاستاذ على الوسيط يساله : ما اسمك ؟ فأجابه باسمه الحقيقى ، فقال الاستاذ : ليس هذا هو اسمك ـ انما اسمك كذا ـ وافترى عليه اسما آخر ـ ثم أخذ يقرر فى نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب ويمحو منه اثر الاسم

القديم الصادق بواسطة اغاليط يلقنها اياه فى صورة الادلة ، وبكلام يوجهه اليه فى صيغة الامر والنهى ، وهكذا املى عليه هذه الاكذوبة املاء ، وفرضها عليه فرضا ، حتى خضع لها الوسيط واذعن .

ثم اخذ الاستاذ واخذنا نناديه باسمه الحقيقى المرة بعد المرة الاخرى فى فترات متقطعة ، وفى اثناء الحديث على حين غفلة ، كل ذلك وهو لا يجيب ، ثم نناديه كذلك باسمه المصنوع فيجيب دون تردد ولا تلعثم .

ثم امر الاستاذ وسيطه ان يتذكر دائما ان هذا الاسم الجديد هو اسمه الصحيح حتى الى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته ، ثم ايقظه واخذ يتم محاضرته ونحن نفجأ الوسيط بالاسم الحقيقى فلا يجيب ، ثم نفجؤه باسمه الثاني فيجيب ، حتى اذا مضى نصف الساعة المضروب عاد الوسيط الى حاله الأولى من العلم باسمه الحقيقى .

وبهذه التجربة اثبت الاستاذ ان المنوم « بكسر الواو » يستطيع ان يمحو من نفس وسيطه كل اثر يريد محوه ، مهما كان ثابتا فى النفس ، كاسم الانسان عينه ، ومهما كان مقدسا فيها كعقائد الدين .

وانما اختار الاستاذ محو الاسم دون الدين لامرين :

احدهما : ان محو الدين عدوان اثيم ، واجرام شنيع لم تقبله نفسية المحاضر ولا المحاضرين .

ثانيهما : ان الاسم اثبت فى نفس صاحبه من دينه فمحوها منها اعجب ، ومنه تعلم ان محو الدين فيها ايسر .

وبهذه التجربة ايضا ثبت لى انا من طريق علمى ما قرب الى الوحى عمليا ، وما جعلنى اعلله تعليلا علميا : فالوحى « عن طريق الملك » عبارة عن اتصال الملك بالرسول اتصالا يؤثر به الأول فى الثانى ويتأثر

فيه الثانى بالأول وذلك باستعداد خاص فى كليهما ، فالأول فيه قوة الالقاء والتأثير ، لأنه روحانى محض والثانى فيه قابلية التلقى عن هذا الملك لصفاء روحانيته ، وطهارة نفســه المناسبة لطهــارة الملك ، وعند تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية ، ويظهر أثر التغيير عليه ويستغرق فى الأخذ والتلقى عن الملك وينطبع ما تلقاه فى نفســه حتى اذا انجلى عنه الوحى وعاد الى حالته الأولى وجد ما تلقاه ماثلا فى نفسه ، حاضرا فى قلبه كانما كتب فى صحيفة فؤاده كتابا (١) .

وعلى هذا فاذا كان المخلوق البشرى بامكانه ان يؤثر فى مخلوق مثله فكيف لا يستطيع خالق البشر أن يؤثر فى نفس ما يشــاء من عبــاده بواسطة الوحى كلا وألف كلا سبحانه وتعالى اذا أراد شيئا يقول له كن فيكون ، بيد أن هناك بعــدا شاســعا بين وحى الله تعالى لأنبياء ووحى الناس بعضهم لبعض ، فالناس كما هو معــروف يوحون زخرف القول غرورا ، وكثيرا ما يترك وحيهم فى نفس متلقيه اعراضا عقلية أو بدنية يصعب علاجها ، فاين هذا من الوحى بين رسولين مؤيدين من اصطفاهما الله لرسالته ، رسول من الملائكة ورسول من الناس ، فاما الرسول الملكى فانه كما هو معلوم لا يوحى الا بالحق ، ولا يأمر الا بالخير ، واما الرسول البشرى فانه لا يزال من بعد كما كان من قبل ، ثابت الفؤاد كامل العقل قوى النفس والبدن .

واذا نظرنا الى الجانب العلمى فى القرآن الكريم لوجدناه يدل دلالة واضحة على اعجاز القرآن وانه وحى الله تعالى الى رسوله ﷺ ، بيد أنه من المعروف ان القرآن كتاب هداية واصلاح قبل كل شىء ، ومن أهم ما جاء به وهو بصدد الدعوة الى الايمان أن جاء باشارات كونية توقظ

---

(١) مناهل العــرفان : ٦٠/١ ــ ٦٢ .

الانسان وترشده نحو الايمان كما قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق »(٢) .

وهذه الآيات الكونية التى اشار اليها القرآن حملت لمحات ضوئية نحو حقائق العلم ، واذا نظرنا إلى تلك الاشارات العلمية نجدها قد ظهرت فى صورة حقائق علمية توصل اليها العلماء بعد مراحل بعيدة من نزول القرآن ، وذلك مثل قوله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين اثنين »(٣) « والله خلق كل دابة من ماء »(٤) « وارسلنا الرياح لواقح »(٥) « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى »(٦) .

والمتأمل لتلك الآيت يرى أنها قد اثبتت حقائق علمية سبقت العصر الذى اكتشفت فيه فكيف لمحمد ﷺ أن يعرف أن كل شىء مكون من زوجين : والعلماء قد قاموا بمسح شامل بواسطة المعامل والاكتشافات حتى توصلوا الى ذلك .

وكيف للنبى ﷺ أن يعرف كل ما يدب على الأرض اصله من ماء ! ، وكيف يعرف ان الكون بكل مكوناته كانت واحدة ثم فصلت ، فهل شهد خلق السموات والأرض بل كيف عرف أن الرياح تحمل اللقاح ويتم التزاوج بواسطتها .

فهل عرف النبى ﷺ كل ذلك من تلقاء نفسه ، وهو النبى الأمى المنطبع بثقافة عصره وهى ثقافة محدودة تحيط بها الأوهام والخرافات ،

---

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .
(٣) الزاريات : ٤٩ .
(٤) النور : ٤٩ .
(٥) الحجر : ١٥ .
(٦) الأنبياء : ٢١ .

تقول كيف ينهض النبى ﷺ بتلك الاشارات العلمية سبحان الله انه الوحى الالهى .

ومما يجب التنبيــه عليه ان تلك الاشارات العلمية التى جاء الوحى لا تعارضها الاكتشافات العلمية الحديثة بل هى متفقة معها وليس هنـــاك تعارض بينهما .

٢ ـ الوحى من الناحية العقلية :

اولا حياة النبى ﷺ ونشاته :

من المقرر والمعروف عند أصحاب العقول السليمة بان اى انســان ينشا فى مثل ما نشـأ فيه الرسول ﷺ من يتم وفقــر وبيئة جاهلية بكل ابعادها ، ان الانسان الذى ينشا تلك النشأة ـ لا شك حسب السنن المقررة سوف ينشا حسب معتقدات عصره حيث ينطبع فى نفسـه تلك المشاهدات والمسموعات ، ويتاثر بذلك عقله ، ولا يمكن ان يحيد عن ذلك خاصة وليس هنا مرشد أو معلم أ و هاد ينير الطريق ، ولكن الأمر لم يجر على ذلك السنن بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره فعاجلته طهارة العقيدة كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء فى القرآن من قوله تعالى : « ووجدك ضالا فهدى »(١) لا يفهم منه انه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد او على غير السبيل القويم ، حاشى لله ، ان ذلك لهو الافك العظيم ، وانما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين وارشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه ﷺ الى ما كانت تتلمسه بصيريته ، باصطفائه لرسالته .

والمتامل شخصية الرسول ﷺ من الناحية الموضوعية من حيث مطالبه

---

(١) الضحى : ٧ .

او تعلقاته فنجده لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه ، وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى الاسلام .

وقد عرضت قريش على النبى ﷺ الزعامة والملك فرفض ، مما يدل على صدقه فى دعوته ، وانه مؤيد بالوحى من الله تعالى ، فقد جاء فيما يرد به ابن هشام عن ابن اسحاق : « إن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا ذا بصيرة ورأى فى قومه ـ قال فى نادى قريش ، الا اقوم إلى محمد فأكلمه ، واعرض عليه امورا لعله يقبل بعضها فنعطيه ايها شاء ويكف عنا ؟ فقالوا بلى يا أبا الوليد : قم اليه فكلمه ، فجاء عتبه حتى جلس الى الرسول ﷺ فقال : يا ابن اخى ، انك منا حيث علمت من الشرف فى العشيرة والمكانة فى النسب ، وأنك قد اتيت قومك بامر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به احلامهم ، فاسمع منى اعرض عليك اموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد ، اسمع .

قال يا ابن اخى : ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وأن كان هذا الذى يأتيك رئيا تـراه لا تستطيع ، رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا منه أموالنا حتى نبرئك منه .

فقال رسول الله ﷺ : افرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم قال فاسمع منى ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه ،

وفى آذاننا وقـر ومن بيننا وبينك حجـاب فاعمـل اننا عاملون ، قـل انما انا بشر مثلـكم يوحى الى انما الهـكم اله واحـد فاستقيموا اليـه واستغفـروه وويل للمشركين »(٨) .

ثم مضى رسول الله ﷺ فى القراءة وعتبة يسمع حتى وصل الى آ ية تعالى : « فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عـاد وثمـو: » فامسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن القراءة وذلك خوفا مماتضمه الآية من تهديد .

ثم عـاد عتبـه الى اصـحابه فلمـا جلس بينهم قالوا : ما وراءك يا ابا الوليد ؟ قال ورائى انى سمعت قولا ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش : إطيعوني وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فانه تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكم ملككم وعزه عزكم . قالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه قال : هذا رايى فيه فاصنعوا معه ما بدا لكم(٩) .

واذا نظرنا الى هذا المشهد من سيرته ﷺ يتضح لنا فى تمحيص دقيق حقيقة الدعوة التى جاء بها النبى ﷺ وانها دعوة صادقة من عند الله تعالى بعيدة كل البعد عن كل ما قد يتلبس بها من الاهداف والاغراض التى قد يضمرها فى انفسهم عادة اصحاب الدعوات الجديدة والمنـادون بالثورة والاصـلاح .

فهل كان النبى ﷺ يضمر من وراء دعوته الوصول الى ملك ؟ أو لعله يضمر الوصول الى مستوى رفيع من الزعامة أو الغنى ، أو لعل الامـر لا يعدو خيالات ، تتراءى له بسبب مرض يعانيه .

---

(٨) سـورة فصلت : ١ ـ ٦ .
(٩) سيرة ابن هشام : ٢٩٣/١ ، ٢٩٤ .

فكل هذه الاحتمالات قد يتذرع بها محترفوا الغزو الفكرى واعداء هذا الدين ولكن حياة النبى ﷺ التى هيأها له ربه قد ملأها الله عز وجل بالمواقف والمشاهد التى تقطع دابر كل احتمال وتقطع السبيل الى كل وسواس وتدع ارباب الغزو الفكرى حيارى فى الطريقة التى ينبغى لهم ان يسلكوها فى حربهم الفكرية ، فقد كان من حكمة الله تعالى ان يقوم مشركوا قريش بسلسلة من المفاوضات مع رسول الله ﷺ بعد ان صوروا فى انفسهم كل هذه الاحتمالات ، وهم ادرى الناس بطبيعة دعوته والغاية البعيدة من رسالته وبانه لن ينزل عند شىء من مغرياتهم ، ولكن هكذا ارادت الحكمة الالهية حتى ينطق التاريخ بتكذيب كل من سياتى من محترفى التشكيك والغزو الفكرى مع الزمن .

ثم ان الناظر الى معيشته ﷺ فقد كانت مطابقة لكلامه ، فلم يعرض عن الزعامة والملك بلسانه ليصل اليهما خلسة بسعيه وعمله ، بل كان بسيطا فى ماكله ومشربه ، لا يعلو عما عليه الفقراء والمساكين ، وكان أيضا بسيطا للغاية فى ملبسه واثاث بيته ويؤثر فى جنبه الحصير ، وماعرف أنه نام قط على وثير ، ومما يدل على ذلك ان نساء النبى ﷺ جئن اليه يوما وفيهن السيدة عائشة رضى الله عنها يشتكين الفاقة ويطالبنه بمزيد من النفقة لزينتهن ولباسهن حتى لا تكون احداهن اقل شانا من مثيلاتها من نساء الصحابة ، فاطرق مغضبا ولم يجب ثم انزل الله تعالى قوله : **« يا ايها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما »(١٠) .**

فتلى رسول الله ﷺ عليهن هاتين الآيتين ، ثم خيرهن بين قبول

---

(١٠) راجع صحيح البخارى : كتاب التفسير سورة الاحزاب ، تفسير ابن كثير .

العيش معه على الحالة التى هو فيها ، او الاصرار على مطالبهن من النفقة وزيادة الزينة والمال وحينئذ يفارقهن ويسرحهن سراحا جميلا فاخترن العيش معه على ما هو عليه .

فكيف يشك العقل بعد هذا كله فى صدق نبوته وأنه مؤيد بالوحى الالهى ، وكيف يصح ان يتوهم الفكر او الخيال بانه قد يكون مدفوعا برغبة الزعامة او الطمع فى الغنى ؟ فها هو قد اعرض عن الزعامة والغنى ، فما الذى جعله يترفع عن كل ذلك الذى هو مطمع ورغبة كل انسان .

ان الذى رفع نفسه فوق النفوس ، واعلى زانه على الرءوس وسما بهمته على الهمم انه الوحى الالهى الذى أيد الله به محمدا ﷺ ، انه نداء العناية العليا الذى وسع كل شىء رحمة وعلما .

ثانيا : الوحى واقتناع النبى به :

لقد نزل الوحى على النبى ﷺ وهو فى عزلته عن الناس بغار حراء ، وكانت مفاجاة لها وقعها واثرها على نفس النبى ﷺ ، فانسان يعيش بمعزل عن قومه ويترفع عن رزائلهم ، وفى مكان بعيد يتفكر فى الكون ، وهو فى حالة الاستغراق ياتيه الملك ويامره بالقراءة ، وهو امر غريب على رجل امى وينتهى الامر عند هذا الحد ، ويذهب الرسول ﷺ وهو يرتجف ويتصبب عرقا يطلب الطمانينة من زوجة مخلصة صادقة فتطمئنه وتهدأ من روعه .

ومن هذا الموقف يتضح لنا عدم اطمئنان النبى على حالته ، ثم بعد ذلك ينقطع الوحى فترة ، ويتتابع بعد ذلك . وهنا نقول : ما الذى اعتمد عليه النبى ﷺ فى اقتناعه بحقيقة الوحى ؟

لقد اقتنع النبى ﷺ بحقيقة الوحى بالآتى :

ولكن الإتصال بالملك هو هكذا حتى ان جبينه الشريف ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد . يقول القسطلانى :

وان جبينه ليتفصد عرقا من كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحى اذ انه أمر طارىء زائد على الطباع البشرية ، وانما كان كذلك ليبلو صبره فيرتاض لاحتماله ما كلف من اعباء النبوة(١٤) .

وهذا هو الذى عرضه فى اطناب صاحب السيرة الحلبية اذ قال : وقوله يأتينى احيانا له صلصلة كصلصلة الجرس واحيانا يتمثل لي الملك رجلا ، وكان ﷺ يجد ثقلا عند نزول الوحى ، يتحدر جبينه عرقا فى البرد كانه الجمان وربما غط كغطيط البكر محمرة عيناه ، وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه : كان اذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ ثقل لذلك ، ومرة وقع فخذه على فخذي فوالله ما وجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ؛ وربما أوحي اليه وهو على راحلته ، يترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم ، وربما بركت ، وجاء انه لما نزلت سورة المائدة عليه ﷺ على ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها ، وفى رواية فاندق كتف راحلته القضباء من ثقل السورة ... وجاء : ما من مرة يوحى الى ظننت ان نفسى تقبض منه ، وعن أسماء بنت عميس كان رسول الله ﷺ اذا نزل عليه الوحى يكاد يغشى عليه ، وفى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ اذا نزل عليه الوحى استقبلته الرعدة ، وفى رواية كرب لذلك وتربد له وجهه وغمض عينيه ، وربما غط كغطيط البكر(١٥) .. الخ .

وهكذا كانت كل هذه الظواهر التى صاحبت الوحى تؤكد للنبى ولمن حوله حقيقة الوحى والاقتناع به اذ ليس من المقبول ان يشاهد هذه

---

(١٤) ارشاد السارى ٥٩/١ ، ٦٠ .
(١٥) السيرة الحلبية : ٢٨٢/١ .

الظواهر اليحس بها، ويشاهدها ايضا من جوله وحتى رأينا ما يثبته سيدة خديجة رضى الله عنها للرسول ﷺ : ابشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

ليس من المقبول أن يكون كل ذلك من ظواهر الوحى ثم يكون رسول الله ﷺ ـ وحاشاه ذلك ـ أن يكون حال تغايرها فى اليقين والتثبت . نعم لقد كان اقتناع النبى ﷺ بالوحى هو الذي جعله يتحمل المشاق فى تبليغ الدعوة ،وأن يصبر على اذى الكفار ولم يقبل مساومتهم الى عرضوها عليه كما سبق فجزاه رب العالمين خير ما جزى به نبينا عن أمته .

ثالثا : مسلمات تؤكد الوحى :

١ ـ لقد نشأ النبى ﷺ أميا وفى وسط بيئة ليس لديه من معرفة البشر سوى الأفكار الشائعة فى وسطه البدائى الوثنى البدوى الذى لا مجال فيه للمشكلات الاجتماعية ، ذلك أن معارف العرب عن الحياة الاجتماعية والفكرية لدى الشعوب الأخرى ليست بذات قيمة اذا ما رجعنا الى الشعر الجاهلى الذى يعتبر مصدرا قيما للمعلومات فى هذا الماوضوع .

وفى ذهاب النبى ﷺ الى عزلته فى غار حراء لم يكن لديه سوى ذلك المتاع العادى من الافكار الشائعة فى وسطه البدائى وفى هذه الظروف وفى سن الأربعين يأتى الوحى « فتقلب تلك المعرفة الضئيلة المحاطة بسياج مزدوج من الجهل العام والأمية الخاصة عند محمد ﷺ »(١٦) الى معرفة عظيمة يتحدى بها الانس والجن .
ان هذا الانقلاب والتحول يعطى الرسول الدليل العقلى على

---

(١٦) الظاهرة القرآنية : ١٧٦ .

أن الذى حدث لا يمكن ان يكون حالة ذاتية ، بل هى من مصدر عالى جاء به الوحى .

٢ - لم يكن الوحى يأتى النبى ﷺ طوع ارادته فلقد نزل عليه أولا ثم فتر عنه حتى حزن النبى ﷺ لذلك « واخيرا وبعد عامين ينزل الوحى ، فيأتيه بالكلمة العليا الوحيدة التى هى بلسم الشفاء ... كلمة الله العليا ، لقد اشرقت اسارير النبى اذ هو يملك منذ الآن البرهان الأدبى والعقلى على ان الوحى لا يصدر عن ذاته ، ولا يوائق طوع ارادته ، فلقد بدا له عصيا لا يمكن ان يخضع له كما لا تخضع له افكار الآخرين وكلماتهم . ولديه الآن برهان موضوعى الى أقصى درجة على صحة اقتناعه الجديد »(١٧) .

٣ - ان ما جاء فى القرآن الكريم من تفصيلات لأخبار الامم السابقة ومطابقتها لما فى الكتب السابقة لتدل دلالة قطعية على ان القرآن من عند الله تعالى ، والا فكيف استطاع النبى ﷺ ان يدرك تلك الحقائق التاريخية والكونية والاجتماعية التى لم يسبق ان سلجت فى صفحة معارفه بل حتى فى معارف عصره ومناحى اهتمامه .

ومن هنا نعلم حينما تحدى اليهود الرسول ﷺ بان يخبرهم عن قصة يوسف عليه السلام فاوحى الله اليه واخبرة بذلك ، وفى هذا دليل عقلى محسوس يؤكد للنبى ﷺ بان الوحى ظاهرة مستقلة وليس امرا ذاتيا .

ولقد كانت هذه مسلمة عقلية لها دلالتها الواضحة على تيقن الرسول بحقيقة الوحى وقد توجه الله بها الى كافة المؤمنين فى صورة خطاب الى

---

(١٧) المصدر السابق : ١٧٧ .

النبى ﷺ فقال تعالى : « فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فسأل الذين يقراون الكتاب من قبلــك ، ولقد جاءك الحــق من ربك فلا تكونن من الممــترين »(١٨) .

يحدثنا المفسر جــلال الدين السيوطى فيقول : ان النبى ﷺ عقب على ذلك قائلا « لا اشك ولا أسأل »(١٩) .

وتلك المناسبة التى نزلت من أجلها سورة يوسف عليه السلام فكما قرر الزمخشرى فى تفسيره : نزلت هذه السورة المكية عقب نوع من التحدى الذى جابهه به علماء بنى اسرائيل لقد سالوه صراحة عن قصة يوسف فنزلت(٢٠) .

ويقول صاحب الظاهر القرآنية : ولكنها ـ اى سورة يوسف ا كانت قد اجابت على تحــد صادر عن احبــار اليهود او غيرهم فانها لم تكن لتحســم النزاع الا بمقابلة دقيقــة بين نصوص التوراة وقصص القرآن ، ولا شك ان النبى لم يكن فى نفسه مهتما بمثل هذه المقابلة التى تتيح له فرصـــة المقــارنة الموضــوعية بين الوحى والتــاريخ الثــابت فى كتــب بنى اسرائيل »(٢١) .

ومما هو جدير بالذكر أن سورة يوسف اذا كانت قد اجابت على تحد من هذا النوع ، فانها ايضا موجهة الى كل صاحب عقل مستنير ان يعقــد تلك المقابلة بين ما جاء به القرآن وما جاءت به الكتب السابقة ليسلم بان هذا القرآن منزل من عند الله تعالى .

---

(١٨) يونس : ٩٤ .
(١٩) تفسير الجلالين : ٣٧٣/٢ .
(٢٠) تفسير الكشاف : ٤٤٠/٢ .
(٢١) الظاهرة القرآنية : ١٨٢ .

رابعا : العجز عن معارضة القرآن الكريم :

انزل الله سبحانه وتعالى القرآن على النبى ﷺ وتحدى به الخلق جميعا أن ياتوا بمثله او بعشر سور منه أو بسورة واحدة فما استطاعوا ، وظل هذا التحدى قائما من وقت نزول القرآن والى اليوم والى ان تقوم الساعة ، قال تعالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين »(٢٢) .

وهذا تحدى واضح للجميع جاء به القرآن للبشرية جمعاء ، ورغم هذا التحدى لم يستطع البشر معارضته مع محاولتهم المستمرة فى القضاء على القرآن مع مرور قرون طويلة على نزول القرآن ، وقد اعترف العرب الذى نزل القرآن بلسانهم ان نظم القرآن خارج عن المعهود من نظام كلامهم ، وله اسلوب يختص ويتميز فى تصرفاته عن اساليب الكلام المعتاد ، ومن ثم فقد ادهشهم اسلوب القرآن وحير البابهم بسمو بيانه وروعة معانيه ودقة ائتلاف الفاظه ، لان تاليف القرآن البديع ونظمه العجيب قد اخذ عليهم منافذ البيان كلها وقطع اطماعهم فى معارضته ، فظلوا مقموعين ومدحورين يتجرعون مرارة الاخفاق مع شيوع البلاغة والفصاحة فيهم ، وصدق الله العظيم : « كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »(٢٣) .

ولو لم يكن هذا التحدى لظن واهم بأن هناك احتمال للاتيان بمثل

---

(٢٢) سورة البقرة : ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢٣) سورة هود : ١ .

القرآن ، ومن هنا كان التحدى بالمعارضة ليقضى على اى وهم او احتمال وليثبت بالدليل القطعى بان معارضة القرآن مستحيلة ، فلو كانت معارضه فى مقدور البشر لوقعت وحيث لم تقع فما معنى هذا ؟

معناه ان القرآن يستحيل أن يكون نتاج فكر بشرى وقد عجزت البشرية عن الاتيان بمثله او بمثل شىء قليل او كثير ، وبذلك تبطل حجة من يدعى ان القرآن من عند محمد ، ذلك انه يستحيل في المفهوم العقلى ان يتميز النبى ﷺ بتلك الخاصية دونا عن البشر جميعا ، اذن هو فوق قدرة البشر وصدق الله العظيم حيث يقول : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٢٤) .

خامسا : حفظ الله تعالى للقرآن الكريم :

لقد مضى على نزول القرآن قرون واحقاب ومضى اناس وجاء آخرون فى اثرهم والقرآن ثابت لا يتغير ولا يختلف يتبوأ مكانة عالية ، وذلك لأن الله حفظه ، كما قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(٢٥) .

وهذا يدل دلالة قطعية على ان القرآن من عند الله تعالى وذلك لأن هذه الآية تحمل دعوى مضمونها ان القرآن قد كفل الله حفظه الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ، والذى اخبرنا بذلك القرآن على لسان محمد ﷺ ، والرسول الآن فى ذمة الله تعالى .

---

(٢٤) الاسراء : ٨٨ .
(٢٥) الحجر : ٩ .

واذا نظرنا الى مدى صدق هذه الدعوة الآن وبعد مرور المئات من السنين فنجدها صادقة لأن القــرآن لم ينحــرف منه حرف واحد واصبح القــرآن محفوظا .

ولكن ما الذى حفظه ؟ أهو محمد ؟ ان محمدا قد مات ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضررا .

ومن هنا فلو كان القرآن من عند محمد لـما تجرأ على تلك الدعوة التى لا يضمن لها حفظا بل كان من الضرورى له ألا يدعيها ، اذن فمن ذا الذى حفظ القرآن الكريم؟ إنه رب العالمين انزله على قلب النبى ﷺ هدى ورحمة للعالمين .

الوحى والجــانب التــاريخى :

اذا نظرنا الى القرآن الكريم لوجدناه اشتمل على جوانب تاريخيــة عظيمة تدل على صدق النبى ﷺ ومع اشتمال القرآن على ذلك فهو لا يعد كتابا تاريخيا فى منهجه وغايته فهو فى المقام الأول كتاب هداية ولكن الناحية التاريخية فى القرآن مقصود بها ايضا العظة والاعتبار باخبــار الســـابقين .

ولذلك فقد جاء القرآن باخبار عديدة مثلما جاء عن بنى اسرائيل فى بيان احوالهم الاجتماعية وعقيدتهم ودخولهم مصر وهجرتهم منها وموقفهم من أنبيــائهم وكشف هويتهم وطبيعتهم ومســالكهم فى أمــور الحياة وغير ذلك من الاخبار عن الأمم السابقة .

ان تلك الجوانب ليست مجرد سرد وانما جاءت بتفصيلات دقيقــة محددة الأماكن والأســماء والأرقام ، فكل تلك التفصيلات لها دلالتهــا العميقة على حقيقة الوحى فهى تاريخيا صحيحة اثبت صحتها الواقع .

ومعنى هذا أن القرآن قد اشتمل على اخبار كثيرة التى لا علم لمحمد ﷺ بها ولا سبيل لمثله ان يعلمها مما يدل دلالة بينة على ان هذا القـرآن المشتمل على تلك الجوانب التاريخية لا يعقل ان يكون نابعا من نفس محمد ولا من غيره من الخلق ، بل هو كلام الله تعالى .

لقد اخبرنا القرآن ان نوحا عليه السلام لبث فى قومه : « الف سنة الا خمسين عاما » ومع طـول مكث نوح معهم فما « آمن به من قـومه الا قليـل » ، واخبرنا أن الريح التى اهلك الله بها عادا ظلت مسخرة عليهم سبع ليـال وثمانية ايام حسـوما » .

واخبرنا كذلك ان اصحاب الكهف لبثوا فى كهفهم « ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا » لقد اخبرنا النبى بذلك فى القرآن وهو الذى قال عنه ربه « وما كنت تتلو من قبـله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذ لارتاب المبطلون » وقال له ايضا : « تلك من أنبيـاء الغيب نوحيهـا اليـك ما كنت تعلمهـا انت ولا قومـك من قبـل هـذا » . . الى غير ذلك مما جاء فى القرآن الكـريم .

فكيف لنبى امى لم يتلق تعليما يوما عن احد ولم يقـرأ قبل نزول الوحى كتابا ولم يخط طول عمره حرفا واحدا .

اقول : كيف برجل امى ليس له عهد بتاريخ ولا ثقافة تؤهله لذلك ، فاذا به يخبرنا بادق تفاصيل امور غيبية ضاربة فى عمق التاريخ .

ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم يتاثر بثقافة كتابية ، وبهذا يتضح لنا ان القرآن الكريم وحى الله تعالى .

واذا كان بعض المغرضين من المستشرقين يقولون بان القرآن فيه تشابه مع الكتب السابقة مما يدعم قولهم بانه فكر ذاتى .

نقول : نعم هناك وجه شبه ولكن فى الخطوط العامة العريضة وهذه حجة للقرآن لا عليه .

فان هذا التشابه بين القرآن والكتب السابقة له دلالته على صدق الرسول من حيث انه اخبر بدقائق لا علم له بها وهذا ما ايده الواقع حيث رأينا كيف تحدى اليهود الرسول ﷺ بان يخبرهم عن قصة يوسف وغيرها فاخبرهم .

ويتضح من هذا ان اليهود لو كانوا يعلمون ان الرسول عالم بما طلبوه ما سألوه بل كانوا يتهمونه بانه اخذ تلك المعلومات منهم او غيرهم .

هذا وقد كشف التاريخ عن بعض معجزات القرآن بما لا يدع مجالا للشك ان القرآن هو وحى الله الى نبيه ﷺ فقد جاء فى سورة التوبة قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير بن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله انى يؤفكون »(٢٦) .

فصدر هذه الاية وهو جملة « عزير بن الله » يتضمن من وقائع التاريخ وحقائق العلم امرا لم يكن احد يعرفه على وجه الارض فى عصر نزول القرآن .

يقول صاحب كتاب مناهل العرفان : ذلك أن اسم عزير لم يكن معروفا عند بنى اسرائيل الا بعد دخولهم مصر واختلاطهم باهلها واتصالهم بعقائدها ووثنيتها ، واسم عزير هو (أوزيرس) كما ينطق به الافرنج او (عوزر) كما ينطق به قدماء المصريين منذ تركوا عقيدة التوحيد

---

(٢٦) التوبة : ٣٠ .

وانتحلوا عبـادة الشمس ، كانوا يعتقدون فى عوزر او أوزيرس انه ابن الله ، وكذلك بنو اسرائيل فى دور من ادوار حلولهم فى مصر القـديمة استحسنوا هذه العقيدة عقيدة ان أوزيرس ابن الله .

وصار اسم أوزيرس او عوزر (عـزير) من الاسماء المقدسة التى طرأت عليهم من ديانة قدماء المصريين ، وصاروا يسمون اولادهم بهـذا الاسم الذى قدسوه كفرا وضلالا ، فعاب الله عليهم ذلك فى القرآن الحكيم ، ودلهم على هذه الوقائع من تاريخهم الذى تسيه البشر جميعا .

ان اليهود لا يستطيعون أن يدعوا فى وقت من الاوقات ان اسم عزير كان معروفا عندهم قبل اختلاطهم بقدماء المصريين وهذا الاسم في لغتهم من مادة (عوزر) وهى تدل على الالوهيـة ، ومعناه الاله المعين ، وكانت بالمعنى نفسه عند قدماء المصريين فى اسم عوزر او اوزيرس الذى كان عندهم فى الدهر الاول بمعنى الاله الواحد ، ثم صاروا يعتقدون أنه ابن الله عقب عبادتهم للشمس واليهود اخذوا منهم هذا الاسم فى الطور الثانى عندما كانوا يعتقدون ان اوزيرس ابن الله .

فهذا سر من اسرار القرآن ، لم يكتشف الا بعد ظهور حقيقة ما كان عليه قدماء المصريين فى العصر الحديث ، وما كان شىء من ذلك معروفا فى الدنيا عند نزول القرآن ! ، حتى إن أعداء الإسلام كانوا يصوغون من جهلهم بهذه الحقيقة التاريخية شبهة يلطخون بها وجه الاسلام ويطعنون بها فى القرآن ، فقال اليهود منهم : « إن القرآن يقول لنا ما لم نقـل فى كتبنا ولا فى عقائدنا ... »(٢٧) .

ومن هذا يتضح ان كل تلك التفصيلات التى جاء بها القرآن لهـا دلالتها العميقة على حقيقة الوحى فهى تاريخيا صحيحة اثبتها الواقع من خلال الاكتشافات العلمية .

---

(٢٧) مناهل العرفان : ٢/٢٧٩ـ ٢٨٠ .

الوحي والاخبـار بالغيبيـات :

لقد اشتمل القرآن على قضايا عقائدية تتعلق بالجانب الغيبى ، وقد جاءت هذه القضايا بتفصيلات كثيرة آمن بها العقل واستقرت بها النفس ، قضية الالوهيـة اشتملت على عقـائد هـامة مثل الوحدانية وصفات الله تعالى التى لا يستطيع البشر الوصول الى معرفتها .

ولقد اثبت لنا تاريخ الفكر البشرى مدى التعثر والتضارب فى هذا الجانب العقدى ، فجاء القـرآن ووضحه توضيحا يسلم به العقل السليم وتطمئن له النفس .

وهناك ايضا قضايا تتعلق بالايمـان بالملائكة واليوم الآخـر ، وقد جاءت تفصيلات دقيقة عن الملائكة واسمائهم وحقيقتهم ووظائفهم ـ كما جاءت تفصيلات عن اليوم الآخر من حساب وعقاب وجنة ونار ..

وهناك ايضا امور غيبية تتعلق ببعض الوقائع المشاهدة والتى أنبأ القرآن عنها قبل حدوثها ، ثم تحققت بعد ذلك كما اخبر القرآن الكريم منهـا :

أولا : أخبر القرآن بان الرسول ﷺ واصحابه ـ وقد كانوا بالمدينة ـ سيدخلون مكة آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين فقد قال الله تعالى فى القرآن الكريم : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخـافوا » . ثم تحقق ذلك كما أخبر القرآن مع ان الظروف لم تكن تسمح به فى العادة ، فدل ذلك على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام محمد ولا مخلوق سواه ، بل هو كلام الله تعالى القادر على أن يبلغ مراده ويخرق العادة .

ولزيادة الايضـاح نذكـر ان الرسول ﷺ رأى فى نومـه بأنه هـو

وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، فقص رؤياه على اصحابه وفرحوا وحسبوا أنهم داخلوها من عامهم ، ثم خرجوا محرمين يسوقون الهدى الى مكة لا يقصدون حربا ، وانما يقصدون عمرة ونسكا ، ولكنهم ما كادوا يبلغون الحديبية حتى صدتهم قريش وأبت عليهم فارادوا ، وكادت تكون حرب لولا ان الرسول رضى بالصلح بينه وبينهم ، وان كان قاسيا ، ايثارا منه للمسالمة وحبا للسلام العام ، ثم قفل راجعا على ان يؤدى نسكه فى العام القابل نزولا على مواد الصلح القاسى ، وعز ذلك على اصحابه ، واتخذ المنافقون منه حطبا لنفاقهم ومادة لدسهم ، فقال عبد الله بن ابى راسهم : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا راينا المسجد الحرام ، ولكن على رغم هذا ، وعلى رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود وتقطيعهم الارحام ، نزلت الآية الكريمة تحمل هذا الوعد بل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة ، وهى دخول مكة واداء النسك والأمن على انفسهم من قريش حتى يتحللوا ويقفلوا راجعين الى المدينة وقد انجز الله وعده فتم الامر على اكمله فى العام الذى بعد عام الحديبية : « ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون » .

ثانيا : أخبر القرآن عن الروم بانهم سينتصرون فى بضع سنين من اعلان هذا النبأ الذى يقول الله فيه : « غلبت الروم ، فى أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون »(٢٨) .

---

(٢٨) سورة الروم الآيات : ١ ـ ٦ .

الروم كما علمت ، ومع تقطع الأسباب ايضا فى انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة ، لأنهم كانوا ايامئذ فى مكة فى صدر الإسلام والمسلمون فى قلة وذلة ، يضطهدهم المشركون ولا يرقبون الا ولا ذمة ، ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية ، نزلت الآيات كما ترى تؤكد البشارتين وتسوقهما فى موكب من التأكيدات البالغة التى تنأى بهما عن التكهنات والتخرصات .

ثم أن هذه العبارة الكريمة : « في بضع سنين » قد احاطت هاتين النبوءتين بسياج من الدقة والحكمة ، لا يترك شبهة لمشتبه ولا فرصة لمعاند ، لأن البضع كما علمت من ثلاث الى تسع ، والناس يختلفون فى حساب الأشهر والسنين : فمنهم من يؤقت بالشمس ، ومنهم من يؤقت بالقمر ، ثم أن منهم من يجبر الكسر ويكمله اذا عد وحسب ، ومنهم من يلغيه ، يضاف الى ذلك أن زمن الانتصار قد يطول حبله ، فتبتدىء بشائره فى عام ولا تنتهى مواقعه الفاصلة الا بعد عام او اكثر ، ونظر الحاسبين يختلف تبعا لذلك فى تعيين وقت الانتصار : فمنهم من يضيفه الى وقت تلك البشائر ومنهم من يضيفه الى يوم الفصل ، ومنهم من يضيفه الى ما بينهما ، لذلك كله جاء التعبير بقوله جلت حكمته : « سيغلبون في بضع سنين » من الدقة البيانية والاحتراس البارع بحيث لا يدع مجالا لطاعن ولا حاسب ، وظهر امر الله وصدق وعده على كل اعتبار من الاعتبارات وفى كل اصطلاح من الاصطلاحات ، « ومن أصدق من الله قيلا »(٢٩) .

ثالثا : أنبأ القرآن بان الله عاصم رسوله وحافظه من الناس لا يصلون اليه بقتل ولا يتمكنون من اغتيال حياته الشريفة بحال من الأحوال ، وذلك

---

(٢٩) مناهل العرفان : ٢/٢٦٥ ، ٢٦٦ بتصرف .

فى قوله تعالى : « والله يعصمك من الناس »(٣٠) ؛ ولقد تحققت نبوءة القرآن هذه ، ولم يتمكن أحد من أعداء الاسلام أن يقتله عليه الصلاة والسلام مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم ، ومع أنهم كانوا يتربصون به الدوائر ، ويتحينون الفرص للايقاع به والقضاء عليه وعلى دعوته ؟ وهو أضعف منهم استعدادا وأقل جنودا .

فمن الذى يملك هذا الوعد وتنفيذه الا الله الذى لا اله الا هو الذى يغلب ولا يغلب والذى لا يقف شىء فى تنفيذ مراده : « وهو القاهر فوق عباده » ، وان كنت لم تصدق أيها الانسان هذا فسل التاريخ والمؤرخين كم من الملوك والأمراء والفراعين ضرجت الأرض بدمائهم وهم بين جنودهم وخدمهم وحشمهم ! ؟ .

فهل يمكن بعد هذا أن يكون القرآن الذى احتوى ذلك الضمان من كلام محمد وهو من قد علمت ضعفه وقوة اعدائه ؟ حتى لقد كان يتخذ الحراس قبل نزول هذه الآية ، فلما نزلت اذا ثقته واعتداده بها أعظم من ثقته واعتداده بمن كانوا يحرسونه ، وسرعان ما صرف حراسه وسرحهم عند نزول الآية قائلا : أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله .

ومما يؤيد ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه عن جابر قال : كنا اذا اتينا فى سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل نبى الله تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبى ﷺ : اتخافنى ؟ قال : لا ، قال من يمنعك منى ؟ قال : الله يمنعنى منك ضع السيف ، فوضعه(٣١) .

---

(٣٠) المائدة : ٦٧ .

(٣١) صحيح مسلم : ١٧٨٦/٤ ، ١٧٨٧ .

ومن ابلغ الشواهد على ذلك ما ثبت من انه ﷺ فى يوم حنين حين اعجبت المسلمين كثرتهم وادبهم الله بالهزيمة حتى ولوا مدبرين ، انزل الله سبحانه سكينته على رسوله حتى لقد جعل يركض بغلته الى جهة العدو ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفها ارادة الا تسرع ، فاقبل المشركون الى رسول الله ﷺ ، فلما غشوه لم يفر ولم ينكص ، بل نزل عن بغلته كانما يمكنوهم من نفسه وجعل يقول : أنا النبى لا كذب انا ابن عبد المطلب » . كانما يتحداهم ويدلهم على مكانه ، فوالله ما نالوا منه نيلا ، بل أيده الله بجنده وكف أيديهم عنه بيده »(٣٢) .

وهكذا تحقق كل ما اخبر به القرآن ، فهل كان النبى ﷺ يستطيع الاخبار بذلك لو لم يكن ما اخبر به وحيا من عند الله ؟ ثم من أين للنبي ﷺ بتلك المعرفة الدقيقة وهو الذى نشا ـ كما عرفنا ـ اميا وفى وسط أمى .

« انه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين »(٣٣) .

---

(٣٢) المصدر السابق : ١٤٠١/٣ .
(٣٣) الشعراء : ١٩٢ ، ١٩٣ .

المرحلة السرية

سارت الدعوة الإسلامية فى أول عهدها بسرّيّة ، وشرع رسول الله (ﷺ) يدعو إلى عبادة «الله» وحده لا شريك له ، وترك عبادة الأوثان ، فى خفاء وحيطة ، وكتمان وحذر ، لأن قريشا كانت فى غاية التعصب لما هى عليه من وثنية ، ولما درج عليه الأبناء منهم بعد الآباء لهذا لم يجهر الرسول (ﷺ) بالدعوة فى بادىء أمرها ، ولم يأته أمر السماء بالجهر بها ..

وللدعاة والمصلحين الأسوة الحسنة فى رسول الله (ﷺ) .. فعليهم أن يتّبعوا فى دعوتهم المنهج الأمثل ، وأن يدعوا إلى «الله» على بصيرة وهدى ؛ فيُسِرُّون بالدعوة حين يرون الأمر فى حاجة إلى السِّرِّ ، ويجهرون بها حين يرون الجو ملائما للجهر .

وكان أول من آمن به خديجة (رضى الله تعالى عنها) ، فقد صدقت بالدعوة من أول وهلة ، وآمنت بما جاء (ﷺ) به ، وآزرته ، وخفّفت عنه كل عناء ، وهوّنت عليه أمر الناس .

وآمن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، وصدق برسول الله (ﷺ) وبما جاء به من ربه وعمره إذ ذاك عشر سنين .

ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله (ﷺ) ثم جاء الخير الكبير بإسلام أبى بكر الصديق (رضوان الله تعالى عليه) حيث قام بالدعوة إلى الإسلام ، وكان مألوفا لقومه ، ومعروفا ، وكان تاجرا مشهورا بالمروءة والمعروف وبالحق .. فأسلم بدعوته ودخل الإسلام على يديه : عثمان بن عفان ، والزبير ابن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .

وقد جاء بهم أبو بكر (رضى الله عنه) إلى رسول الله (ﷺ) فأسلموا وصلوا واستجابوا «لله» ولرسوله .

وكان رسول الله (ﷺ) يقول :

«مَا دَعَوْتُ أحدًا إلَى الإسْلَامِ إلا كَانَتْ عِنْدَهُ كَبْوَةٌ - أى تأخر - وَنَظَرٌ وتَرَدُّدٌ ، إلا مَا كَانَ مِنْ أبِى بَكْرِ بن أبى قُحافة ، وما عَكَمَ عَنْهُ - أى تلبث - حِينَ ذَكَرتُهُ لَهُ ، وما تَرَدَّدَ إلَيْهِ» .

وحسبه كرامة ومثوبة ، ومنزلة وفضلا قول رسول الله (ﷺ) فى شأنه :

«إنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَىَّ فِى مَالِهِ وصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ ، ولو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً ، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ولَكِنْ أُخُوَّةُ الإسْلامِ لا تبقينَّ فى المَسْجِدِ خوخَةٌ إلاَّ خوخة أَبِى بَكْرٍ»(١) .

ثم دخل الإسلام بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة ، والأرقم ابن أبى الأرقم وغيرهم .

وظل العدد يزداد حتى قارب الأربعين .. وكانوا فى هذه المرحلة السِّرِّيَّةِ للدعوة لا يستطيعون أن يجابهوا قريشًا ، ومجالسها العامة .. بل كانوا إذا أرادوا القيام بعبادة ذهبوا إلى شِعابِ (مكة) مستخفين عن العيون بعيدين عن الناس حيث لا يراهم أحد .

وكانوا يلتقون بالنبى (ﷺ) سِرًّا .. ولكن لما كثر العدد اختار لهم رسول الله (ﷺ) دار الأرقم مقرا ، وفى هذه الدار كان يجتمع رسول الله (ﷺ) بالجماعة المسلمة الأولى ، وكانت هذه الدار بمكة على الصفا ، وفيها أسلم عدد كبير .. وكان يعلمهم رسول الله (ﷺ) أمور دينهم ، ويقرئهم القرآن الكريم .

---

(١) رواه مسلم.

وقد مكثوا فى دار الأرقم حتى تكاملوا أربعين رجلا من المسلمين السابقين المخلصين وكان آخرهم إسلاما عمر بن الخطاب وبعد ذلك خرجوا .

وفى دار الأرقم هذه كان يجتمع هؤلاء السابقون برسول الله (ﷺ) والإسلام ما يزال بعد فى أول عهده .. إنه فى مرحلته السرية ، ولذلك ما إن ترامى الخبر إلى سمع قريش إلا وسعت جاهدة فى محاولة القضاء عليه .

وكان عمر بن الخطاب – قبل أن يدخل الإسلام – قد فكَّر وقدَّر وسعى لقتل رسول الله (ﷺ) ليريح قُرَيشًا ، إنه قد سبَّ الآلهة ، وفرَّق الأمْر . ولما ذهب إلى هذه الوجهة الخاسرة الضالة لقيه فى الطريق «نعيم بن عبد الله» فلما أخبره الخبر قال له نعيم : ياعمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا ؟

أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم ؟

وكانت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما ، فقفل عمر راجعا إليهما ، ودخل عليهما ، وكان عندهما خبَّاب بن الأرتّ ومعه صحيفة فيها «سورة طه» يُقْرِئُهُمَا إياها فلما سمعوا صَوت عمر تغيب خبَّابٌ ، وأخذت فاطمة الصحيفة ، وكان عمر قد سمع – عندما اقترب من البيت – قراءة خباب عليهما فلما دخل قال : مَا هَذِهِ الهينَمَةَ الَّتِى سَمِعتُ ؟

قالا له : مَا سَمِعْتَ شَيْئًا .

قال : بلى والله ، لقد أُخبِرْتُ أَنَّكُما تَابَعْتُمَا مُحَمَّدًا عَلَى دِينِهِ ، وبطش بزوج أخته سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفَّه عن زوجها ، فضربها ، فشجَّها .

فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا ، وآمنا بـ «الله» ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .. فلما رأى عُمر ما بأخته من الدم ندم على

ما صنع ، فارعوى – أى رجع – وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفا ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقلت له : يا أخي ، إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل ؛ فأعطته الصحيفة وفيها «طه» فقرأها :

﴿ طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ② ﴾[1] ..

فلما وصل إلى قوله تعالى :

﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ⑮ ﴾[2] ..

قال : ما أطيب هذا الكلام وأحسنه .. فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر ، و «الله» إني لأرجو أن يكون «الله» قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته (ﷺ) أمس وهو يقول : «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب» .. ف «الله» «الله» يا عمر .

فقال له عند ذلك عمر : فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا ومعه نفر من أصحابه فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم ذهب إلى هناك فضرب عليهم الباب فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله (ﷺ) فنظر من خلال الباب فرآه متوشحا السيف فرجع إلى رسول الله (ﷺ) وهو فزع ، فقال : يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف . فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله (ﷺ) : ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول

---

(١) طه : ١ ، ٢ . (٢) طه : ١٥ .

الله (ﷺ) حتى لقيه فى الحجرة فأخذ حجزته - وهو موضع شد الإزار - أو أخذ بمجمع ردائه ثم جبله به جبذة شديدة ، وقال : **مَا جَاءَ بِكَ يَا ابْنَ الخَطَّاب ، فَوَاللهِ مَا أَرَى أَنْ تَنْتَهِى حَتَّى تَنْزِلَ بِكَ قَارِعَةٌ** - أى داهية - ؟

فقال عمر : **يَارَسُولَ اللهِ جِئْتُكَ لأُؤْمِنَ بِـ «الله» وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ مِن عِنْدِ «الله»** ، فكبّرَ رسول الله (ﷺ) تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله (ﷺ) أن عمر قد أسلم .

وعز الإسلام بدخول (عمر) فى الإسلام فبدخوله ، ودخول (حمزة) قوى أمرهم ، وعَزّوا ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله (ﷺ) ويحميانه من خصومه ومن كل أذى يلاحقه من أعدائه .

وبدخول عمر فى الإسلام تمت نهاية المرحلة السرية للدعوة فلم يرض عن اختفاء المسلمين فى صلاتهم وإنما راح (عُمَر) يناضل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه .

فكان إسلامه - بحق - فتحا للمسلمين ، يقول عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) :

إن إسلام عمر كان فتحا ، وإن هجرته كانت نصرا ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه .

وهكذا نرى كيف شقت الدعوة طريقها بين غيوم الشرك الكثيفة فى جو ملبد خانق .. فشاء «الله» ، تعالى للفجر أن ينبثق ، ولشمس الهدى أن ترسل أشعتها إلى كل الأرجاء .. فإذا بالصفوة المختارة قد سبقت إلى الإسلام وحملت أشعة الخير تهدى الحيارى وتنافح عن الإسلام فى كل زمان ومكان .

ولئن كان هذا شأن القلة المؤمنة فى زمن يسير ، وفى جو رهيب ، وفى خفاء وسرية ، وفى بساطة عيش وقلة ذات اليد .. إلا أنهم كانوا أقوياء بـ «الله» شجعانا بالإيمان ، مُسَلَّحِين بالحق والتقوى والإخلاص .

وإذا كان هذا جهادهم فى سبيل الدعوة مع قلتهم ومع ما يحيط بهم فما بال العالم الإسلامى اليوم والإسلام – بحمد الله – منتشر فى كل مكان وعدد المسلمين فى العالم من الكثرة بحيث يستطيع أن يكون أكبر قوة داعية ظافرة منتصرة .. وذلك بتوثيق الصلة بـ «الله» والاعتصام بحبله ، والتضامن الإسلامى على أكبر المستوى .. و« الله » الموفق والهادى إلى أقوم السبل .. ونسأل «الله» تعالى أن يجمع المسلمين ، وينصرهم نصرا مُؤَزَّرا ، وما النصر إلا من عند «الله» العزيز الحكيم .

الْجَهْرُ بِالدَّعْوَةِ

وبعد أن مكثت الدعوة سرية ثلاث سنين ، شاء « الله » تعالى لرسوله (ﷺ) ، أن يجهر بها ؛ فأنزل عليه قوله سبحانه :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[1] .

كما أمره «الله» أن يُنْذِرَ عشيرته الأقربين فقال تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾[2] .

فقام (ﷺ) بتنفيذ الأمر الإلهى ، فصعد على الصفا مناديا القوم : «يَابنى فهر .. يَا بَنِى عَدِى» ، حتى اجتمعوا ، فقال لهم رسول الله (ﷺ) : «أرأيتم لَوْ أخبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِى تُرِيدُ أَنْ تغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِىَّ ؟ قالوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا . قال : فَإِنِّى نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ» .

ثم قام (ﷺ) بتنفيذ الأمر الإلهى الثانى ، وهو : أن ينذر عشيرته الأقربين فجمعهم وقال لهم :

«يَا بَنِى كَعْبِ بْن لُؤَىّ انْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَابنى مُرَّةَ بْن كَعْب انْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّار ، يَا بَنِى عَبْدِ المطَّلِب انْقِذُوا أَنْفُسَكُم مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ انْقِذِى نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ لاَ أَمْلِكُ لَكُم مِنَ الله شَيْئًا ، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلاَلِهَا» - أى أصلها بصلتها - فتعللوا بتقاليدهم الموروثة ، وباتباع ما كان عليه آباؤهم فلما عاب آلهتهم ، وسفه تقاليدهم وأحلامهم عادوه وتنكروا له ولدعوته .

---

(١) الحجر : ٩٤ .

(٢) الشعراء : ٢١٤ ، ٢١٥ .

وقد تعرض (ﷺ) إلى كثير من الأذى والاضطهاد ، روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

بينا النبى (ﷺ) يصلى فى حجر الكعبة ، إذ أقبل عليه عقبة بن أبى معيط ، فوضع ثوبه على عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبى (ﷺ) ، وقال : **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّي الله ؟**

كما تجرع أصحابه (رضوان الله تعالى عليهم) ، الكثير من صنوف الأذى والعذاب .

عن خباب بن الأرتّ أنه قال : **أَتَيتُ النبى (ﷺ) وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَه وَهُوَ فى ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً ، فَقُلْتُ : يَارَسُولَ الله ، ألاَ تَدْعُو الله لَنَا ؟ فَقَامَ وَهُوَ مُحْمَرُّ الْوَجْهِ ، فَقَالَ :**

وَلَقَد كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يمشط بمشاط الحَدِيدِ مَا دُونَ عظامه مِنْ لَحْمٍ أو عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ عَنْ دِينِهِ ، وَلَيُتِمَّنَّ الله هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوت لا يخافُ إلاَّ الله»(١) .

وهكذا بذل المشركون ما بذلوه من صنوف الأذى والعذاب ، ووقفوا فى طريق الدعوة وفى طريق الإسلام بالمرصاد ، ولكنهم واجهوا قلوبا قوية الإيمان ، وأرواحا متصلة بالسماء ، لا يصرفها عن دينها تنكيل أو تعذيب ، بل كانوا يستعذبون العذاب فى سبيل دينهم وعقيدتهم وفى سبيل «الله» ورسوله ، فلما رأى المشركون أن الرسول (ﷺ) ماض فى دعوته وأن أتباعه يزيدون ولا ينقصون ، ولا يرتد أحد منهم ، ورأوا وسمعوا كيف تناهض دعوته معتقداتهم ، وتسفه أحلامهم . رأوا أن سياسة التعذيب والإيذاء غير مجدية فى صده وصد أتباعه ، ورأوا عمه قد قام دونه . فلجأوا إلى حيلة أخرى :

---

(١) رواه البخارى .

حيث مشى جماعة من أشراف قريش إلى عمه أبى طالب ، وقالوا له :

يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا وضلَّل أبناءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه : فردهم أبو طالب برفق ولين وانصرفوا .. ومضى (ﷺ) ، فى إظهار دين الله ، وفى الدعوة إليه ، فعاودوا الكَرَّة مَرَّة أخرى، على أبى طالب بعد أن اشتد الأمر بينه وبينهم ، فقالوا له :

يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ، ومنزلة فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنَّا و «الله» لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

وعندئذ عظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، وفى نفس الوقت لا يمكن أن يفرط فى رسول الله (ﷺ) ولا فى حمايته فقال أبو طالب للرسول (ﷺ) :

يَا ابنَ أخِى ، إنَّ قَومَكَ قَد جَاءُونِى فَقَالُوا لِى كَذَا وَكَذَا ، فَأبقِ عَلَىَّ وَعَلَى نَفسِكَ ، وَلاَ تُحَمِّلنِى مِنَ الأمرِ مَالاَ أُطِيقُ ، قال : فظن رسول الله (ﷺ) أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه ، فأجابه رسول الله (ﷺ) إجابة كلها قوة وإيمان ، وصاح بعبارته التى ظلت على مر التاريخ عنوان الشجاعة فى الحق ، وآية الآيات على التفانى فى سبيل العقيدة قال :

«يَاعَمّ ، وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِى يَمِينِى ، وَالقَمَرَ فِى يَسَارِى عَلَى أنْ أتْرُكَ هَذَا الأمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ ، أوْ أهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ» .. ثم استعبر رسول الله (ﷺ) ، فبكى ثم قام ، فناداه أبو طالب قائلا له :

مِنْ خَصَائِصِ الْبَيْتِ النَّبَوِيّ

لبيت النبوة سماته وخصائصه .. التى خصه «الله» تعالى بها وميزه لحمل تراث النبوة وتلقى الوحى الإلٰهى .. وليس المال ولا زخرف الحياة الدنيا ، ولا مباهجها الزائفة وغرضها الزائل ، وذلك يكون المثل الأعلى ، والقدوة الحسنة ، فى الرضا والقناعة ، والصبر والاحتمال ..

وقد كان رسول الله (ﷺ) أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فهو الرؤوف بهم والعطوف عليهم .. وكانت أزواجه أمهاتهم .

قال الله تعالى :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ
وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ
مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم
مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦ ﴾[1] ..

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى (ﷺ) قال : «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلاَّ وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فى الدُّنْيَا والآخِرَة ، وَاقْرَءُوا إنْ شِئْتُم : ﴿النَّبِىُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِم﴾ فَأَيُّما مُؤمِن تَرَكَ مَالاً فَلْيَرِثْهُ عُصْبَتُه مَنْ كَانُوا ، وَإِن ترك دَيْنًا أَوْ ضِياعا فَلْيأْتِنى فأنا مَوْلاَهُ»[2] .

● ولقد ضرب (ﷺ) أروع الأمثلة فى حياة التقشف والزهد والقناعة والرضا ، وجعل من نفسه وبيته المثال المحتذى والأسوة الحسنة فى العزوف عن الدنيا ، وعن الغرور بها ، وفى الإعراض عن زهرتها .

---

(١) الأحزاب : ٦ .
(٢) رواه البخارى .

ولقد أخذ نفسه وأهله بالتقشف والزهد والقناعة ، لدرجة أنه لم يشبع ثلاثة أيام تباعا من خبز ، وعن عائشة (رضى الله عنها) أنها قالت : **مَا شَبِعَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) ثَلاثَةَ أَيَّامٍ تِبَاعًا مِن خُبزٍ حَتَّى مَضَى سَبِيلَهُ**(١) .

بل إنه (ﷺ) لم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير ، فعن عبد الرحمن ابن عوف (رضى الله عنه) أنه قال : **هَلَكَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) ، وَلَم يَشبَع هُوَ وَأَهلُ بَيتِهِ مِن خُبزِ الشَّعِيرِ**(٢) .

وكانت بيوته (ﷺ) على درجة عالية من الرضا والقناعة ، لا سيما عندما كان العيش قليلا .. ولا يوجد لدى أمهات المؤمنين من الأطعمة ما يطهى بالنار مدة طويلة ..

عن عائشة (رضى الله عنها) قالت لعروة : **يَابْنَ أُختِي إن كُنَّا لَنَنظُرُ إلى الهِلالِ ثُمَّ الهلالِ ، ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ فى شَهرَينِ ، وَمَا أُوقِدَتْ فى أَبيَاتِ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) نَارٌ** ، فقال : **يَا خَالَةُ مَا كَانَ يُعِيشُكُم ؟** قالت : **الأَسْوَدَانِ ، التَّمرُ وَالمَاءُ ، إلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ (ﷺ) جِيرانٌ مِنَ الأَنصَارِ ، كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ ، وكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) مِنْ أَلبَانِهَا فَيَسْقِينَا**(٣) ..

وكان هذا الزهد والتقشف وحياة القناعة والخشونة ، مثلا يحتذى فى الصبر والرضا ، يجوع يوما فيصبر ، ويشبع يوما فيشكر ويعيش حياته ، بين التضرع والدعاء ، والشكر والثناء .

قالت عائشة (رضى الله عنها) : **وَلَقَدْ مَاتَ وَمَا فِى بَيْتِى شَىءٌ يَأكُلُهُ ذُو كَبِدٍ ، إلا شَطْرُ شَعِيرٍ فى رفٍّ لى** ، وقال لى : **إنى عُرِضَ عَلَىَّ أَنْ يُجعَلَ لى بَطْحَاءُ مَكَّةَ ذَهَبًا** فقلت : **لاَ يَارَبِّ ، أَجُوعُ يَوْمًا فَأَصْبِرُ ، وَأَشْبَعُ يَومًا**

---

(١) رواه مسلم . (٢) رواه الترمذى . (٣) رواه البخارى .

فأشكرُ ، فأمّا اليومُ الّذى أجوعُ فِيهِ ، فأتضرّعُ إليكَ وأدعُوكَ ، وأمّا اليومُ الّذِى أشبَعُ فِيهِ ، فأحمَدُكَ وأثنى علَيْكَ[1] .

ولقد أخذ (ﷺ) حياته على هذا النحو ، على الرغم مما كان فى وسعه ، من أن تكون له بطحاء مكة ذهبا .. ولكنه الرضا والقناعة ، والأسوة الحسنة التى يجب على أمته (ﷺ) أن تتوخاها فلا تغرها الحياة ولا يغرها بـ «الله» الغرور .

فلقد عرض عليه كبراء القوم مقاليد الأمر وعرضوا عليه المال والجاه والسلطان والسيادة لكنه رفض بإباء وشمم وقوة لا نظير لها لأنه ليس طالب مال ولا جاه وإنما جاء إلى الحياة وأرسل إلى الناس شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا وداعيا إلى «الله» بإذنه وسراجًا منيرًا .

وكانت هذه الحياة إعدادا أو تهيئة للدار الآخرة وليكون بيت النبوة مثالا يحتذى وقدوة للناس ، وحين طلب أمهات المؤمنين من رسول الله (ﷺ) النفقة نزلت آية التخيير والتى تخيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها وبين «الله» ورسوله والدار الآخرة .

عن عائشة (رضى الله عنها) قالت : لما نزلت آية التخيير بدأ بى رسول الله (ﷺ) فقال : يَا عَائِشَةُ إنِّى عَارِضٌ عَلَيْكِ أمْرًا فَلاَ تُوَافِقِينى فِيهِ بِشَىءٍ حَتَّى تَعْرِضِيه عَلَى أبَوَيكِ – أبى بكر وأم رومان – فقلت : يَا رَسُولَ الله مَا هُوَ ؟ قال (ﷺ) : قال الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ

(١) رواه الشيخان .

سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1] ..

قالت : فإنِّى أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ أُؤامر فى ذَلِكَ أَبَوىَّ – أَبَا بَكرٍ وَأُمَّ رُومان – فَضَحِكَ رسول الله (ﷺ) ثم استقرأ الحُجَرَ فقال : وإنَّ عَائِشَةَ (رضى الله عنها) قالت: كَذَا وَكَذَا، فقلن : وَنحنُ نَقُولُ مِثْلَ مَا قَالَت عَائِشَةُ (رضى الله عنهن كلهن)[2] .

ومما اختص «الله» به أمهات المؤمنين أن من يأت منهن بفاحشة مبينة – وهى النشوز وسوء الخلق – يضاعف لها العذاب ضعفين فى الدنيا وفى الآخرة وأن من يطع «الله» ورسوله منهن يؤتها أجرها مرتين.

قال الله تعالى :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[3] ..

ويمتن «الله» عليهن بلطفه ، حيث خصهن ببلوغ تلك المنزلة وأنهن أهل لذلك حيث أنعم «الله» عليهن بأن جعلهن فى بيوت تتلى فيها آيات «الله» تعالى والحكمة قال سبحانه:

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[4] .

---

(١) الأحزاب : ٢٨ – ٢٩ .　(٢) رواه ابن أبى حاتم .
(٣) الأحزاب : ٣٠ – ٣١ .　(٤) الأحزاب : ٣٤ .

ويعرج على هذا الأمر الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - حين يتحدث عن خصوصية زواج الرسول (ﷺ) رادا فرية المفترين على مقام النبوة فيقول : لم تكن تلك الخصوصية تمكين صاحبها من المتعة والاستغراق فى مناعم الحياة الزوجية .. فإن البيت الذى يشكو نساؤه قلة المؤونة والزينة ، لا يقال عنه : إنه بيت رجل تملكه أهواء نفسه وتغلبه على رشده ولا يمد يده لاغتراف الثروة التى تكفى زوجاته وتملى لهن فى الترف والزينة لن يكون رجلا مغلوب الحس منساقا مع غواية المتعة ووساوس الشهوات ، وليس بالرجل المخلوق لطلب اللذة من ينهض بما نهض به نبى الإسلام من عظائم الأمور فى مدى سنوات معدودات .. إلخ .

وليس معنى هذا أن فى الإسلام دعوة إلى القلة والفقر ، أو أن فيه حجرا على التمتع بطيبات الحياة .. وإنما هى القدوة المثلى والأسوة الحسنة والنماذج العالية التى رباها الإسلام فاستهانت بزخارف الحياة من : جاه أو ثراء أو عرض من زينة الحياة الدنيا ..

أما حقيقة الدين ، فهى تجمع متطلبات الجسم والروح والدنيا والآخرة وقال الله تعالى :

﴿ ۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] .

---

(١) الأعراف : ٣١ - ٣٢ .

- ومن خصائص بيت النبوة : أن الذى يتركه النبي (ﷺ) من المال يكون صدقة فلا يسرى عليه ما يسرى على أموال سائر الناس من الميراث ، فقد قال (ﷺ) : « إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ ، وَمَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ » وأما قول الله تعالى - حكاية عن زكريا :

﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾(١) ..

فلم يرد يرثنى مالى وإنما أراد أن يرثه الحبورة لأنه كان حبرا ويرث من آل يعقوب : أى يرث الملك .

وأما قوله تعالى :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾(٢) ..

فالمراد : ورثه الملك والنبوة والعلم وكلاهما كان نبيا وملكا .. ومن الأدلة أيضا على أن رسول الله (ﷺ) لا يورث أنه كان لا يرث بعد أن أوحى «الله» إليه ، وإنما كانت وراثته أبويه قبل الوحى .

وأما منازعة فاطمة ، أبا بكر (رضى الله عنهما) فى ميراث النبى (ﷺ) فليس بمنكر لأنها لم تعلم ما قاله رسول الله (ﷺ) وظنت أنها ترثه كما يرث الأولاد أباءهم فلما أخبرها بقوله كفت .

---

(١) مريم : ٥ - ٦ . (٢) النمل : ١٦ .

أَثَرُ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ فِي نشر السُّنَنِ وَالأَحْكَام

• لأمهات المؤمنين أثر هام ، فى نشر السنة النبوية الشريفة (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) ..

فقد قمن (رضوان الله تعالى عليهن) بتبليغ كثير من الأحكام والأحاديث والسنن ، التى لولاهن ، لما وصلت إلينا ، وبالأخص تلك الأفعال التى كانت تقع بين رسول الله (ﷺ) وبينهن ، من الأمور الخاصة التى لا يمكن لأحد أن يطلع عليها ، و لا يقف على أحكامها .

ومن أجل تلك المهمة العالية ، والرسالة الكبرى ، التى تضطلع بها أمهات المؤمنين . قال «الله» سبحانه وتعالى ووجه أمره الإلهي إليهنّ بالاستقرار فى بيوتهن ، ومذاكرة الكتاب والسنة ومدارستهما ، قال «الله» سبحانه :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾[1] ..

يقول قتادة وغيره : واذكرن هذه النعمة التى خصصتن بها من بين الناس ، أن الوحى ينزل فى بيوتكن ، دون سائر الناس ، والسيدة عائشة (رضى الله عنها) ، أكثر أمهات المؤمنين بهذه الغنيمة ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله (ﷺ) الوحى فى فراش امرأة سواها .

---

(١) الأحزاب : ٣٢ - ٣٤ .

ويقول ابن جرير - رحمه الله - فى الآية السابقة : واذكرن نعمة «الله» عليكن ، بأن جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آيات «الله» والحكمة وهى السنة .

وهذه أم سلمة (رضى الله تعالى عنها) قالت للنبى (ﷺ) : ما لنا لانُذكَرُ فى القرآن كما يُذكَرُ الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعرى ، فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرتى - حجرة بيتى - فجعلت سمعى عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ..) إلى آخر الآية[1] ..

والآية الكريمة من سورة الأحزاب ، وتمامها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[2] ..

ومن بين الحكم الإلهية العالية التى أباح «الله» للرسول (ﷺ) بسببها الزواج بأكثر من أربع زوجات ، وخصه بذلك وحده دون غيره من سائر الأمة ، ليتسنى أمهات المؤمنين القيام بالتبليغ عن رسول الله (ﷺ) ، وبالأخص فى تلك الأمور التى لا يراها أصحابه ، ولا يطلع عليها إلا أمهات المؤمنين ، ومن أجل ذلك كان الصحابة (رضى الله تعالى عنهم أجمعين) ، إذا استشكلت عليهم مسألة من المسائل أو اختلفوا فى حكم من أحكام :

---

(١) رواه أحمد والنسائى وابن جرير .

(٢) الأحزاب : ٣٥ .

« الغسل ، أو الحيض ، أو المعاشرة الزوجية ، أو نحوها » يسألون عن ذلك ، ويرجعون فى كل هذا إلى أقوال أمهات المؤمنين .

فكان لأمهات المؤمنين فضل عظيم فى نشر كثير من الأحاديث والسنن والأحكام ، التى لا يمكن الاطلاع عليها إلا عن طريقهن ، (رضى الله تعالى عنهن) .

وقد كن على جانب كبير من العلم والمعرفة ، والتفقه فى الدين والذكاء والفهم ، لا سيما السيدة عائشة (رضى الله تعالى عنها) .

عن ابن أبى مليكة أن عائشة زوج النبى (ﷺ) كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وإن النبى (ﷺ) قال : « مَن حُوسِبَ عُذِّبَ » قالت عائشة : أَوَ لَيس يَقُولُ «الله» تعالى :

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾[1] ..

قالت : فقال : «إِنَّمَا ذَلِكَ العَرضُ وَلَكِن مَن نُوقِشَ الحِسَاب يَهلك» .

وهكذا كان لأمهات المؤمنين أثر بالغ وفضل عظيم فى نشر السنة والأحكام ، فقد كان بعض النساء يستحيين من سؤال الرسول (ﷺ) عن أمورهن ولكنهن كن يتعرفن على ما يروى من أمهات المؤمنين لأنهن على صلة دائمة بالرسول (ﷺ) ، ومكانتهن منه كزوجات تمكنهن من التعرف على شتى أنواع الأحكام بلا استثناء ، (فرضوان الله تعالى عليهن) .

ولنساء الإسلام فيهن القدوة والأسوة الحسنة ، فى معرفة أحكام الدين ، والتعرف على أصول الإسلام .

---

(١) الانشقاق : ٨ .

مَوَاقِفُ فَاصِلَةٌ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ

وفى طريق الدعوة الإسلامية مواقف فاصلة حفل القرآن الكريم بتوجيهات إلهية بشأنها ، وخلال تلك التوجيهات - عبر الطريق الطويل - كان القرآن الكريم يرسى معالم الحق ، ويضع الركائز على الطريق :

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟
إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾
وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا
جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ
رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا
بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾(١)

---

(١) الأنعام : ٥٠ - ٥٥ .

لقد كثر جدال المشركين وتعنتهم ، وكثرت اقتراحاتهم المعاندة بإنزال الآيات التى تضطرهم إلى التصديق ، وتأخذهم إلى الإيمان ، حيث أنهم عندما يشاهدون ما يقترحون يصدقون بالرسول وليست هذه الاقتراحات اقتراحات صادقة ، ولو كانت كذلك لأجابهم « الله » تعالى إليها ولكنه سبحانه وهو العليم الحكيم ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فهو يعلم أن ما طلبوه ، وما عارضوا به ما هو إلا الجدال المقنّع فى صورة الاقتراح .. لقد طلبوا آية من الخوارق وأحيانا يطلبون أن تكون الآية تحويل الصفا والمروة ذهبا وأحيانا أخرى يطلبون أن يخبرهم بالغيب وبما سيقع لهم فى المستقبل فأمر «الله» رسوله (ﷺ) أن يخبرهم بأنه لا يمتلك خزائن القدرة الإلهية التى تشتمل على كل شىء ، وأنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم بما سيكون فى المستقبل ، وأنه ليس ملكا ليأتى بالأفعال الخارقة للعادة ، إنه ليس كذلك ، وليست هذه هى مهمته وإنما هو رسول من عند «الله» لا يتبع إلاّ ما يوحيه «الله» إليه ، نعم حدث لرسول الله (ﷺ) معجزات حسية ومعنوية كحنين الجذع ، وكلام الشاة المسمومة التى قُدِّمت إليه ، ومجيئه بالقرآن المعجز لهم من عند «الله» تعالى إلى غير ذلك من المعجزات فلو أنهم كانوا صادقين فيما اقترحوه لآمنوا كما آمن غيرهم من قبل ولكنهم معاندون وكافرون ضالون ، ولا يستوى الكافر الضال الذى عمى عن الحق والمسلم المهتدى البصير بالحقيقة :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1] ..

أى لم تدركوا الحق وتعرفوا أنه لا يمكن أن يستوى الضال والمهتدى .. ويأمر «الله» تعالى رسوله (ﷺ) أن ينذر بما أوحاه إليه الذين يخافون أن يحشروا

(١) الأنعام : ٥٠ .

إلى ربهم ، وأن يعلمهم ، وإنما خصَّ بالإنذار أولئك الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم لأنهم الذين يؤثر فيهم الإنذار ويستجيبون لدعوة الحق بخلاف غيرهم من الكافرين المعاندين الذين لا يجدى معهم إنذار ولا إرشاد فإن ذلك لا يؤثر فيهم فإن حال أولئك الذين يخشون أنه ليس لهم من دون ربهم وخالقهم ولى ولا شفيع فهو وحده نصيرهم وشفيعهم وفى هذا رد وتعريض بالنسبة للكفا الذين زعموا أن آباءهم يشفعون لهم أو أن أصنامهم تشفع لهم وهذا منتهى الضلال والفساد ..

وفى الإنذار لهؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ما يدفع قلوبهم للتوق والحذر والخوف من «الله» وتقواه : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ..

ثم تعرض رسول الله (ﷺ) إلى موقف آخر فى دعوته ، ذلك هو موقف الأشراف وكبراء القوم ، لقد رغب الرسول (ﷺ) فى إسلامهم ولكنهم أنِفُوا أن يجتمعوا مع الضعفاء والفقراء ، وأن يجمعهم مجلس واحد ، ومكانة هؤلاء لا تؤهلهم للجلوس مع سادة قريش الذين يتمتعون بمراكزهم فى ذلك المجتمع ، فطلب السادة من رسول الله (ﷺ) أن يطردهم فأبى ، فطلبوا منه أن يخصص لهم مجلسا ، فَهَمَّ الرسول (ﷺ) بذلك رغبة منه فى دخولهم الإسلام ، وهنا ينزل القرآن :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ ﴾[1] ..

أنهم مستمرون ودائمون على ذكر «الله» آناء الليل وأطراف النهار يريدون وجه «الله» ، عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع النبى (ﷺ) ستة نفر ، فقال المشركون للنبى (ﷺ) : اطرد هؤلاء عنك لايجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع فى

---

(١) الأنعام : ٥٢ .

نفس رسول الله (ﷺ) ما شاء الله أن يقع .. فحدث نفسه فأنزل «الله» عز وجل :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾(١) ..

إنهم مخلصون له فى عباداتهم لا يريدون إلا وجهه سبحانه .

ولما كان البعض قد وصف أولئك المؤمنين المخلصين بما ليس فيهم وطعن فى دينهم وحسبهم ، فوضح «الله» حقيقة الموقف مجردة عن أى اعتبار آخر وحتى على فرض صحة ما قيل لهم وهو ليس حقا ، فقد زكاهم ربهم ووصفهم بالعبادة والإخلاص .. لقد وضح القرآن الحقيقة مجردة :

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(٢) ..

فحساب من رغبوا فى طردهم على أنفسهم ما على الرسول (ﷺ) منه شيء وحساب الرسول (ﷺ) على نفسه ما على هؤلاء منه شيء فعلام يطردون ، إنه إن فعل ذلك يكون من الظالمين وحشاه (ﷺ) أن يكون كذلك وإنما هذا من قبيل التعريض والحث للمسلمين وللدعاة من بعده ألا يفعلوا ذلك .

وبمثل هذا الابتلاء ، والاختبار السابق ، فتن «الله» بعض الناس ببعض وامتحنهم وعاملهم معاملة المختبرين فكان عاقبة هذا الاختبار أن يقول السادة المستكبرون المستنكفون الذين استكبروا بأنسابهم وأموالهم عن أولئك الذين آمنوا من المستضعفين : ﴿أهؤلاءِ مَنّ الله عَلَيهِمْ من بَيْنِنَا﴾ . أى أهؤلاء الذين

---

(١) الأنعام : ٥٢ . (٢) الأنعام : ٥٢ .

أكرمهم « الله » فأصابوا الحقيقة دوننا وكان هذا الاستفهام منهم استنكارا لإيمان من آمن فردّ «الله» تعالى عليهم بقوله :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾[1] ..

وفى الرد من الحق تبارك وتعالى تعزيز لحقيقة من آمن وأن نعمة « الله » إنما يستحقها الشاكرون وهو سبحانه أعلم بالشاكرين .. وهذه النعمة – نعمة الإيمان – أجل النعم الإلهية لا ينالها الناس بأموالهم ولا يتفاضلون بجاههم ولا بأحسابهم وإنما بطاعتهم واستجابتهم وبشكرهم لمن خلقهم و «الله» أعلم بمن يكون شاكرا فيهديه إلى نعمة الإيمان ولا يمنع ذلك من أن يكونوا فقراء أو ضعفاء أو عبيدا فميزان التفاضل إنما هو التقوى وطاعة « الله » رب العالمين ، وعن خباب – فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[2] ..

قال : جاء الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة بن حصن الفزارى ، فوجدا النبى (ﷺ) قاعدا مع بلال وصهيب وعمار وخباب فى أناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حقروهم فأتوه فقالوا : إنا نحبُّ أن تجعلَ لنا منك مجلسًا تعرف لنا العرب به فضلنا فإنّ وفودَ العربِ تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : نعم قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتابا . قال : فدعا بالصحيفة ، ودعا عليا ليكتب ، قال : ونحن قعود فى ناحية ، إذ نزل جبريل بهذه الآية :

---

(١) الأنعام : ٥٣ . (٢) الأنعام : ٥٢ .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1] ..

ثم قال :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[2] ..

ثم قال : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ ﴾[3] ..

فألقى رسول الله (ﷺ) الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمةَ ﴾ فكنا نقعد معه ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل «الله» تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[4] .

قال : فكان رسول الله (ﷺ) يقعد معنا بعد ، فإذا بلغ الساعة التى يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم .

---

(١) الأنعام : ٥٢ . (٢) الأنعام : ٥٣ .
(٣) الأنعام : ٥٤ . (٤) الكهف : ٢٨ .

وكان رسول الله (ﷺ) بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال :

«الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ لِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أَبْدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ» . -

وعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان ، وصهيب وبلال ، ونفر فقالوا :

وَ «الله» مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ «الله» مِنْ عَدُوِّ «الله» مَأْخَذَهَا ، قال : فقال أبو بكر : أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِم ..

فأتى النبى (ﷺ) فأخبره فقال :

«يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُم ، لَئِن كُنْتَ أَغْضَبْتَهُم ، لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ » فأتاهم أبو بكر فقال : يَا أُخْوَتَاهُ أَغْضَبْتُكُم ؟ قالوا : لاَ .. يَغْفِرُ «الله» لَكَ يَا أخانا .

وهكذا نرى إلى أى مدى عنى الإسلام بحقوق الإنسان وتكريمه ومنذ متى ؟ قبل أن تعرف الإنسانية مواثيق حقوق الإنسان بآماد طويلة ، إن القرآن الكريم لم يكتف بأمر رسول الله (ﷺ) بعدم طرد أولئك المستضعفين من المؤمنين ، وإنما أمره أن يقول لهم : ﴿سَلَامٌ عَلَيكُم﴾ تطييبا لخواطرهم وقلوبهم ، وتكريما لهم ..

وقيل : إن هذا السلام هو من جهة «الله» سبحانه وتعالى ، أى أبلغهم منا السلام ..

ولا يقتصر الأمر على عدم طردهم ، ولا يقتصر على تبليغ السلام لهم ؛ بل إنه يحمل البُشْرَى لهم من «الله» على يد رسوله (ﷺ) ، بأن « الله » تعالى أوجب على نفسه الرحمة إيجاب فضل وإحسان ، أو كتب ذلك عنده فى اللوح المحفوظ بشرى لهم برحمة « الله » التى سبقت غضبه ، والتى وسعت كل

شيء ، والتى كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياته يؤمنون .

وعلى ضوء هذه الرحمة يستبشر أولئك المؤمنون برحمة «الله» ، وبنعمة منه وفضل ، وأنه من عمل سوءا بجهالة فكان فعله كفعل الجاهلين ، لأن من يفعل ما يؤدى إلى الضرر مع علمه بهذا فقد فعل فعل أهل الجهل ، أو أنه عمل ذلك وهو جاهل بما يتعلق بذلك من الضرر وما يترتب عليه .. فإن من عمل ما عمل ثم تاب بعد ذلك وأصلح ما كان قد أفسد ، وعاد إلى ربه ورجع إلى صوابه ، وعمل صالحا ، وأطاع ربه ، فإنه عندئذ سيجد ربه غفورا رحيما ، وسعت رحمته كل شيء وسبقت رحمته غضبه ..

يقول الرسول (ﷺ) :

« لما قَضَى « الله » عَلَى الخَلْقِ كَتَبَ فى كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبى »(١) .

وبمثل هذا التفصيل والتبيين ، فصل « الله » تبارك وتعالى الآيات وبينها ، لتستبين سبيل المجرمين ، وتتضح ، وحيثما استبانت واتضحت تتضح وتستبين طريق المؤمنين ، وبضدها تتميز الأشياء ..

وبهذا ندرك عناية المنهج القرآنى الحكيم بتوضيح السبل حتى لا تلتبس الحقيقة ، وحتى لا يضل الطريق أحد .

---

(١) رواه مسلم .

مَوْتُ السَّيِّدَةِ خَدِيجَة ، وَأَبِى طَالِب

قطع المسلمون – قبل الإسراء والمعراج – فترة زمنية لاقوا فيها من الأذى والاضطهاد ما تنوء بحمله الروابى وأطل عليهم عام من الأعوام سمى « بعام الحزن » فقد سقط فيه ركنان من أهم الأركان التى كانت سندا للرسول (ﷺ) .

أولا : عمه أبو طالب الذى ناصر الرسول (ﷺ) ، ولم يأل جهدًا فى كل ما يحتاجه فى سبيل تأمين دعوته ، وقد حزن الرسول (ﷺ) كثيرا لموته ، فقد كان الحصن المنيع الذى يرد سفاهة السفهاء ، وجهالة الجهلاء وبطش المتجبرين ، وقد روى أن رسول الله (ﷺ) قال : « مَا نَالَتْ مِنِّى قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ حَتَّى مات أبو طالب » .

ومع ما كان عليه أبو طالب من مخالفة الرسول (ﷺ) فى الدين إلا أنه ظل قويا فى دفاعه وانتصاره للرسول (ﷺ) ، وَعِنْدَمَا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قَال : يَا مَعْشَرَ بَنِى هَاشِمٍ أَطِيعُوا مُحَمَّدًا وَصَدِّقُوهُ تُفْلِحُوا وَتَرْشُدُوا ، فقال له الرسول (ﷺ) : «يَاعَمُّ تَأْمُرُهُم بِالنَّصِيحَةِ لأَنْفُسِهِم وَتَدَعُهَا لِنَفسك ؟!» فأجابه قائلا : فَمَا تُرِيدُ يَا ابْنَ أَخِى ؟ .

قال (ﷺ) : «أُرِيدُ أَنْ تَقُولَ لاَ إِلَه إلاَّ الله» ، فقال : يَا ابْنَ أَخِى قد عَلِمْتُ أَنَّكَ صَادِقٌ غَيْرَ أَنِّى أَخْشَى أَنْ أُتَّهَمَ بالخوفِ عِنْدَمَا حَانَ حِيْنِى ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ لاَتَّبَعْتُ نَصِيحَتَكَ لأَقِرَّ عَيْنَيْكَ اللَّتَيْنِ أَرَى لِيهِمَا حُزْنَكَ ثم مات .

ثانيا : زوجه خديجة (رضى الله تعالى عنها) ، وهى ذات التاريخ المجيد فى نصرة الرسول (ﷺ) آمنت به حين كذبه الناس وواسته بمالها وفكرها وكل قواها وعندما رجع الرسول (ﷺ) يرجف فؤاده ودخل عليها ، وقال : «زَمِّلُونِى

زَمِّلُونِى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِى » فقالت له خديجة : كَلاَّ واللهِ لاَ يُخْزِيكَ «الله» أبَدًا إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وتَحْمِلُ الكَلَّ وَتُكْسِبُ المعْدُومَ وَتَقْرِى الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحق ، إنه إذًا لَفِكرٌ ثاقب حصيف ، وفطرة نقية استنبطت على أضوائها عظمة الرسول (ﷺ) ، ومهمته الشريفة التى ألقيت على عاتقه من السماء ليبلغها الناس .. هذه المثالية الفذة ، وهذا الحنان الدافق فقده أيضا فى نفس العام .

ومن هنا ، وبعد فقد هذين الركنين انهالت سفاهات الكفر ، وتوجهت بكل ضراوتها وصلفها إلى الرسول (ﷺ) وإلى المسلمين ، عن ابن مسعود قال : بَيْنَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ) عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُهُ جُلُوسٌ ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالأَمْسِ . فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : أَيُّكم يَقُومُ إلى سلا جزور بنى فلان فيضعه بين كتفى محمد (ﷺ) إذا سجد ؟ ، فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد النبى (ﷺ) وضعه بين كتفيه ، فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر ، لو كانت لى منعة طرحته عن ظهره ، والنبى (ﷺ) ساجد ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة ، فجاءت – وهى جويرية – فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم ، فلما قضى رسول الله (ﷺ) صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا ، دعا ثلاث مرات وإذا سأل سأل ثلاثا ، ثم قال : « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْش » ثلاثا ، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ، ثم قال : « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِى جَهْلِ بنِ هِشَام ، وَعُتْبَةَ بن رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيد بْنِ عُتْبَةَ وأُمَيَّةَ بْنِ خَلَف ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِى معيطٍ ، وذكر السابع ولم أحفظه ، فَوَ الَّذِى بَعَثَ مُحَمَّدًا (ﷺ) بِالحقِّ لَقد رَأَيتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرعَى يَوْمَ بَدرٍ ، ثُمَّ سُحِبُوا على القليب قليب بدر[1] .

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وأحمد .

فـى الطـائـف

اتجه الرسول (ﷺ) – بعد ذلك – شرق مكة ، قاصدا الطائف ليلتمس العون والمنعة ، فلما وصلها ، أبدوا له من العناد والإنكار لدعوته ما يدل على فساد طباعهم وعقائدهم ، وإصرارهم على ضلالهم القديم ، فقطع الرسول (ﷺ) عشرة أيام صابرا محتسبا علّه يجد قلوبا تلين لدعوته وآذانا تسمع نداءه ، ولكن القوم ظلوا فى ضلالهم يعمهون ، وقابلوه بإصرار دائم على الإنكار ، وزادوا ذلك بإيذائه فأسرع بالرحيل عنهم قائلا لهم : « إذا أبيتم فاكتموا على ذلك حتى لا يذاع النبأ فى مكة » فتندلع شماتتهم ، ولكن القوم تجردوا من أبسط مظاهر المروءة والرحمة ، فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، واصطفوا له يشيعونه بالسباب ، ويقذفونه بالحجارة حتى سال الدم الشريف من أقدامه (ﷺ) فذهب إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وجلس إلى ظل شجرة من عنب حتى اطمأنت أنفاسه ، فصعدها للسماء طاهرة مبرورة هاتفا من أعماقه :

« اللَّهُمَّ إليكَ أشْكُو ضَعْفَ قُوَّتى ، وَقِلَّةَ حِيلَتِى ، وَهَوَانِى عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّى ، إلى مَنْ تَكِلُنِى ، إلى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِى ، أَمْ إلى عَدُوٍّ مَلَّكْتَه أمْرِى ، إن لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَىَّ فَلاَ أُبَالِى ، ولكنْ عَافِيَتَكَ أوْسَعُ لى ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذى أشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلحَ عَلَيْهِ أمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، مِنْ أَنْ تُنزِلَ بِى غَضَبَكَ ، أَوْ تُحِلَّ عَلَىَّ سَخَطَكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِكَ »[1] .

وفى هذه اللحظات تجيش العاطفة فى قلب كل من عتبة وشيبة ابنى ربيعة فإذا بهما يرسلان غلامهما النصرانى « عداسا » بقطف عنب إلى الرسول

---

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير .

(ﷺ) فلما وضع الرسول (ﷺ) يده فيه قال : بسم « الله » ثم أكل ونظر عدّاس قائلا : هذا كلام لا يقوله أهْلُ هَذِهِ البلاد ، فسأله الرسول (ﷺ) : «مِن أيِّ البلادِ أنتَ وَمَا دِينُكَ ؟!» قال : أنَا نَصْرَانِى من «نينوى» ، فقال الرسول (ﷺ) : «أمِنْ قَرْيَةِ الرَّجُل الصَّالحِ يُونُس بن مَتَّى ؟» قال له : وما يُدْرِيكَ مَا يُونُس ؟ قال الرسول (ﷺ) : «ذَلِكَ أخى كان نبيًّا وأنَا نَبِيٌّ» ، فأكبَّ عدّاس على يدى رسول الله (ﷺ) ورجليه يقبلهما ، فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أمَّا غُلامُكَ فَقَدْ أفْسَدَهُ عَلَيْكَ ، فَلَمَّا جاء عدّاس قالا له : وَيْحَكَ مَا هَذَا ؟ ! قال : مَا فِى الأرْضِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الرجل ، وقفل الرسول (ﷺ) راجعا إلى مكة فقال له زيد بن حارثة : كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِم وَقَدْ أخْرَجُوكَ ، فقال : «يَا زَيْدُ إنَّ «الله» جَاعِلٌ لما تَرَى مَخْرَجًا» ، ثم توجَّه بعد ذلك إلى حراء وأرسل زيد بن حارثة إلى الأخنس ليجيره فأبى ، ثم بعثه بعد ذلك إلى سهيل فأبى أيضا ، ثم بعثه إلى المطعم بن عدى فأجابه ، وخرج المطعم وأهله حتى أتوا المسجد ، وطاف بالبيت سبعا ، وهكذا نرى النخوة العربية ، وسمات المروءة والنجدة التى اتسم بها المطعم كأبى طالب حيث قام بما قام به وهو على غير دين الإسلام .

الرُّجُوعُ مِنَ الطَّائِفِ

ولما لم يجد رسول الله (ﷺ) - فى الطائف - قلوبا متقبلة دعوته ، ولا آذانا تصغى لهدايته ، عادَ إلى مكة المكرمة وهو مهموم مما لاقاه من القوم من عنت وجحود ، وتكذيب وسفاهة .. فلم يستفق الرسول (ﷺ) إلا وهو بـ «قرن الثعالب» ، فرفع رأسه فإذا هو بسحابة قد أظلته . وإذا فيها جبريل عليه السلام .. قال (ﷺ) : «فَنَادَانِى فقال : **إِنَّ «اللهَ» قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَارَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِم** . قَالَ : فَنَادَانِى مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَىَّ ثُمَّ قَالَ :

يَا مُحَمَّدُ إِنَّ «اللهَ» قَدْ بَعَثَنِى إِلَيْكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَنِى بِأَمْرِكَ ، فَمَا شِئْتَ ؟ إِنْ شِئْتَ أُطْبِقُ عَلَيْهِم الأَخْشَبَيْنِ[1] .. فقال رسول الله (ﷺ) : «**بل أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِم مَنْ يَعْبُدُ «اللهَ» وحده وَلاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[2] .

وفى بعض الروايات : **فقال ملك الجبال : أَنْتَ كَمَا سَمَّاكَ رَبُّكَ «رَؤُوفٌ رَحِيمٌ»** .

---

(١) الأخشبان هما جبلان فى مكة المكرمة أما أحدهما فهو جبل أبى قبيس وأما الثانى : فهو المقابل له ويسمى قعيقعان .

(٢) رواه البخارى ومسلم

الْعَوْدَةُ إِلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمة ، وَاسْتِمَاع الجِنّ لِلْقُرآن بِوَادِي نخْلَة

بعد رحلة الطائف وما لاقاه الرسول (ﷺ) فيها من معاناة ومن همٍّ وغمٍّ ، وتعبٍ ونصبٍ ، توجَّه إلى مكة ..

فقال له زيد بن حارثة : كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِم وَقَدْ أَخْرَجُوكَ ؟ فقال (ﷺ) : «يَا زَيْدُ إِنَّ « الله » جَاعِلٌ لما تَرَى مَخْرَجًا» فَلَمَّا كان بنخلة ، صرف «الله» إليه نفرا من الجن ، قال «الله» تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾(١).

وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال : ما قرأ رسول الله (ﷺ) على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله (ﷺ) فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب .

---

(١) الأحقاف : ٢٩ - ٣٢ .

قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ماهذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ماهذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله (ﷺ) وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك حين رجعوا إلى قومهم :

﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ① يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ② ﴾[1] ..

وأنزل «الله» على نبيه (ﷺ) :

﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ ..

وكان الجن الذين صرفهم « الله » إليه سبعة من جن نصيبين من أرض الجزيرة بين العراق والشام . وكانوا سبعة جاءوا حين كان (ﷺ) يتهجد من الليل أو حين كان يقرأ القرآن فى صلاة الفجر .

فاستمعوا إلى القرآن وآمنوا وأجابوا كما قص القرآن الكريم نبأهم فى سورة (الجن) .

لقد استمع الجن إلى القرآن وآمنوا على الفور ، ودعوا قومهم إلى الإيمان ، ولم يكن الرسول (ﷺ) قد شعر بهم ولا باستماعهم وإنما أنبأه رب العزة سبحانه وتعالى عن طريق الوحى ، وأمر «الله» تعالى رسوله (ﷺ) أن يخبر

---

(١) سورة الجن : ١ – ٢ . والخبر رواه البيهقى فى «دلائل النبوة» .

قومه الذين كذبوا ولم يؤمنوا ، ويوبخهم بأن الجن كانوا خيرا منهم وأسرع إلى الإيمان :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ ﴾(١) ..

وفى بيان القرآن الكريم لما كان عليه الجن من الإيمان بالقرآن ، توبيخ وتقريع للذين لم يسارعوا بالإيمان من العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم .

كما حكى القرآن الكريم عن الجن استقبالهم لدعوة التوحيد بالإيمان :

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ ﴾(٢) ..

أى تعالت عظمة « الله » سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فليس له زوجة ولا ولد ، لأن هذا التزاوج والتناسل من صفات البشر الذين يعتريهم النقص والحاجة و «الله» منزه عن الحاجة وعن النقائص .

وأن المؤمنين من الجن كانوا يتبرءون من إبليس ومن قوله البعيد عن الحق والعدل والذى يدعوهم إلى الشر :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ ﴾(٣) ..

كما أعلنوا أنهم قبل ذلك كانوا يظنون أنه من المستبعد أن ينسب أحد من الإنس أو الجن إلى «الله» تعالى مالا يليق به من الافتراء والكذب ويزعم أن «الله» له صاحبة وولد تعالى «الله» عن ذلك علوًا كبيرا :

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ ﴾(٤) ..

---

(١) الجن : ١ ، ٢ . (٢) الجن : ٣ .
(٣) الجن : ٤ . (٤) الجن : ٥ .

كما أخبر القرآن الكريم أن بعض الإنس كانوا يستجيرون ببعض الجن ، فكان الرجل إذا أمسى فى وادٍ قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، فإذا سمعوا ذلك استكبروا وقالوا : سدنا الإنس والجن ، فزاد الإنس الجن كبرياء وعتوا :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾(١) ..

وأن كفار الإنس زعموا – زورًا وبهتانا – كما زعم بعض الجن أن «الله» سبحانه وتعالى لن يبعث أحدا بعد الموت أى أنهم أنكروا البعث :

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ ﴾(٢) ..

وعندما أراد الجن أن يبلغوا السماء ، من أجل أن يروا ما فيها ويستمعوا إلى كلام أهلها ، فوجئوا أن السماء قد امتلأت بملائكة «الله» تعالى الذين يحرسونها وبالشهب المحرقة التى تقع على من يحاول أن يقترب منها ، وقد كان الجن قبل بعثة سيدنا محمد (ﷺ) يطرقون السماء ليستمعوا إلى أخبار أهلها ثم يقوموا بتوصيل ذلك إلى الكهان ، وأما بعد بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ) فإن من حاول من الجن ذلك أحرقته الشهب وأهلكته ، ثم قالوا لا نعلم سر ذلك وما «الله» فاعل بأرضه وبسكانها . أشرٌ أريد بهم ؟ وهل امتلأت السماء بالملائكة الحارسين وبالشهب لعذاب سيقع على أهل الأرض أم لخير لهم ؟ بأن يبعث فيهم رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور .

قال الحافظ ابن كثير : وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك وهو الذى حملهم على تطلب السبب فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فرأوا رسول الله (ﷺ) يقرأ بأصحابه فى الصلاة فعرفوا أن هذا هو الذى حفظت من أجله السماء فدنوا منه حرصا على سماع القرآن ثم أسلموا .

---

(١) الجن : ٦ . (٢) الجن : ٧ .

الإســـــراء

قال الله تعالى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[1] ..

وفى هذه الآية الكريمة أشار النص القرآنى المجيد إلى رحلة الإسراء مفتتحا الحديث عنها بتسبيحه جل شأنه مبتدئا بكمال تنزيه الذات العلية عن كل نقص ، وموضحا الحجة الدامغة الصريحة على أنها معجزة فوق مستوى العقل البشرى ، وذلك بإسناد الفعل إلى «الله» العلى القدير ، ولما كان فى الإسراء ما فيه من سمو مكانة الرسول (ﷺ) ، وزيادة تشريفه ، فقد وصفه «الله» تعالى بأسمى الأوصاف ، وأكرم المقامات ، وهى قوله تعالى : ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ فهو الذى خلصت عبوديته ، وكمّله ربُّه ، وأدّبه فأحسن تأديبه ، وتوّجَهُ بمكارم الأخلاق ، قال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[2] ..

وقال (ﷺ) : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ» . لقد أسرى به ليلا ، فى وقت السكون وفى هدأة الحياة وطمأنينة الأفق الكونى فى جزء محصور من الليل ، فأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك «الله» حوله بكثير من النعم السابغة الظاهرة والباطنة ، المادية منها والروحية ، فحول هذا المسجد العظيم أخرج «الله» تعالى كثيرا من خيرات الأرض ونباتاتها الطيبة الكثيرة التى تنفع الناس ، كما أن حوله من البركات الروحية والمعنوية ما يروى

(١) الإسراء : ١ .   (٢) القلم : ٤ .

ظمأ النفوس المؤمنة ، فهو مهبط الأنبياء والملائكة .. وقد كشفت الآية الكريمة عن آلاء «الله» التى تواعدت على حبيبه (ﷺ) ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾[1] ..

وفى تلك الآيات التى أراها «الله» لحبيبه ومصطفاه (ﷺ) ما يدل على كمال قدرة «الله» سبحانه وتعالى مما لا يسوغ لمنكر جاحد أن يتصدى لهذه المعجزة الخارقة بالإنكار ، لاسيما وقد أمد «الله» تعالى الفكر البشرى اليوم بفيض غامر من العلوم والمعارف التى جعلته يرسل الطائرات فى الأجواء ، ويبعث سفن الفضاء فترسو على القمر ، فكيف ينكر إنسان على خالق القوى والقدر ، ومدبر السموات والأرض إسراءه برسوله (ﷺ) ؟ .

ومما ينبغى الإشارة إليه أن الإسراء والمعراج ليسا معجزة خاصة بتأييد الدعوة ، وإنما المعجزة التى تحدى بها القوم هى القرآن الكريم ، أما هذه المعجزة فهى إحدى الخوارق وفى الوقت نفسه تكريم ، أى تكريم لخاتم المرسلين (ﷺ) .

وكان لهذه المعجزة أثرها ، إذ زادت المؤمنين إيمانا ويقينا واستبشروا برعاية «الله» تعالى لهم وزادت الكافرين رجسا وفتنة ، قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥ ﴾[2] ..

وهكذا كان لهذه المعجزة أثرها بما أنبأه « الله » تعالى على رسوله (ﷺ) من الآيات الكبرى التى رآها فى هذه الرحلة المباركة .

---

(١) الإسراء : ١ .
(٢) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ .

ثم رجع رسول الله (ﷺ) يُحدِّث بما رأى ابنة عمه أم هانئ وحاولت معه ألا يخبر أحدا من الكفار بذلك ولكن الرسول (ﷺ) صمم أن يحدث بما رأى من نعم «الله» سبحانه وتعالى ، فذهب إلى جوار الكعبة مفكرا فى خشوع وابتهال فمر به أبو جهل ، فقال له : هل من خبر ؟ فقال : «نعم» ، قال : وما هو ؟ فقال : «إنى أُسرِىَ بِىَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ» ، فقال : إلى بيت المقدس ؟ فقال : «نعم» ، قال أبو جهل : أرأيت إن دعوت قومك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرتنى به ؟ فقال : «نعم» ، فنادى أبو جهل : هيا يا معشر قريش فاجتمعوا ، فقال للرسول (ﷺ) : أخبر قومك بما أخبرتنى به ، فقال الرسول (ﷺ) : «إِنَّهُ أُسرِىَ بِى إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ» ، فكذبوه واستبعدوا ذلك ، وقالوا لأبى بكر : إن صاحبك يقول كذا وكذا ، فقال : إِنْ كَانَ قَدْ قَالَهُ فَقَدْ صَدَقَ ، قالوا : تصدقه على ذلك ؟ قال : إِنِّى أُصَدِّقُهُ عَلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ ، أصدقه عَلَى خَبَرِ السَّمَاءِ .

وقد تمادى القوم فى لجاجهم وحوارهم ، ويسألون رسول الله (ﷺ) فى تعنت وجفاء عن بيت المقدس ومنهم من كان رآه ، وظنوا أنهم بهذه الأسئلة سيوقعون الرسول (ﷺ) فى الحرج ، ولكنه (ﷺ) – وهو المؤيد من قبل ربه – قد وصف لهم بيت المقدس وصفا كاملا فى غاية الدقة وأخبرهم عن آياته يقول الرسول (ﷺ) : «فَجَعَلْتُ أُخبِرُهُم عَنْ آيَاتِهِ فَالْتَبَسَ عَلَىَّ بَعْضَ الشَّىْءِ فَجلَّى «الله» لى بَيْتَ المَقْدِسِ ، ثم جَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيهِ دُونَ دَار عقيل وأَنْعَتُهُ لَهُمْ» ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب ، ثم قالوا : أخبرنا عن عيرنا فهى أهم إلينا ، هل لقيت منها شيئا ؟ قال (ﷺ) : «نَعَمْ مَرَرْتُ بِعِيرِ بَنِى فُلانٍ وَهِىَ بِالروحاء وَقَدْ فَقَدُوا بَعِيرًا لَهُمْ وَهُمْ فِى طَلَبِهِ ، وَفِى رِحَالِهِم قَدَحٌ مِنْ مَاءٍ فَأَخَذْتُهُ وَشَرِبْتُهُ وَوَضَعْتُهُ كَمَا كَانَ ، فَاسْأَلُوا هَلْ وَجَدُوا المَاءَ فِى القَدَحِ حِينَ رَجَعُوا ؟» وقالوا : هذه آية ، قال : «مَرَرْتُ بِعِيرِ بَنِى فُلانٍ

وَفُلاَنٍ رَاكِبَانِ ، فَنَفَرَ بَعِيرُهُمَا مِنِّى فَانْكَسَرَ ، فَاسْأَلُوهُمَا عَنْ ذَلِكَ» قالوا : هذه آية أخرى ...

ثم أخذوا يسألونه عن العدة والأحمال ودقائق الملابسات فوصفها أكمل وصف ، وقال لهم : «تَقْدمُ يَوْمَ كَذَا مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَفِيهَا فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ يَقْدمُهَا جَمَلٌ أَوْرَقُ عَلَيه غرارَتَانِ مُخِيطَتَانِ ، قالوا : هذه آية أخرى . ومع وضوح هذه الأدلة ، فقد لج القوم فى عنادهم ولم يصدقوا تلك المعجزة الواضحة ، فقد طمس «الله» على أبصارهم وبصائرهم :

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠ ﴾[1].

---

(١) النور : ٤٠ .

المعراج

يظهر للباحث فى قصة الإسراء والمعراج أن قصة المعراج لم تذكر مع قصة الإسراء فى السياق القرآني الحكيم ، مع أنهما حدثتا فى ليلة واحدة ، وذلك إنما كان تنبيها لقلوب القوم وفتحا للأفق الفكرى لديهم حتى يدركوا الحقيقة عن طريق إيمانى سليم ، تتضح أدلته أمام أعينهم تدريجيا بالإسراء أولا ، وعندما تتضح الحقيقة بأدلتها الناصعة على صدق الرسول (ﷺ) فى وصفه لبيت المقدس وللعير ، وما إلى ذلك من الدلائل ، فتأنس القلوب وتثق بالمعجزة فيحدثهم – بعد ذلك – القرآن الكريم عن بقية الرحلة ، وعن قصة المعراج ، قال تعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ
نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[1] .

وقد سبق هذه الرحلة إعداد إلهى لنفس الرسول (ﷺ) فجاءه جبريل (عليه السلام) وشق صدره الشريف ، ومنحه «الله» سبحانه من القوة

---

(١) النجم : ١ – ١٨ .

الروحية والإعداد الإلهى ما يعينه على تحمل تلك الأخطار ، وما يتغلب به على كل عامل من العوامل المانعة للعروج ، والسمو إلى الملأ الأعلى ، بحيث لا يتعارض مع النواميس الكونية ، والضغوط الجوية ، بل يكون فى قدرة أسمى هى مدد من الكبير المتعال .

الرَّدُّ عَلَى مَا أُثِيرَ مِنْ مَزَاعِم

ومعجزة الإسراء والمعراج واضحة وضوح الشمس لمن وقف على نصوص القرآن والسنة ، بأنها كانت يقظة بالروح والجسد معا ، ولا عبرة بما أثير حولها – قديما وحديثا – من مزاعم واهية لا أساس لها من الصحة ، فإن ما نسبوه إلى السيدة عائشة (رضى الله عنها) أنها قالت : «مَا فُقِدَ جَسَدُ رَسُولِ الله (ﷺ) » فهذه الرواية غير صحيحة سندا ومتنا ، ولا أصل لها ، فإن الثابت أنها لم تكن مع الرسول (ﷺ) ، ولم يضمهما بيت .. فالإسراء والمعراج معجزة تمت فى مكة قبيل الهجرة والنبى (ﷺ) ، إنما بنى بالسيدة عائشة (رضى الله تعالى عنها) بعد ذلك فى المدينة .

وأما ما أثير حول الإسراء والمعراج من أن ذلك كان رؤيا منامية فذلك ادعاء باطل ، فكيف يكون رؤيا وقد وقفوا يعارضون ويجادلون ، أليسوا يسلمون بالأحلام والرؤيا المنامية ؟

فلو كانت رؤيا لما أثير حولها كل هذا الضجيج – وقد جاء التعبير القرآنى الحكيم عندما تحدث عنها واضحا كل الوضوح – فبدأها بتنزيه «الله» تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى ...﴾ وهذا لا يكون إلاَّ فى الأمور الهامة العظيمة الأثر ، وكلمة «أَسْرَى» موضوعة فى اللغة العربية على السير ليلا بالحركة المحسوسة فى اليقظة ، والتنصيص على ذكر الرسول (ﷺ) بقوله ﴿بِعَبْدِهِ ..﴾ يؤكد ذلك ، فالعبد إنما يطلق على الآدمى جسدا وروحا ، وهذا ما يعنيه الأسلوب القرآنى فى التعبير ﴿بعبده ..﴾ الذى تكاملت فيه أسمى المقامات عند ربه سبحانه وتعالى .

الغاية من هذه الرحلة

١ - حدد القرآن الكريم الغاية السامية من هذه الرحلة فى قوله تعالى :

﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾[1] ..

وفى هذه الغاية وهى رؤية الآيات الإلهية تكريم وتقدير له (ﷺ) ، بعد أن لاقى من أذى القوم وعنتهم ، فأوقفه «الله» تعالى على مكانته العليا التى أعدها له وعلى آيات ملكوته العظيم .

٢ - كما أن هذه الرحلة كانت استعدادًا وإعدادًا ، تأهب فيه الرسول (ﷺ) والمسلمون لمراحل قادمة ، وأشواط ستقطعها الدعوة الإسلامية فى سبيل «الله» .. وكلها كفاح وجلد ، وتبدأ بالهجرة فى سبيل «الله» ، وتواصل الجهاد رافعة راية «الله» ، ناشرة دعوة السماء بين أرجاء العالم .

٣ - وحفلت عبر هذه الرحلة المباركة بمعان كثيرة تكشف عن فضائل عديدة لها أثرها فى المحيط الإسلامى وتسمو بالأمة إلى مرضاة ربها ، كما كشفت عن رذائل بشعة فى ارتكابها هوان وضياع للأمم والشعوب دنيا أخرى فأوضحت الرحلة نماذج عديدة ، وصورا بارزة محسوسة لأصحابها من الثواب والعقاب ، ومثوبة «الله» تعالى للطائعين وعقابه للمذنبين ، وأطلع الحبيب حبيبه على أسرار من الملكوت الأعلى الذى لم يصل إليه سواه . ووضحت الرحلة قيمة الحياة الدنيا ، وما ينبغى أن يكون الناس فيها سالكين رحلتها على هدى وإخلاص بعيدا عن التكالب والتناحر . كما وضحت صور الحلال والحرام : فبينت مثوبة المجاهدين والمخلصين

---

(١) الإسراء : ١ .

وعقاب المنافقين والزناة وأكلة الربا ، وخطباء الفتنة وأكلة مال اليتيم وما إلى ذلك .

٤ – واستهدفت الرحلة كذلك غاية عظيمة ، وهى وحدة تلك الأماكن المقدسة التى أشارت إليها الآية الشريفة مبينة شرف المسْجِدَين حتى تتوطد الصلات وتتوثق العرى ، فيتوحد الشمل ويجمع المسلمون أمرهم .

– لماذا لم تكن المعجزة على مرأى من الناس ؟

شاء «الله» الحكيم الخبير أن تحدث معجزة الإسراء والمعراج ليلا ، وعلى غير مرأى من الناس ، وكان من اليسير أن تحدث أمامهم ولكن حكمة الله تعالى اقتضت أن تكون على غير مرأى منهم ، فلو حدثت أمامهم لرموها بالسحر كما كان شأنهم بالنسبة لغيرها من المعجزات ، كانشقاق القمر وغير ذلك .

بل لقد سبق منهم القول بالتكذيب حين حكى « الله » قولهم : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ وقال تعالى :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾(١) ..

كما أن هذه المعجزة لم يكن المراد بها دعوتهم بل تكريم الرسول (ﷺ) وإعداده وإسباغ النعم الإلهية عليه ظاهرة وباطنة .. ومع ذلك فقد كان من الملابسات ما يظهرها أمام أعينهم بعد ما حدثهم بها ، وسألوه عن الكثير فأجابهم بما هو معجز ، ولكنهم استنكفوا أن يصدقوه ، وظلوا على كفرهم .

ثم ألم تأتهم المعجزات من قبل كثيرة لا حصر لها ، وعلى رأسها القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

---

(١) الحجر : ١٤ ـ ١٥

الحِكْمَةُ فِي كَوْنِهَا إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ

حظى بيت المقدس فترات طويلة كان فيها مهبطاً لوحى السماء ، وموطنا لانبثاق النبوات والمعجزات من سمائه ، فلما قضت الحياة مسيرتها ، وألقت السماء بالأمانة الإلهية والرسالة الخاتمة إلى خاتم النبيين (ﷺ) قام بأمر «الله» يصل الحاضر بالماضى ويقطع رحلة إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ربطا لرسالات السماء السابقة التى عطرت أرضه ، وباركت حوله ، وقد كرمه «الله» تعالى فى هذا الموطن حيث التقى فيه بالمرسلين من قبله فصلى بهم ركعتين فيه ، إشارة إلى أن الإسلام هو الدين الخاتم :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[١] ..

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[٢] ..

والرسول (ﷺ) هو المتمم لمكارم الأخلاق ، والمكمل لبناء دعوات السماء ، قال (ﷺ) : « مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ ، فَجَعَلَ النَّاسِ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ : هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَة ؟ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيينَ »[٣] .

---

(١) آل عمران : ١٩ . (٢) آل عمران : ٨٥ .
(٣) أخرجه البخارى ومسلم .

الْجِهَادُ فِي ضَوْءِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ

أبرزت هذه الرحلة المباركة مكانة الجهاد والمجاهدين بحيث يرى كل مؤمن من خلال ما ألقته الرحلة من أضواء مثوبة المجاهدين فى سبيل «الله» ، وما أفاءه «الله» تعالى عليهم من مثوبة وفضل ، فقد مر رسول الله (ﷺ) فى رحلته على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان . فقال لجبريل عليه السلام : «مَا هَذَا ؟ !» قال : هَؤُلاءِ المجاهِدونَ فى سبيل «الله» تُضَاعَفُ لَهُمُ الحَسَنَةُ إلى سَبْعُمائَةِ ضِعْفٍ وَمَا أَنْفَقُوا مِنْ شَيءٍ فَهُوَ يخلفه وَهوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

وفى هذا النموذج المحسوس بيان لمثوبة الجهاد وفضله ، لنقف على مكانة المجاهدين ، وتجيش فى نفوسنا عواطف الإيمان دافقة حتى تتجمع القوى ، وتتحد الطاقات على أسس من الإيمان الصادق ، والعمل المخلص ، لنطهر بقاعنا ، ونسترد مقدسات طال وقوعها تحت أيد دنسة ، فها هو ذا المسجد الأقصى ثالث الحرمين ومسرى رسولنا (ﷺ) يحفز فينا الهمم ويستنهض بيننا المشاعر :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ
وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ ﴾[1] ..

وقال (ﷺ) موضحا مكانة المساجد الثلاثة : « لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إلى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِى هَذَا ، وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَالمسجِدِ الأَقْصَى »[2] ، كما أبرز فضائل كل واحد منها بما له عند « الله » ن مكانة ،

(١) البقرة : ١٩٠ . (٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه .

وما للعبادة فيه من مثوبة مضاعفة ، وأجر وافر ، فقال عليه الصلاة والسلام :
« صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِأَلْفِ صَلَاةٍ ، وَصَلَاةٌ فِي الْمسجِدِ الْحَرامِ بِمَائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الأَقْصَى بِخَمْسُمَائَةِ صَلَاةٍ »(١) .

فَرِيضَةُ الصَّلَاةِ .. فِي ضَوءِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ :

رسمت رحلة الإسراء والمعراج منهجا مشرقا للحياة ، وأخذت مسيرتها المباركة تقدم قيما رشيدة وحِكَمًا دقيقة ، وطالعت العالمين بمعجزة باهرة سبقت تقدم العلم الحديث واكتشافاته ، وخرقت النواميس الطبيعية ، وتحدت دورة الزمن ، ويومها تمحصت قلوب ، وتفجرت مبادئ ، وتماسكت قوى الإيمان الصادق لتواكب قافلة الدعوة في نضالها حتى يحق «الله» الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون .

وقد كشفت هذه الرحلة عن صور ونماذج لمن اعتدل بفطرته ولمن حاد عنها ، ومن بين ما ألقت عليه الرحلة من أضواء ركن من أركان الإسلام وفريضة من أهم الفرائض وهي : « الصلاة » .

والصلاة كانت من بين ما أوحى « الله » به إلى نبيه (ﷺ) ، ومن بين ما افترضه ليلتها على نبيه ..

أخرج الإمام أحمد قال : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله (ﷺ) قال :
« أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ ، فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ولفظه : «صلاة في المسجد الحرام مائة ألف صلاة ، وصلاة في مسجدي ألف صلاة ، وفي بيت المقدس خمسمائة صلاة» ورواه أحمد وابن ماجه باختلاف يسير .

حافِرِه عِنْدَ مُنْتَهى طَرفِهِ ، فَرَكِبْتُهُ فَسارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ المقدِسِ فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالحلْقَةِ الَّتي يَرْبِطُ فِيهَا الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَتَانِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ .

فقال جبريل : أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ ، قال : ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فقيل له : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قيل : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ . قيل : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قال : أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فقيل له : من أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قيل : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، قيل : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْه ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِابْنَي الخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى فَرَحَّبَا بِي وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فقيل له : مَنْ أَنْتَ ؟ قَال : جِبْرِيلُ ، قيل : وَمَنْ معك ؟ قال : محمد . قيل : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيهِ السَّلَامُ ، وإذا هُوَ قَدْ أعطي شَطْرَ الحسن ، فَرَحَّبَ بِي ودعا لي بخير .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جبريلُ ، فقيل : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، فقيل : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْه ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْه ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، يقول « الله » تعالى :

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾[1]

---

(١) مريم : ٥٧ .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فقيل : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، فقيل : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّد ، فقيل : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْه : فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُون ، فَرَحَّبَ بِى وَدَعَا لِى بِخَيْر .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلى السَّمَاءِ السَّادِسَة فَاسْتَفْتَح جِبْرِيلُ ، فقيل : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قيل : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّد . فقيل : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ فَرَحَّبَ بِى وَدَعَا لِى بِخَيْر .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَح جِبْرِيلُ ، فقيل : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قيل : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّد ، فَقِيل : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ فقال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلاَمِ ، وإذا هُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى الْبَيْتِ الْمعمورِ ، وإذا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْف مَلَك ، ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلى سِدْرَةِ الْمنتهى ، فَإِذَا أَوْرَاقُهَا كآذان الفِيَلَة ، وإِذَا ثَمَرُهَا كَالقِلاَلِ ، فَلَمَّا غَشِيَها مِن أمرِ «الله» مَا غَشِيَهَا ، تَغَيَّرَتْ ، فَما أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ «الله» يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، قال : فَأَوْحَى «الله» إِلَىَّ مَا أَوْحَى ، وَقَدْ فَرَضَ عَلَىَّ فِى كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، خَمْسِينَ صَلاَةً ، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلى مُوسَى ، قال : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قلت : خَمسِينَ صَلاَةً فِى كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، قال : ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تطيقُ ذَلِكَ ، وإِنِّى قَدْ بَلَوْتُ بَنِى إِسْرَائِيل وَخبرتهم ، قال : فَرَجَعْتُ إلى رَبِّى ، فقلت : أَىْ رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِى فَحَطَّ عَنِّى خَمْسًا ، فَنَزَلْتُ حَتَّى انتَهَيْتُ إلى مُوسَى ، فقال : مَا فَعَلْتَ ؟ فقلت : حَطَّ عَنِّى خَمْسًا ، قال : إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تطيقُ ذَلِكَ ، فَارْجِعْ إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ ، قال : فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّى وَبَيْنَ مُوسَى ، وَيَحُطُّ عَنِّى

خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قال سُبْحَانَهُ وتَعَالَى : يَا مُحَمَّدُ هُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِى كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٍ فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلاَةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحسنهِ ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ ، فَإِن عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَة . فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِك ، فإنها لاَ تَطِيقُ ذَلِكَ ، فقال رسول الله (ﷺ) : « لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّى حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ » ورواه مسلم بهذا السياق .

وهكذا يتضح لنا سمو مكانة هذه الفريضة ، ومنزلتها الهامة عند «الله» سبحانه وتعالى ، فقد استدعى الحبيب حبيبه ، وعرج به إلى السموات حتى كان فى حضرته القدسية ليخاطبه مشافهة بهذا الأمر الهام ، وبتلك الفريضة المحبوبة : « الصلاة » .

فمنزلة الصلاة من الدين كمنزلة الرأس من الجسد فلا دين لمن لا صلاة له .

روى الطبرانى فى الأوسط والصغير : عن ابن عمر (رضى الله عنهما) ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : « لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ ، وَلاَ صَلاَةَ لِمَنْ لاَ طُهُورَ لَهُ ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ صَلاَةَ لَهُ ، إِنَّمَا مَوْضِعُ الصَّلاَةِ مِنَ الدِّينِ كَمَوضِعِ الرَّأْسِ فِى الجَسَدِ » .

وقد اهتم الكتاب والسنة بأمر الصلاة ، والتحذير من تركها وقد أمر «الله» تعالى بها رسوله :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾(١) ..

(١) العنكبوت : ٤٥ ..

كما جعلها أساسا أصيلا من أسس التقوى تأتى مرتبتها بعد الإيمان بالغيب مباشرة ، قال تعالى :

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾(١) ..

ويجعلها النبى (ﷺ) الفاصل بين المسلم والكافر ، فيقول فيما رواه مسلم : « بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ » ، فليس غريبا أن يقول بعض الأئمة بكفر تاركها ، ويقول آخرون بفسقه ، ويخشى عليه ترك الإيمان .

قال عليه الصلاة والسلام : « فَانْطَلَقْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مَلَكٍ وَأَمَامَهُ آدَمِيٌّ ، وَبِيَدِ الملكِ صَخْرَةٌ يَضْرِبُ بها هَامَةَ الآدَمِيِّ فَيَقَعُ دِمَاغُهُ جَانِبًا ، وَتَقَعُ الصَّخْرَةُ جَانِبًا ، وَلَمَّا سأل عن ذلك قيل له : أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَنَامُونَ عَنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الآخِرَةِ ، وَيُصَلُّونَ الصَّلَوَاتِ لِغَيْرِ مَوَاقِيتِها فَهُمْ يُعَذَّبُونَ بِهَا حَتَّى يَصِيرُوا إلى النَّارِ » .

إذن فللصلاة أهميتها البالغة . ومكانتها التى لا تطاولها مكانة فهى أول ما يسأل عنه العبد ، ويحاسب عليه يوم القيامة ، بل إنها الميزان الصحيح الذى توزن به سائر الأعمال فحيث كانت الصلاة صالحة ومقبولة صلح سائر العمل ، وحيث كانت غير صالحة فسد سائر العمل :

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾(٢) ..

وتكف صاحبها عن الشرور وتسمو به حيث الرضا والكمال ، أما من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له ، لأنه لم يستكمل عبادتها و لم تكن

(١) البقرة : ٢ - ٣ .
(٢) العنكبوت : ٤٥ .

إقامته لها صالحة ومستقيمة ، وقد وضح الرسول (ﷺ) حقيقة الصلاة كميزان للأعمال ، عن عبد الله بن قرط (رضى الله عنه) : قال رسول الله (ﷺ) : « أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلاَةَ فَإِنْ صَلحَتْ صَلحَ سَائِرُ عَمَلِهِ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ » رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعلامة الصلاة الصالحة المقبولة أن يؤديها صاحبها متواضعا فيها لعظمة ربه الكبير ولم يستطل على أحد من خلق «الله» فهو ينتظم فى صفوف الطاعة من غير مُصِرٍّ على معصيته ، وإنما يحيا فى ذكر «الله» ويتعاطف مع عباد «الله» ، ولقد جاء فى حديث يرويه النبى (ﷺ) عن ربه سبحانه وتعالى : « انما أَتَقَبَّلُ الصَّلاَةَ مِمن تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمتى ، وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِى ، وَلَمْ يَبِتْ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِى ، وَقَطَعَ النَّهَار فِى ذِكْرِى وَرَحِمَ الْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالأَرْمَلَةَ وَرَحِمَ الْمُصَابَ »[1] ، وتتضح ثمرة الصلاة المقبولة بنهيها صاحبها عن الآثام ، وتكفيرها للخطايا فبالصلاة تتزكى الروح ويتطهر القلب من غفلات الهوى وأدران الخطايا قال (ﷺ) : « أَرَأَيْتُم لَوْ أَنَّ نهرًا عَلَى بَاب أَحَدِكُم يَغْتسلُ فِيهِ كُلَّ يَوم خَمْسَ مَرَّاتٍ فَهَلْ يَبْقَى عَلَى بَدَنِهِ مِن دَرَنِهِ شَىء ؟ قالوا : لاَ ، قال : كَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو «الله» بِهِنَّ الْخَطَايَا »[2] ، فهى إذاً طهارة للإنسان وبراءة من الذنوب وإطفاء لما يحترق به الإنسان من المعاصى ، يتضح هذا مما رواه ابن مسعود : « تَحْتَرِقُونَ تَحتَرِقُونَ فَإِذا صَلَّيْتُم الصُّبْحَ غَسَلَتْهَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُم الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا ، ثُمَّ تَحْترِقُونَ تَحترِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُم الْعَصْرَ غَسَلَتْهَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُم المغربَ غَسَلَتْهَا ثُمَّ تَحْتَرِقُون تَحْتَرِقُون فَإِذَا صَلَّيْتُم الْعِشَاءَ غَسَلَتْهَا ثُمَّ تَنَامُونَ فَلاَ تُكْتَبُ عَلَيْكُم حَتَّى تَسْتَيقظُوا » .

---

(١) رواه البزار .　　(٢) رواه البخارى ومسلم .

يروى عن سلمان الفارسى أنه كان مع النبى (ﷺ) تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه ، ثم قال : يا سلمان ألا تسألنى لِمَ أفعلُ هَذَا ؟ قلت : وَلِمَ تفعَلهُ ؟ قال : «إنَّ المسْلِمَ إذَا توضأ فأحسن الوضُوءَ ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الخمس تَحَاتَتْ خطَايَاهُ كَمَا تحات هَذَا الوَرَقُ» . ثُمَّ تلاَ الآية الكريمة :

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٤) ﴾[1] ..

وللصلاة أثرها الإيجابى فى حياة المؤمن فهى لقاء روحى خصب يقف فيه بين يدى الرحمن الرحيم فى مناجاة عذبة يتلقى شحنات روحية تدخله فى رحاب الرضا والقبول قال تعالى فى الحديث القدسى : « قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى قِسْمَيْنِ وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ ، فَإذَا قَالَ العَبْدُ : الحَمْدُ لله رَبِّ العَالمِين ، قال «الله» عز وجل : حَمَدَنِى عَبْدِى ، فَإذَا قَالَ : الرَّحْمٰن الرَّحِيم ، قال «الله» : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِى ، فَإذَا قَالَ : مَالِك يَوم الدِّين ، قال : مَجَّدَنِى عَبْدِى ، فإذا قَالَ : إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِين ، قال «الله» : هَذَا بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَل ، فَإذَا قَالَ : اهْدِنَا الصِّرَاطَ المستقيم . صِرَاط الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم غَيرِ المغْضُوب عليهم ولاَ الضَّالِّينَ . قال « الله » : هَذَا لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَل»[2] .

والصلاة مع هذا كله نظافة للبدن والثوب والمكان ورياضة للجسم والروح والعقل ، فهى إذن قوة روحية وبدنية وخلقية .

أليست – بهذا كله – جديرة بأن تفرض من فوق سبع سماوات ؟ بل إنها

---

(١) هود : ١١٤ . (٢) رواه مسلم

لجديرة أن تفرض فى الليلة المباركة – ليلة الإسراء والمعراج – فهى عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين .

ومن ثمرات الصلاة التى يجنيها المؤمن : أن فيها متنفسا للمتعين والمنكوبين ، فإذا استعان الواحد منهم بالصبر والصلاة وجد «الله» تعالى معه ، وقد نادى «الله» تعالى عباده المؤمنين :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾(١) ..

وقال تعالى :

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾(٢) ..

ولقد كان النبى (ﷺ) إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، فهى مرفأ الراحة والطمأنينة ، ومنزل الأمن والسكينة ، بها يتغلب الإنسان على نوازع الجبن والخور ومواقف الهوى والخمول ، ففيها مقاومة للجزع الذى يصيب بعض الناس وقت نزول الشر ، وعلاج للنفوس المناعة للخير حين يكون :

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣) ..

والمصلى لابد أن يكون فى صلاته مستحضرا أحاسيس الخشوع ، لأنه إنما يقف بين يدى الحضرة الإلهية فى دائرة الرحمة والفيض الإلهى فلا ينبغى له أن يكون من المرائين أو الساهين فإن هؤلاء قد توعدهم ربهم على عدم إخلاصهم فى صلاتهم ، قال تعالى :

---

(١) البقرة : ١٥٣ .   (٢) البقرة : ٤٥ – ٤٦ .
(٣) المعارج : ١٩ – ٢٣ .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾(١)

ويحث الإسلام مقيم الصلاة بالانتظام في سلك المجتمع وألا يعيش فى عزلة عن الناس ، فأمر بأداء الصلاة فى جماعة وجعلها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة بل أن الرسول (ﷺ) هم أن يحرق على قوم بيوتهم لأنهم يتخلفون عن الجماعات .

روى مسلم عن ابن مسعود قال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى «الله» غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فإنَّ «الله» تعالى شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ (ﷺ) سُنَنَ الْهُدَى وإنهن مِن سُنَن الهدَى وإنكم لو صَلَّيْتُم فى بيُوتِكُم كَمَا يُصَلِّى هَذَا المتخلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُم سُنَّةَ نَبِيِّكُم وَلَوْ تَرَكْتُم سُنَّةَ نَبِيِّكُم لَضَلَلْتُم وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنَ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ من هذه المساجدِ إلاَّ كَتَبَ «الله» لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً وَلَقَد رَأَيْتَنا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْها (أى صَلاَة الجَماعَة) إلا مُنَافِقٍ مَعْلُوم النِّفَاقِ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى به يَتَهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ يَسْنِدَانِهِ لِمَرَضِهِ حَتَّى يُقَامَ فِى الصَّفِّ »(٢) .

ولقد كانت رحلة الإسراء والمعراج تخطط بالمنهج الإلهي للحياة الإسلامية فى شتى أطوارها فى الماضى والحاضر والمستقبل ، فالصلاة وإن لم تكن فرضت بعد إلا أنه قد رسم لها الصورة الهامة والضرورية ووضح مغبة أمر الذى تثاقل رأسه عن الصلاة ، فقد مر (ﷺ) على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر ، وكلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شىء ، فقال : «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَتَثَاقَلُ رُؤُسُهُم عَنِ الصَّلَاةِ المَكْتُوبَة ، بَل

---

(١) الماعون : ٤ - ٧ . (٢) رواه مسلم .

إِنَّهُ قَدْ أدى الصلاة على كيفية خاصة قبل أن تفرض إمامًا بالنبيين ، وفى ذلك ما يدل على عظمة هذه الفريضة وعظمة الرسول (ﷺ) ، ففى رواية ابن مسعود : ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَعَرَفْتُ النَّبِيِّينَ مَا بَيْنَ قَائِمٍ وَرَاكِعٍ وَسَاجِد ، ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ فَأُقِيمَتِ الصَّلاةُ فَقُمْنَا صُفُوفًا نَنْتَظِرُ مَنْ يَؤُمُّنَا ، فَأَخَذَ بِيَدِى جِبْرِيلُ فَقَدَّمَنِى فَصَلَّيْتُ بِهِمْ .

وفى رواية أبى أمامة عند الطبرانى : ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلاةُ فَتَدَافَعُوا حَتَّى قَدَّمُوا مُحَمَّدًا (ﷺ) .

إذن فمكانة هذه الفريضة مكانة جليلة فهى معراج إلى «الله» يعبر بها المؤمن الحدود الدنيا ويستشرف – فى سمو روحى – الأجواء الإلهية ويجز طبقات البعد عن «الله» فيقترب من رحابه ويأنس فى مرافئ الرحمة والسلام .

ويقول الإمام القشيرى : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق (رضى الله عنه) يقول : إن نبينا (عليه السلام) أتى للأمة بالمعراج على التحقيق فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج ، وقد كان المعراج له (عليه السلام) ثلاث منازل من الحرم إلى المسجد الأقصى ، ثم من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ، ثم منها إلى قاب قوسين أو أدنى ، فكذلك لنا الصلاة ثلاث منازل القيام ثم الركوع ثم السجود وهو نهاية القرب ، قال الله تعالى :

﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾[1] ..

فإذا ما أهلت أيام هذه الذكرى ناضرة باهرة فعلى المسلمين أن يعيشوا ساعاتها البيضاء متصلين بحبال «الله» ، ورافعين شعار التوحيد وداعِينَ إلى الصلاة ، وليكن لهم من طاقات هذه الذكرى وأنماط الجهاد فيها ما يدفعهم إلى استخلاص بيت المقدس الذى انتهت إليه رحلة الإسراء وبدأ منه المعراج وصلى فيه النبى (ﷺ) بالأنبياء عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام .

(١) العلق : ١٩ .

العطــاء الإلهــى

وكان عطاء «الله» تعالى لرسوله (ﷺ) فى هذه الرحلة المباركة على حسب كرم « الله » العزيز الوهاب ، وعلى حسب عظمته وحكمته ، فكان عطاء كثيرا وجزيلا ، بعد فترة أوذى فيها الرسول (ﷺ) فتحمل ، وصبر صبرا جميلا ، إنه عطاء من نوع فريد لا مثيل له ..

وفى لقاء الرسول (ﷺ) بالأنبياء ، أثنوا على ربهم ، فقال إبراهيم عليه السلام : الحَمْدُ «لله» الَّذِى اتَّخَذَنى خَلِيلاً ، وَأَعْطَانِى مُلْكًا عَظِيمًا ، وَجَعَلَنِى أُمَّةً يُؤْتَمُّ بِى ، وَأَنْقَذَنِى مِنَ النَّار ، وَجَعَلَهَا عَلَىَّ بَرْدًا وَسَلامًا ، ثُمَّ إنَّ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلام) أثنى عَلَى رَبِّه فَقَال : الحَمدُ «لله» الَّذِى كَلَّمَنِى تَكْلِيمًا ، وَجَعَلَ هَلاكَ آل فِرْعون ونجاةَ بَنى إسْرَائِيل عَلَى يَدَىَّ ، وَجَعلَ مِنْ أُمَّتِى قَوْمًا يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ، ثمّ إن داود (عليه السلام) أثنى على ربه فقال : الحَمدُ «لله» الذى جَعَلَ لِى مُلْكًا عَظِيمًا ، وَعَلَّمنى الزَّبُورَ وألانَ لِىَ الحديدَ وَسَخَّرَ لِىَ الجِبَالَ يُسَبِّحنَ وَالطَّيرِ وَأَعْطَانى الْحِكْمَةَ وَفَصلَ الْخِطَابِ ، ثُمّ إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحَمْدُ «لله» الَّذِى سخَّرَ لِىَ الرِّيَاحَ وَسَخَّرَ لِىَ الشَّيَاطِينَ يَعْمَلُونَ لِى مَا شِئْتُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجوابِ وَقُدُورٍ رَاسِياتٍ ، وَعَلَّمَنى مَنطِقَ الطَّيْرِ وَآتانى مِن كُلِّ شىءٍ فَضْلاً وَسَخَّرَ لِىَ جُنُودَ الشَّيَاطِينِ وَالإنْسِ وَالطَّيْرِ وَفَضَّلَنى عَلَى كَثِيرٍ مِن عِبَادِهِ المؤمِنِين وَآتَانى مُلْكًا عَظِيمًا لاَ يَنْبَغى لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى وَجَعَل لِى مُلْكًا طَيِّبًا لَيسَ فِيهِ حِسَاب ؛ ثم إن عيسى (عليه السلام) أثنى على ربه عز وجل فقال : الحَمدُ «لله» الَّذِى جَعَلَنى كَلِمتهُ ؛ وَجَعَلَ مَثَلِى كَمَثَلِ آدَمَ . خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون وَعَلَّمنى الْكِتَابَ وَالحكمَةَ وَالتَّورَاةَ وَالإنْجِيلَ ؛ وَجَعَلَنِى أَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ

فيه فيكونُ طيرًا بإذنِ «الله» وَجَعَلنى أبرىءُ الأكمهَ وَالأبرصَ وَأحيى الموتَى بإذنِ «الله» ؛ وَرَفَعَني وَطَهَّرنى وَأعاذَنِى وَأُمّى مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجيمِ . فَلَم يَجْعَل للشَّيطَان عَلَيْنَا سَبِيلاً ، ثم إن محمدًا (ﷺ) أثنى على ربه عز وجل فقال : « كُلُّكُمْ أَثْنَى عَلَى رَبِّهِ وَإِنِّى مُثْنٍ عَلَى رَبِّى فقال : الحمْدُ «لله» الَّذِى أَرْسَلَنِى رَحْمَةً لِلْعَالمينَ ؛ وَكَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذيرًا ، وَأَنْزَلَ عَلَىَّ الْفُرْقَانَ فِيه بَيَانٌ لِكُلِّ شَىءٍ وَجَعَلَ أُمَّتِى خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، وَجَعَلَ أُمَّتِى أُمَّةً وَسَطًا ، وَجَعَلَ أُمَّتِى هُمُ الأوَّلِين وَهُمُ الآخرينَ ، وَشَرَحَ لِى صَدرِى ، وَوَضَعَ عَنِّى وِزْرِى ، وَرَفَعَ لِى ذِكْرِى وَجَعَلَنى فَاتِحًا وَخَاتمًا » فقال إبراهيم عليه السلام : بِهَذَا فَضَلَكُم مُحَمَّد (ﷺ) .

وإذا تتبعنا هذا العطاء الإلهي الغامر : نخلص منه بنتائج هامة يجب الوقوف عندها ؛ والتأسى بالرسول (ﷺ) فيها :

أولا : يوجه « الله » تعالى رسوله (ﷺ) عقب كل فضل أناءه عليه بالتوجه إليه شكرا لنعمه وتثبيتا لقلبه الشريف ، فبعد أن كرمه بالإسراء والمعراج جاء التوجيه بعد ذلك بالهجرة ، ثم بمراحل الجهاد وبعد أن آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم وأمره بالجهر بالدعوة جاء فى آخر السورة بالتوجيه الكريم :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾(١) ..

وبعد أن ساق له عطاءه بالشهادة والبشارة والإنذار والدعوة إلى «الله» فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾(٢) ..

---

(١) الحجر : ٩٨ ، ٩٩ . (٢) الأحزاب : ٤٥ .

جاء عقب هذا العطاء ووجهه إلى التوكل على «الله» فى قوله تعالى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ ﴾(١) ..

وفى سورة الضحى بعد أن ساق «الله» آلاءه ونعماءه جاء فى آخر السورة بقوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾(٢) ..

وفى سورة الانشراح يذكر بعد تعداد النعم قوله :

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾(٣) ..

وفى سورة الكوثر يذكر بعد عطائه لرسول الله (ﷺ) قوله :

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾(٤) ..

وفى سورة النصر بعد أن يذكر ما من عليه بالنصر والفتح يوجهه بقوله :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣ ﴾(٥) ..

وهذا المنهج الذى اتبعه «الله» مع رسوله (ﷺ) إنما يشكل تواصلا بينهما ، واستمرارا فى الإنعام من «الله» وفى العبادة من الرسول (ﷺ) وهذا هو شأن الحبيب مع حبيبه .

ثانيا : تتمثل الأسوة الحسنة للمؤمنين برسولهم (ﷺ) فهو مع مكانته العظيمة ، ومع غفران «الله» له لما تقدم من ذنبه وما تأخر يواصل العبادة شكرا «لله» تعالى فيقوم الليل متهجدا راكعا ساجدا حتى تتورم قدماه ، وتفيض عيناه بالدموع ، وحتى يُسمع لصدره أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء ، والخشية من «الله» ، فتقول له السيدة عائشة (رضى الله عنها) : **أَتَفْعَلُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غَفَرَ «الله» لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَيُجِيبُهَا قَائِلا : «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟!»** .

---

(١) الأحزاب : ٣ . (٢) الضحى : ١١ . (٣) الانشراح : ٧ ، ٨ .
(٤) الكوثر : ٢ ، ٣ . (٥) النصر : ٣ .

وما أسمى هذه القدوة به إذًا ، وما أكرمها !!. ولقد أمرنا «الله» تعالى أن نتأسى به فقال : -

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾(١) ..

ولقد مَنَّ «الله» تعالى على المؤمنين برسوله (ﷺ) الذى تمثلت فيه الأسوة الحسنة قولا وعملا ، ووجه سبحانه الناس إلى أسس السعادة التى جاء بها رسوله (ﷺ) ، وأنها تتمثل فى تزكية نفوسهم وتطهيرها من كل رجس أو رذيلة ، تدنس حياتهم كما تتمثل كذلك فيما جاء به الوحى الإلهى فى الكتاب والسنة ، فالأسوة الحسنة إذن تمثلت فى جانبين :

الجانب الأول : هو الجانب السلوكى التطبيقى الذى شاهدوا فيه حياة رسولهم (ﷺ) ، وما يؤديه من أعمال ، ومجاهدته فى تزكية نفوسهم وتطهير بيئتهم .

والجانب الثانى : جانب التعليم وهو الجانب النظرى الذى يحضهم فيه على اتباع وجيه من الكتاب والحكمة ، ويعلمهم إياه ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾(٢) ..

---

(١) الأحزاب : ٢١ . (٢) آل عمران : ١٦٤ .

الهجرة فى سبيل الله

وضح «الله» حال طائفة آثرت الهوان على الهجرة في سبيل «الله» ، فاستكانو للظلم الذى يقع عليهم ، فوضح نهايتهم الأليمة ، وعاقبتهم الوخيمة حيث رضو بالهوان والإقامة بين الكفار الذين يصدونهم عن سبيل الله ، ثم استثنت الآيات أصحاب الأعذار الصحيحة من هذا الوعيد فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾[1] ..

ولما كانت الهجرة فى سبيل «الله» منطلقا للنفس المؤمنة ، ومتنفسا لها ، تتمتع فى الهجرة بحريتها الإنسانية ، وكرامتها الآدمية وأداء واجبات دينها دون إعتداء أو صد عنه ، لما كانت الهجرة طريقا لهذا كله فقد وعد «الله» تعالى من يهاجر فى سبيله أن يكون فى ضمان «الله» وأمانه ، وفى يسر فى كل طرقه وسعة فى عيشه :

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾[2] ..

يجد مهاجرا وطريقا يراغم بسلوكه قومه ، وتحولا من الرغام وهو التراب أو مكانا للهجرة ومأوى للسكنى والحياة الحرة الآمنة يجد فيه الخير الكثير والسعة فى الرزق ، وإنما تكون الهجرة خالصة فى سبيل «الله» سبحانه ، إذ

---

(١) النساء : ٩٧ – ٩٩ .
(٢) النساء : ١٠٠ .

تمحضت نية المهاجر فى سبيل الحق وخلصت فى سبيل «الله» تعالى ، بإقامة دينه ونصرته وإظهاره على الدين كله .

روى البخارى بسنده عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : «إِنَّما الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوى ؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى «اللهِ» وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى «الله» وَرَسُولِه ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلى امْرَأَةٍ يَنكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[1] .

وقد روى أن ضمرة بن العيص وقيل جندب بن ضمرة كان من المستضعفين وكان مريضا فلما سمع ما أنزل «الله» فى الهجرة ، قال : أخرجونى ، فهيئ له فراش ثم وضع عليه وخرج به فمات، فى الطرق بالتنعيم - وهو موضع بمكة - فأنزل «الله» فيه :

﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾[2]

وقد قسم العلماء الذهاب فى الأرض قسمين : هربا ، وطلبا .

فالأول ينقسم إلى ستة أقسام :

أولا : الهجرة وهى الخروج من دار الحرب إلى دار السلام ، وكانت فرضا فى أيام النبى (ﷺ) ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة والتى انقطعت بالفتح هى القصد إلى النبى (ﷺ) حيث كان .

ثانيا : الخروج من أرض البدعة ، يقول مالك : لاَ يَحِلُّ لأَحدٍ أَنْ يقِيمَ بِأَرْضٍ يُسَبُّ فِيهَا السَّلَفُ ، وقال ابن العربى : هَذَا صَحِيحٌ ، فإنَّ المنكرَ إذا لَمْ تَقْدِرْ أن تُغَيِّرَهُ فَزُلْ عَنْهُ، قال «الله» تعالى :

---

(١) رواه البخارى .   (٢) النساء : ١٠٠ .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾(١) .

ثالثا : الخروج من أرض غلب عليها الحرام ، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم .

رابعا : الفرار من الأذية فى البدن ، وممن فعل ذلك إبراهيم (عليه السلام) فإنه لما خاف من قومه قال : ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾(٢) ..
وقال مخبرا عن موسى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾(٣) ..

خامسا : خوف المرض فى البلاد الوخمة والخروج منها ، وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون فمنع «الله» منه بالحديث الصحيح ، روى أبو داود بسنده عن عبد الرحمن بن عوف قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : **«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»**(٤) .

سادسا : الفرار خوف الأذية فى المال فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه .
وأما قسم الطلب ، فمنه طلب الدين ، ومنه طلب الدنيا .

فطلب الدين : كالسفر للعبرة كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾(٥) ..

وسفر الحج والسفر للجهاد ، أو المعاش ، أو التجارة ، والكسب الزائد على القوت قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(٦) أى التجارة .

(١) الأنعام : ٦٨ . (٢) العنكبوت : ٢٦ . (٣) القصص : ٢١ .
(٤) رواه البخارى . (٥) يوسف : ١٠٩ . (٦) البقرة : ١٩٨ .

وكالسفر فى طلب العلم أو قصد البقاع الشريفة المكرمة ، روى البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال : «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إلى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : المَسْجِدِ الحَرَامِ ، ومَسْجِدِى هَذَا ، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى»(١) ومثل ذلك : المرابطة على الثغور للدفاع عنها ، والسفر لزيارة الإخوان فى «الله» قال رسول الله (ﷺ) : «زَارَ رَجُلٌ أَخًا لَهُ فِى قَرْيَةٍ فَأَرْصَدَ «الله» مَلَكًا عَلَى مَدْرَجَتِهِ - أىْ أقعدهُ عَلَى طَرِيقِه يَترقَّبُ - فقال : أيْنَ تُرِيدُ ؟ فقال : أُرِيدُ أخًا لِى فِى هَذِهِ القَرْيَةِ ، قال : هَلْ لَكَ مِن نِعْمَةٍ ترُبّها عَلَيْهِ ؟ - أى تُصلحها - قال : لاَغَيْر أنِّى أحْبَبْتُهُ فِى «الله» عَزَّ وَجَلَّ ، قال : فَإنِّى رَسُولُ الله إلَيْكَ بِأنَّ «الله» قدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فيه»(٢) وكما وعد «الله» تعالى المهاجر باليسر والسعة ؛ فقد تكفل سبحانه بأجر عظيم له إن مات ولو بعد مجاوزته الموضع الذى كان منه حتى وإن لم يتعرض لعناء السفر أو وعثاء الطريق ، فإن نيته كافية فى حصول المثوبة والأجر ، وقد أكد «الله» وجوب الثواب وثبوته ، و «الله» سبحانه وتعالى أن يوجب على نفسه ما شاء ، وليس لغيره أن يوجب شيئًا ما عليه تعالى «الله» عن ذلك علوا كبير :

﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾(٣) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) رواه مسلم . (٣) النساء : ١٠٠ .

الهجرة فى ضوء القرآن والسنة

وقد رغب «الله» تعالى المسلمين فى الهجرة ، مبينا لهم نتائجها وثمراتها ، وبأنهم لا ينبغى أن يضيقوا بها ، أو تذهب بهم الظنون مذاهب شتى ، لأن «الله» الذى يهاجرون إليه ، وفى سبيله هو القادر على كل شىء ، ولسوف يجدون أماكن كثيرة تصلح لهجرتهم فيها بسطة فى الرزق وسعة :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾[1] ..

كما بين «الله» سبحانه أن من يخرج من بيته مهاجرا بنية صادقة إلى «الله» ورسوله ثم يدركه الموت أثناء هجرته فقد وقع أجره على «الله» ، وحصل له الثواب الكامل ، وروى عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس أن ضمرة بن العيص ، روى عن سعيد بن جبير أن العيص بن ضمرة ، كان مريضا ، فلما سمع قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[2] ..

قال : أخرجونى ، وخرج مهاجرا ، حتى مات فى الطريق ، فنزل :

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾[3] ..

---

(١) الملك : ١٥ .   (٢) النساء : ٩٧ .   (٣) النساء : ١٠٠ .

والوعيد السابق لمن لم يهاجر ، إنما هو لغير المستضعفين ، أما بالنسبة للمستضعفين فقد استثناهم «الله» من هذا الوعيد فى قوله تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾(١) ..

ووعد «الله» تعالى المهاجرين فى سبيله بأن يسهل لهم سبل الحياة الطيبة الكريمة ، هذا الوعد خاص بمن تمحضت نية هجرته لمرضاة «الله» ، وإقامة دينه ، عن عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) ، سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» ، وفى بعض الروايات زيادة : «فمن كانت هجرته إلى «الله» ورسوله فهجرته إلى «الله» ورسوله ...» وكما تناولت الآيات والأحاديث أهمية الإخلاص فى الهجرة تناولت كذلك بيان ثمراتها وهى أن «الله» مع المهاجرين ، وأن لهم مغفرة ورحمة جزاء صبرهم وتحملهم وجهادهم :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾(٢) ..

وبالهجرة تحول الولاء من الحسب والنسب والأسرة والقبيلة كما كان فى مكة إلى الإيمان بالهجرة «لله» ولرسوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ﴾(٣) ..

---

(١) النساء : ٩٨ ، ٩٩ .   (٢) النحل : ١١٠ .   (٣) الأنفال : ٧٢ .

وهناك نوع من الهجرة ، ينتبه السنة الشريفة ، هو الهجرة الباطنة ، عن عبد الله بن عمرو عن النبى (ﷺ) قال : «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالمهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ»[1] ، فالهجرة إذاً نوعان :

هجرة ظاهرة : وهى الفرار بالدين من الفتن ، **وهجرة باطنة** : وهى ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان ، فليس لواحد من المهاجرين أن يتكل على هجرته ، حتى يتمثل أوامر الشرع ونواهيه ، وليس لمن لم يدرك الهجرة أن يضيق بفواتها ، فإنه يمكنه أن يحصل حقيقة الهجرة وثوابها بأن يهجر ما نهى «الله» عنه . بعد هذا نتجه إلى الهجرة النبوية التى كانت تمثل قمة المعانى السامية فى إخلاص النية «لله» ، ولنبدأ مع الرحلة منذ إعلان الدعوة ولقاء الرسول (ﷺ) بالقبائل .

---

(١) رواه البخارى .

لقاء الرسول (ﷺ) بالقبائل

منذ السنة الرابعة لمبعث الرسول (ﷺ) ، وقد قام بإعلان الدعوة بعد أن مكث ثلاث سنوات يدعو مستخفيا ، قام عشر سنين بعد ذلك يلتقى بالناس ، ويوافيهم فى المواسم والأسواق ، وينتظرهم على أبواب الطرق ، ويتبع الحاج فى المنازل ، وفى المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، وكان يسأل عن قبائلهم ، ويأتى إليهم داعيا إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، قائلا لهم : «يَاأَيُّهَا النَّاس قُولُوا لاَ إِلَه إِلاَّ الله تُفْلِحُوا وَتَملكُوا بِهَا الْعَرَب وَتَذِلّ لَكُم الْعَجَم ، وإذَا آمَنْتُم كُنْتُم مُلُوكًا فى الجَنَّة» فكان منهم من رد بسخرية ، ومنهم من رد ردا قبيحا كقبيلة بنى حنيفة أهل مسيلمة الكذاب ، ومنهم من طلب أن تكون لهم الرياسة من بعده كقبيلة بنى عامر ، فلما قال لهم : « إِنَّ الأَمْرَ «لله» يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاء» أعرضوا عن دعوته وانصرفوا . أما أبو لهب فكان وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابىء كاذب ؛ فيردون على رسول الله (ﷺ) ردا قبيحا ويؤذونه قائلين : «أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك» فكان يدعوهم إلى «الله» بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتى هى أحسن ، ويقول : «اللَّهُمَّ لَو شِئْتَ لَمْ يَكُونُوا هَكَذَا» ومن بين هذه القبائل : بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خصفة ، وفزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم ، وعبس وبنو نضر ، وبنو البكاء ، وكندة ، وكلب ، والحارث بن كعب ، وعذرة ، والحضارمة .

الأوس والخـزرج

شاء «الله» تعالى أن يحق الحق ويبطل الباطل ، وأن ينصر نبيه ، وينجز ما وعد فساقه إلى حى من الأنصار ، فجلس إليهم ودعاهم إلى «الله» ، وتلا عليهم من القرآن فآمنوا وصدقوا ، وآووا ونصروا .

ويقال : إن أول من أسلم ثمانية نفر .

وقيل : إن أول من أسلم من الأنصار أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس عندما خرجا إلى مكة يتنافران إلى عتبة بن ربيعة فقال لهما : قد شغلنا هذا المصلى عن كل شىء يزعم أنه رسول الله ، وكان أسعد بن زرارة وأبو الهيثم يتكلمان بالتوحيد فى طيبة ، فقال ذكوان بن عبد قيس لأسعد بن زرارة حين سمع كلام عتبة : دونك هذا دينك ، فقاما إلى رسول الله (ﷺ) فعرض عليهما الإسلام فأسلما ثم رجعا إلى المدينة فأسلم أبو الهيثم .

وقيل : إن أول من أسلم رافع بن مالك الزرقى ومعاذ بن عفراء حينما خرجا معتمرين فذكر لهما أمر رسول الله (ﷺ) فأتياه فعرض عليهما الإسلام فأسلما وقدما المدينة ، وكان أول مسجد قرىء فيه القرآن بالمدينة مسجد «بنى زريق» .

وقيل : إن رسول الله (ﷺ) خرج من مكة فمر على ثمانية نفر من أهل يثرب فعرض عليهم الإسلام فأسلموا ، وقال لهم رسول الله (ﷺ) : تَمنَعُونَ لِى ظَهْرِى حَتّىٰ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّى ، فطلبوا منه أن يدعهم حتى يرجعوا إلى عشائرهم لعل «الله» يصلح ذات بينهم ، وضربوا معه موعدا فى موسم العام المقبل .

ويقال : إن رسول الله (ﷺ) خرج فى الموسم الذى التقى فيه بالنفر الستة

من الأنصار ، فقال لهم : أحلفاء يهود ؟ قالوا : نعم ، فدعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ، وهم :

١ – أسعد بن زرارة .

٢ – عوف بن الحارث بن عفراء ، وهما من بنى النجار .

٣ – رافع بن مالك من بنى زريق .

٤ – قطبة بن عامر بن حديدة من بنى سلمة .

٥ – عقبة بن عامر بن نابى من بنى حرام .

٦ – جابر بن عبد الله بن رئاب من بنى عبيد بن عدى بن سلمة.

وهذا ما نرجحه ، فقد روى أنه لم يكن قبلهم أحد ، وقال محمد بن عمر : هذا عندنا أثبت ما سمعنا منهم ، وهو المجمع عليه وكان ذلك فى السنة الحادية عشرة للبعثة ، وقد كان النزاع مستمرا بين الأوس والخزرج ، وكانت الحروب مشتعلة بينهم لا يهدأ لهم بال ، وبجوارهم يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، وكثيرا ما كان اليهود يذكرون أن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه ، وكانوا يقولون للخزرج إذا اختلفوا معهم : إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم ، فلما دعا رسول الله (ﷺ) هؤلاء النفر إلى «الله» فنظر كل منهم إلى صاحبه قائلا : و«الله» إنه لَلنبىُّ الذى تواعدكم به يهود فلا يسبُقنكم إليه .

وسارعوا بإجابة الدعوة إلى الإسلام ، وقالوا : «إنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا – وَهُمُ الأوسُ وَالخزرج – وَلاَ قَومَ بَينهُم مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُم ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُم «الله» بِكَ ، وَأَنْ يَجْمَعَهُم عَليكَ فَلاَ رَجُل أعز مِنْكَ» وحين عاد هؤلاء إلى قومهم كانوا دعاة مخلصين للإسلام ، فما بقيت دار من دورهم إلا وعبقت بنفحات الإسلام ، وسيرة الرسول (ﷺ) .

بيعة العقبة الأولى

تمت بيعة العقبة الأولى فى السنة الثانية عشرة للبعثة ، وسميت بهذا الاسم ، لأنها وقعت عند العقبة ، وقد لقى عندها الرسول (ﷺ) اثنى عشر رجلا ، اثنان من الأوس وهما : أبو الهيثم بن التيهان ، وعويم بن ساعدة من بنى عمرو ابن عوف ، وعشرة من الخزرج وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث من بنى النجار . وذكوان بن عبد قيس ، ورافع بن مالك من بنى زريق ، وعبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة أبو عبد الرحمن من بنى عوف بن الخزرج ، وعباس بن عبادة بن نضلة من بنى عامر بن عوف . وعقبة بن عامر بن نابئ من بنى سلمة ، وقطبة بن عامر بن حديدة من بنى سواد . وقد أسلم هؤلاء جميعا ، وبايعوا رسول الله (ﷺ) على بيعة النساء ، فإن مبادئ هذه البيعة تتفق مع مبادئ بيعة النساء التى جاءت فى سورة الممتحنة قال «الله» تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾[1] ..

وفى الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى ومسلم ، عن عبادة بن الصامت : بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ الأُولَى : «أَنْ لاَ نُشْرِكَ بِـ «الله» شَيْئًا ، وَلاَ نَسْرِقَ ، وَلاَ نَزْنِى ، وَلاَ نَقْتُلَ أَوْلاَدَنَا ، وَلاَ نَأْتِى بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا ، وَلاَ نَعْصِيهِ فِى مَعْرُوفٍ ، قال : «فَإِنْ وَفَيْتُم فَلَكُمُ الْجَنَّةُ ،

(١) الممتحنة : ١٢ .

وَإن غَشَيْتُم مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخِذْتُمْ بِحَدِّهِ فى الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَإن سُتِرْتُم عَلَيْه إلى يَوم الْقيَامَةِ فَأَمْرُكُم إلى «الله» إن شَاءَ عَذَّبَ وَإن شَاء غَفَر»[١] .

وقد بعث رسول الله (ﷺ) معهم مصعب بن عمير العبدرى ليقرئهم القرآن ويشرح لهم تعاليم الإسلام .. وكان لهذه البيعة أثرها الهام ، وكان لمصعب بن عمير أثره الجليل بما بثه من مبادئ الدين وسماحته ، ويسره ، وما اشتملت عليه تعاليمه من فضائل تصلح بها الدنيا ، وتقوم على أساسها خير أمة أخرجت للناس ، لذا أقبل الناس على اعتناق الإسلام ، ولم تبق دار إلا وأشرق فيها نور الإسلام .. وعندما عاد مصعب بن عمير فى موسم الحج إلى مكة ، بعد أن مكث عاما بالمدينة أخبر رسول الله (ﷺ) بخبر المسلمين هناك وإقبال الناس على الدين ، وأنهم سيأتون فى موسم الحج إن شاء «الله» ...

(١) رواه البخارى ومسلم .

بيعة العقبة الثانية

تمت بيعة العقبة الثانية فى السنة الثالثة عشرة للبعثة ، حيث قدم ثلاثة وسبعون شخصا ومعهم امرأتان إلى مكة ؛ ليدعوا رسول الله (ﷺ) للهجرة إليهم ، ووعدهم الرسول (ﷺ) منى وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول فى الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة حيث المسجد اليوم ، وكان قد سبقهم إلى ذلك الموضع .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج ، إنكم قد دعوتم محمدا إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته يمنعه - و«الله» - منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب ، واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحد فارتأوا رأيكم وائتمروا بينكم ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه .

فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وإنّا - و «الله» - لو كان لى أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله (ﷺ) ، قال : وتلا رسول الله (ﷺ) عليهم القرآن ثم دعاهم إلى «الله» ورغبهم فى الإسلام ، وذكر الذى اجتمعوا له ، فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ثم قال : يا رسول الله بايعنا فنحن أهل الحلقة - أى السلاح - ورثناها كابرا عن كابر ، ويقال : إن أبا الهيثم بن التيهان كان أول من تكلم فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله (ﷺ) وصدقه ، وقالوا : نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، ولغطوا فقال العباس بن عبد المطلب ، وهو آخذ بيد رسول الله (ﷺ) : أخفوا جرسكم

فإن علينا عيونا ، وقدموا ذوى أسنانكم فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم ، فتكلم البراء ابن معرور ، فأجاب العباس بن عبد المطلب ثم قال : ابسط يدك يا رسول الله ، فكان أول من ضرب على يد رسول الله (ﷺ) البراء بن معرور ، وقيل أبو الهيثم وقيل أسعد بن زرارة ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله (ﷺ) : «إنَّ مُوسَى أَخَذَ مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ اثنى عَشرَ نَقِيبًا فَلاَ يَجدنَّ مِنكم أحد فِى نَفْسِهِ أنْ يُؤْخَذَ غَيْرهُ ، فَإِنَّمَا يَخْتَارُ لِى جِبْرِيلُ» ، فَلَمَّا تخيرَهُمْ . قال للنقباء : «أَنْتُم كُفَلاَءُ عَلَى غَيْرِكُم كَفَالَةَ الحَوارِيِّين لِعيسَى بن مريم ، وَأَنا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِى» . قالوا : نعم ، ثم انفضوا إلى رحالهم .

الهجـــرة

هجرة المسلمين :

بعد بيعة العقبة الثانية طابت نفس الرسول (ﷺ)، خاصة بعد أن جعل «الله» له منعة وقوة. فلما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين شكا المسلمون إلى رسول الله (ﷺ)، واستأذنوه فى الهجرة، فقال: «قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين» وهما الحرتان – ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هى هى» ثم مكث أياما ثم خرج إلى أصحابه مسرورا، فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم، وهى يثرب. فمن أراد الخروج فليخرج إليها»؛ فأخذ القوم يخرجون ذاهبين إلى هناك أفرادا وجماعات فى سرية تامة، ونزلوا على الأنصار الذين آووا ونصروا. وهكذا خرج المسلمون جميعا حتى لم يبق منهم بمكة إلا رسول الله (ﷺ) وأبو بكر وعلى .. وممن بين من خرج من المسلمين جماعة يعدوا بين الحسنيين، ونالوا شرف المهاجرين وشرف الأنصار، وهؤلاء هم: ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد، وهؤلاء النفر من الأنصار، كانوا قد بايعوا الرسول (ﷺ) فى العقبة الثانية ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى الرسول (ﷺ) بمكة حتى قدموا مع أصحابه فى الهجرة فهم مهاجرون أنصاريون.

وتمت هجرة جميع المسلمين فى سرّية تامة، إلا ما كان من عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، فيما رواه عنه المؤرخون، فإنه قد هاجر علانية، وتحدى قريشا، قائلا: **مَن أرادَ أن تثكله أمُّه أو ييتم وَلده، أو ترمَّلَ زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى**، فما تبعه أحد..

وهاجر طلحة بن عبيد الله، وصهيب بن سنان الرومى معا، وكان

لصهيب مال ، فأراد المشركون أن يقتلوه ويأخذوا ماله ، فما إن اقتربوا منه إلا قال لهم : قد تعلمُونَ أنّى مِن أرماكم رَجُلاً ، ووالله لاَ تَصِلُونَ إلىّ أو يموت منكم عدد كبير ، فاترُكُونى وَشَأنى ، قالوا : فاترك مالك ، فألقى إليهم ما معه من مال ، ودلهم على ماله بمكة ليأخذوه ، فانصرفوا ، وفى حقه نزل قول «الله» تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[1] ..

أما أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فقد استأذن فى الهجرة فقال له رسول الله (ﷺ) : « لاَ تَعْجَل لَعَلَّ «الله» يَجْعَل لَكَ صَاحِبًا » ، وأما على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فقد بقى مع الرسول (ﷺ) بمكة . بل وبقى بعده ليقوم برد الودائع التى كانت عنده إلى أصحابها .

حَولَ أَسبَابِ الهِجرَةِ

علمنا فيما سبق أن رسول الله (ﷺ) قد أذن للمسلمين بالهجرة بعد أن رأى أصحابه من أعدائهم أذى كثيرا ، فلما هاجروا نمى إلى علم المشركين خبر هجرتهم ، وعرفوا أنهم قد أصبحوا فى منعة وقوة ، فخافوا أن يلحق بهم رسول الله (ﷺ) ، ويكون معهم قوة هائلة يجابههم بها فلا يستطيعون أن يقاوموه ، وعندئذ يتطور الموقف من أزمة دينية إلى أزمة أخرى اقتصادية ، قد تؤدى إلى ضياع بضاعتهم ، وكساد تجارتهم ، لأن يثرب ذات موقع حيوى : فهى تقع فى الطريق بين مكة والشام ، فرأوا أن هذه الدعوة وما تحمله من دين أصبحت تشكل خطرا جسيما على عقيدتهم وعلى تجارتهم ، وعلى مستقبل حياتهم كله ، فنهضوا ليعدوا للأمر عدته ، واجتمعوا فى دار الندوة وجمعوا أهل الحجى والرأى فيهم ، ليدلى كل واحد منهم برأيه ، وحضر إبليس معهم فى صورة شيخ نجدى ، وأشار كل واحد من القوم برأى :

فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا ، وننفيه إلى مكان قاص حتى نستريح منه ، ولكن هذا الرأى لم يلق قبولا ، لأنهم يرون أنه إذا خرج التف حوله الناس ، وتألفت به القلوب لما له من عذوبة فى الحديث وجمال فى المنطق .

فقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يموت كما مات من قبله من الشعراء .

ولكن هذا الرأى أيضا لم يصادف قبولا كذلك ، إذ أنهم يعلمون : إذا حبسوه فسوف يظهر أمره وتترامى أخباره لأصحابه وهنا يتواثبون عليهم ليخلّصوه منهم وينتزعوه .

ثم قال أبو جهل بن هشام : و الله إن لى فيكم رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاما نهدا جلدا ثم نعطيه سيفا صارما فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يدرى بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع ، وهنا وقع هذا القول من إبليس موقع القبول فيقول : «لله» در الفتى .

ولكن هذا المكر وتلك المؤامرة ما كانت لتخفى على رسول الله (ﷺ) ؛ فلقد أوحى «الله» إليه بما دبروه وأمره بالهجرة قال «الله» تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠ ﴾[1] ..

ويمكننا إبراز الأسباب التى كانت من أجلها الهجرة ، وتلخيصها فيما يأتى :

أولا : الانتقال بالدعوة الإسلامية إلى بقعة خصبة تؤتى ثمارها وينتفع بها الناس .

ثانيا : شدة إيذاء المشركين للمسلمين ، خاصة بعد وفاة أبى طالب وخديجة .

ثالثا : إخلاص الأوس والخزرج لرسول الله (ﷺ) ؛ وقد ظهر ذلك من بيعتى العقبة الأولى والثانية .

رابعا : محاولة المشركين الغدر برسول الله (ﷺ) .

---

(١) سورة الأنفال : ٣٠ .

هجرة رسول الله (ﷺ) وأبى بكر

لما دبر الأعداء مؤامرتهم ، وحاكوا فى الخفاء خيوطها ، أراد «الله» تعالى أن يحبط ظلمهم ويرد كيدهم فى نحورهم ، فأرسل جبريل (عليه السلام) إلى رسول الله (ﷺ) فأخبره الخبر ، وأمره ألاّ ينام فى مضجعه تلك الليلة .

وهكذا تولى ربُّ العزة سبحانه رعايته لرسوله (ﷺ) ، وكشف له ربُّه كل ما دبروه من غدر ومكيدة ، وكل ما يسرون وما يعلنون :

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[1] ..

ونام على (رضى الله عنه) مكان رسول الله (ﷺ) ؛ وقال له النبى (ﷺ) : «لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَىْءٌ تَكْرَهُهُ» وتسجى «على» ببردة رسول الله (ﷺ) ؛ فكان الأعداء إذا نظروا ، اعتقدوا أن رسول الله (ﷺ) لم يزل نائما ، حتى خرج من بينهم دون أن يشعروا به فقد أغشاهم «الله» :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2] ..

وهكذا نجى «الله» تعالى رسوله (ﷺ) من كيد الكائدين

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[3] ..

وانطلق رسول الله (ﷺ) بعد ذلك إلى أبى بكر الصديق (رضى الله تعالى عنه) ، فقال : «إنَّ الله قَدْ أذِنَ لِى فى الخُروج» .

فقال أبو بكر : فخذ - بأبى أنت وأمى - إحدى راحلتى هاتين ، فقال (ﷺ) : «بالثَّمن» ، وكان أبو بكر (رضى الله عنه) قد اشتراهما بثمانمائة

---

(١) يس : ٧٦ . (٢) يس : ٩ . (٣) آل عمران : ٥٤ .

درهم ، فأخذ إحداهما وهى (القصواء) ، وهناك قال قائل القوم : مَا تَنتَظِرُون ؟ قالوا : مُحمَّدًا ، قال : خِبتُم وَخَسِرتُم قد - والله - مَرَّ بِكُم وَذَرَّ عَلَى رُؤوسِكُمُ التُّرابَ . قالوا : و «الله» مَا أَبصَرنَاهُ .

وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم ، وهؤلاء هم : أبو جهل ، والحكم ابن أبى العاص ، وعقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ، وأمية بن خلف وابن الغيطلة ، وزمعة بن الأسود ، وطعيمة بن عدى وأبو لهب ، وأُبىُّ بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسألوا عليًا عن الرسول (ﷺ) ، فقال : لاَ علمَ لى بِه .

ومضى الرسول (ﷺ) فى هجرته المباركة مودعا مكة الحبيبة ، كلماته الحانية ، التى قالها - عند خروجه (ﷺ) من مكة المكرمة - وهو ينظر إلى البيت : «و «الله» إنَّكِ لأَحَبُّ أَرْضِ الله إلىَّ ، وَإنَّكِ لأَحَبُّ أَرْضِ الله إلى «الله» ، وَلَوْلاَ أَنَّ أَهْلَكِ أَخرَجُونِى مِنْكِ مَا خَرَجْتُ » ، وهذا الحديث رواه الزهرى عن أبى سلمة عن عبد الله بن عدى بن الحمراء يرفعه .

والبعض يقول : عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة وبهذا الحديث احتج من يفضل مكة على المدينة .. وكذلك حديث عبد الله بن الزبير - مرفوعا - أن الصلاة فى المسجد الحرام خير من مائة ألف صلاة فيما سواه .

فإذا كانت الأعمال تبعا للصلاة ، فكل حسنة تعمل فى الحرم فهى بمائة ألف حسنة .

وقد روى هذا من طريق ابن عباس عن رسول الله (ﷺ) قال : « مَنْ حَجَّ مَاشِيًا كُتِبَ لَهُ بِكلِّ خُطْوَةٍ سَبْعُمائَةِ حَسَنَةٍ مِنْ حَسَنَاتِ الحرم ، قيل : وَمَا حَسَنَاتُ الحَرَمِ ؟ قال : الحَسَنَةُ فِيه بمائةِ ألفِ حَسَنَةٍ[1] » ..

(١) رواه البزار .

وقد أُذِنَ لرسول الله (ﷺ) بالهجرة ، بقول «الله» تعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۝٨٠ ﴾(١) .

قال الحسن والضحاك ؛ المراد : دخوله المدينة المنورة ، وخروجه من مكة المكرمة ، وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تآمروا على قتله (صلوات الله وسلامه عليه) .

والرأى الآخر بمعنى : **أدخلنى قبرى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق أى عند البعث** . وذكر الحاكم أن خروجه (ﷺ) من مكة كان بعد بيعة العقبة بثلاثة أشهر ، أو قريبا منها .

وجزم ابن إسحاق بأنه خرج أول يوم من ربيع الأول وقدم المدينة المنورة لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول وقال عبد الله بن زيد ، وأبو هريرة (رضى الله عنهما) ، عن النبى (ﷺ) : « **لَولاَ الهِجرَةُ لَكُنتُ امرءًا مِنَ الأَنْصَارِ** » وقال أبو موسى عن النبى (ﷺ) : « **رَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْل ، فَذَهَبَ وَهَلِي(٢) إِلَى أَنَّهَا اليَمَامَةُ أو هَجَر(٣) فَإِذَا هِيَ المَدِينَةُ يَثْرِب** » وَإِنَّمَا قَالَ «يَثْرِب» ؛ لأنَّ ذلك كان قبل أن يسميها «طيبة» ، ومن حديث صهيب : رفعه : « **أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُم سبْخَةً بَيْنَ ظَهْرَانَي حَرَّتَين فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ هَجَر أَوْ يَثْرِب**»(٤) .

ويعلم من هذا أن «الله» تعالى أطلعَ رسوله (ﷺ) على دار الهجرة ، وأراه إياها فى الرؤيا ، وفى هذا إشارة إلى منزلة الهجرة والمهاجرين ، ومكانة المدينة المنورة وفضلها عند «الله» تعالى . .

---

(١) الإسراء : ٨٠ . (٢) وهل : أى ظنى .

(٣) هَجَر : بفتح الهاء والجيم بلد معروف من البحرين .

(٤) رواه البيهقى .

حَدِيثُ الهجْرَةِ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ

قال الإمام البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا يحيى بن بُكير قال حدثنا اللَّيث عن عُقيل ، قال ابن شهاب : فأخبرنى عروة بن الزبير (رضى الله عنه) ، أن عائشة (رضى الله عنها) زوج النبى (ﷺ) قالت : لم أعقل أبوىَّ قطُّ إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه الرسول (ﷺ) طَرَفى النهار بكرةً وعشيةً[1] ، فلما ابتُلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْكَ[2] الغِماد فلقيه ابن الدَّغِنَة وهو سيد القارة[3] ، فقال : أين تُريدُ يَا أَبَا بَكر ؟ فقال أبو بكر : أَخرَجَنِي قَومِي ، فَأُرِيدُ أن أسيحَ فى الأرضِ وَأعبُدَ ربِّى ، قال ابن الدغنه : فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرُجُ ولا يُخرَجُ إنك : تكسِبُ المعدُومَ ، وتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَحمِلُ الكلَّ ، وتَقرِى الضَّيفَ ، وتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الحقِّ ، فأنا لَكَ جَارٌ ، ارجع واعبُد رَبَّكَ بِبَلَدِكَ .. فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يَخرُج مثله ولا يُخرَج ، أتخرجُونَ رجلاً يكسِبُ المعدومَ ، ويَصلُ الرَّحِمَ ، ويَحمِلُ الكلَّ ويَقرى الضَّيفَ ويُعِينُ عَلَى نوائِبِ الحقِّ ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدَّغنة : مُرْ أبا بكر فَلْيَعبُد رَبَّه فى دَارِهِ ، فَلْيُصَلِّ فيها ، وَلْيقرَأْ مَا شَاءَ وَلاَ يُؤذِينا بذلك ولا يَستَعْلِنُ به ، فإنَّا نَخشَى أن يَفتِنَ نِسَاءَنا وَأبنَاءَنَا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ، ولا يَستَعْلِن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره ، ثم بدا لأبى بكر فابتنى

---

(١) رواه البخارى .

(٢) بَرْك : بفتح الباء وسكون الراء والغماد بكسر الغين : هو موضع على بعد خمس ليالٍ من مكة إلى جهة اليمن .

(٣) القارة : هى قبيلة مشهورة بضرب سهم النبل فى قوة الرمى .

مسجدا بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فيتقذّف[١] عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكّاء[٢] ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنّه ، فقدم عليهم فقالوا : إنّا كنا أجَرْنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانْهَهُ فإن أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أَبى إلا أن يُعلن بذلك فَسَلْهُ أن يرد عليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرَك[٣] ولَسْنَا مقرّين لأبى بكر الاستعلان .. قالت عائشة : فأتى ابن الدّغنة إلى أبى بكر ، فقال : قد علمتَ الذى عاقدتُ لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرجع إلىَّ ذِمَّتِى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنّى أُخفرتُ فى رجل عقدتُ له . فقال أبو بكر : فإنى أردّ إليك جِوارك وأرضى بجوار «الله» عز وجل ، والنبى (ﷺ) يومئذ بمكة .

فقال النبى (ﷺ) للمسلمين : « إنّى أُريتُ دَارَ هِجرَتِكُم ذاتَ نَخْلٍ بين لأبَتَينِ وهُمَا الحرَّتانِ»[٤] فهاجر من هاجر قِبَلَ المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهّز أبو بكر قِبَلَ المدينة .

فقال له رسول الله (ﷺ) : «عَلَى رِسلِكَ[٥] ؛ فإنِّى أَرْجو أن يُؤْذَنَ لى» ، فقال أبو بكر : وَهَل تَرجُو ذَلِكَ بِأَبِى أَنتَ ؟ قال : «نَعَم» ، فحبس

---

(١) يتقذف : أى يزدحم من القذف وهو التدافع والسقوط ، وفى رواية : تتقصف : أى يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر .

(٢) بكّاء : أى كثير البكاء .

(٣) نخفرك : أى نغدر بك .

(٤) الحرّة : أرض حجارتها سود .

(٥) على رِسْلك : أى على مهلك .

أبو بكر نفسه على رسول الله (ﷺ) ليصحبه ، علف راحلتين كانتا عنده وَرَقَ السَّمر وهو الخَبَطُ(١) أربعة أشهر .

قال ابن شهاب : قال عروة : قالت عائشة : فبينما نحن يوما جُلُوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة ، قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله (ﷺ) مُتَقَنِّعًا(٢) فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر : فِدًا لَهُ أَبِى وَأُمِّى ، و «اللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِى هَذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ أَمْرٌ » ، قالت : فجاء رسول الله (ﷺ) ، فاستأذن ، فأذن له فدخل ، فقال النبى (ﷺ) لأبى بكر : «أَخْرِجْ مَنْ عِندَكَ» ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك - بأبى أنت يا رسول الله - ، قال (ﷺ) : «فَإِنِّى قَدْ أُذِنَ لِى فِى الخُرُوجِ» ، فقال أبو بكر : بِأَبِى أَنتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قال رسول الله (ﷺ) : «نَعَم» ، قال أبو بكر . فَخُذ - بِأَبِى أَنتَ يَا رَسُولَ اللهِ - إِحدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ ، قال رسول الله (ﷺ) : «بِالثَّمَنِ» . قالت عائشة : فجهزناهما أحثَّ(٣) الجهاز ، وصنعنا لهم سُفْرَة(٤) فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها(٥) فربطت به على فم الجراب - فبذلك سميت ذات النطاقين - وفى رواية ذات النطاقين .

قالت : ثم لحق رسول الله (ﷺ) وأبو بكر بغار فى جبل ثَوْر، فكمنا فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما فى الغار عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثَقِف(٦) لَقِن(٧) فيدلج(٨) من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمرا يكتادان به حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام

---

(١) يقال عن «السمر» شجرة أم الغيلان وقيل : كل ماله ظل ثخين وقيل : ورق الطلح ، والخبط : هو ما يخبط بالعصا ليسقط من ورق الشجر .

(٢) متقنعا : أى مغطيا رأسه . (٣) أحث : أسرع .

(٤) أى زاد وأصلها فى اللغة : الزاد الذى يجهز للمسافر ثم استعمل فى الوعاء الذى يحمل فيه .

(٥) النطاق : ما يشد به الوسط .

(٦) ثقف : أى حاذق . (٧) لقن : سريع الفهم . (٨) يدلج : يخرج بسحر .

ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر مِنْحَةً من غنم فَيُريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رِسْلٍ[١] وهو لبن مِنْحَتهما ورَضِيفهما[٢] حتى يَنْعِقَ[٣] بها عامر بن فُهيرة بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ، واستأجر رسول الله (ﷺ) وأبو بكر رجلا من بني الديل وهو من بني عَبْد بن عدىّ هاديا خرِّيتا[٤] بالهداية قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمِناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غارَ ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبحَ ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرَة والدليل فأخذ بهم طريق الساحل[٥] أ.هـ.

---

(١) الرِّسل : اللبن الطرى . (٢) رضيف : وهو اللبن المرضوف يوضع فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار ونزول رخاوته .
(٣) ينعق : يصيح . (٤) الخريت : الماهر . (٥) رواه البخارى فى صحيحه .

فــى الـغـــار

خرج رسول الله (ﷺ) وأبو بكر إلى غار ثور ، ويقع جنوب مكة حوالى خمسة كيلو مترات ، وأدرك كفار قريش أنه فر من مكة ، فأعلن عن جائزة ثمينة قدرها مائة ناقة لمن يأتى به حيًّا أو ميتًا ، وتسابق الشبان من المشركين ، وألقت قريش بأقوى فتيانها بحثًا فى الطريق من مكة إلى المدينة . كلٌّ يحاول الظفر بالجائزة ، حتى وصل بعضهم إلى الغار ، وأصبحوا بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأى الرسول (ﷺ) وصاحبه أبا بكر (رضى الله عنه) .

ولكن العناية الإلهية قامت بدورها الخارق للعادة ، وظهرت من المعجزات فى هذه الآونة ما يجعل العقل البشرى يسجد أمام عظمة الخالق البارئ سبحانه وتعالى .. ولقد ضربت العنكبوت على باب الغار ، ونسجت خيوطها وأقامت عُشَّها ، فلما وصلوا إليه . قال بعضهم : إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد ، فانصرفوا قال ابن سعد فى طبقاته الكبرى : أخبرنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عون بن عمرو القيسى أخو رياح القيسى ، حدثنا أبو مصعب المكى قال : أدركت زيد بن أرقم وأنس بن مالك والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدثون أن النبى (ﷺ) ليلة الغار ، أمر «الله» شجرة فنبتت فى وجهه فسترته ، وأمر «الله» العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته ، وأمر «الله» حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار ، وأقبل فتيان قريش ، من كل بطن رجلٌ ؛ بأسيافهم وعصيهم وهراواتهم حتى إذا كانوا من النبى (ﷺ) قدر أربعين ذراعا نظر أولهم فرأى الحمامتين فرجع ، فقال له أصحابه : مالك لم تنظر فى الغار ، قال : رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد ، قال : فسمع النبى (ﷺ) قوله فعرف أن «الله» قد درأ عنه بهما ،

وكانت لأبى بكر منيحة غنم يرعاها عامر بن فهيرة ، وكان يأتيهم بها ليلا ، فيحتلبون ، فإذا كان سحر ، سرح مع الناس ، قالت عائشة : وجهزناهما أحثَّ الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به الجراب ، وقطعت أخرى فصيرته عصاما لفم القربة ، فلذلك سُمِّيت ذات النطاقين. (أ.هـ . طبقات ابن سعد) .

وهكذا مكث رسول الله (ﷺ) هو وصاحبه ثلاث ليال فى الغار ، كان يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر ، وخرج من الغار ليلة الإثنين ، لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول ، وقد صور العارف بالله الشيخ البوصيرى – رحمه الله – لقاء الغار بقوله :

فالصِّدقُ فِى الغَارِ والصِّدِّيقُ لم يَرِمَا[1]
وهـم يَقُولُـونَ : مَا بالغَـارِ مِـن أرِمِ[2]

ظَنُّوا الحَمَامَ وظَنُّوا العَنْكَبُوتَ علـى
خَيرِ البَرِيَّةِ لم تَنسِجْ ، وَلَـم تَحُـمِ

وِقَايَـةُ « الله » أغْـنَتْ عَـنْ مُضَاعَفَـةٍ
مِنَ الـدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُـمِ[3]

---

(١) بكسر الراء : أى لم يبرحا .
(٢) بفتح الهمزة وكسر الراء : يعنى أحد .
(٣) بضم الهمزة والطاء : هى الحصون .

فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْمَدِينَةِ

استأجر الصديق (رضى الله تعالى عنه) دليلا هو عبد الله بن أريقط ، ورغم أنه كان على دين الكفر إلا أنهما أمناه ، ومعهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وفى طريقهم مرُّوا بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت تقعد بفناء الخيمة ، تسقى الناس وتطعمهم ، فسألوا ليشتروا منها تمرًا أو لحمًا ، فلم يجدوا عندها شيئًا وقالت لهم : و «الله» لو كان عندنا شيء ما أعوزكما القرى ، فنظر رسول الله (ﷺ) إلى شاة فى كسر الخيمة ، فقال : «مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مِعبد؟» قالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : «هَل بِهَا مِن لبن ؟» .

قالت : هى أجهد من ذلك .

قال : «أَتَأْذَنِينَ لِي أَن أَحلِبَهَا ؟» .

قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى ، إن رأيت بها حلبًا ؛ فدعا رسول الله (ﷺ) بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر اسم «الله» ، وقال : «اللَّهُمَّ بَارِك لَهَا فِي شَاتِهَا» . وهنا ظهرت معجزاته (صلوات الله وسلامه عليه) ، فإذا بالضرع يمتلئ لبنًا ، ويدر الكثير ؛ فدعا بإناء لها يكفى الرهط فحلب فيه ، فسقاها فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب (ﷺ) آخرهم ، ثم حلب فيه ثانيا ، وغادره عندها ..

وقد أخذوا طريقهم بعد ذلك فى الرحلة ، ولما جاء زوجها أبو معبد ورأى اللبن عجب ، وقال : من أين لكم هذا والشاة عازبة ولا حلوبة فى البيت ؟

قالت : لا و «الله» ، إلا أنه مَرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، قال : و «الله» إنى لأراه صاحب قريش الذى يطلب ..

صِفِيهِ لى يا أم معبد .

قالت : رأيتُ رجلاً ظاهرَ الوضاءَةِ مُتبلِّجَ الوجهِ حَسَنَ الخلقِ ... وظلت تصفه إلى أن قالت : فَهُوَ أنضرُ الثلاثةِ مَنظَرًا ، وَأَحْسَنُهم قدرًا ، له رُفَقاءُ يحفُّون به ، إذا قال استمعوا لقولِهِ ؛ وإن أمرَ تبادَرُوا إلى أمرِهِ ..

قال : هذا و «الله» صاحب قريش الذى ذُكِرَ لنا من أمره ما ذُكر ؛ ولو كنت وافقته يا أم معبد لالتمست أن أصحبه ، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلا ، وأصبح صوت بمكة عاليا بين السماء والأرض يسمعونه ولا يرون صاحبه ، ينادى قائلا :

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ
رَفِيقَيْنِ حَلاَّ خَيْمَتَىْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلا بِالبِرِّ وَارْتَحَلاَ بِهِ
فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
فَيَالقصَىَّ مَا زَوَى «اللهُ» عَنْكُمُ
بِهِ مِنْ فِعَالٍ لا يُجَازَى وَسُؤْدُدِ
سَلُوا أُخْتَكُم عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا
فَإِنَّكُمُ إن تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ
لَهُ بِصَرِيحٍ ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ
فَغَادَرَهُ رَهْنًا لَدَيْهَا لحالِبِ
تُدِرُّ بِهَا فِى مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

وقد أجاب حسان بن ثابت على هذا بقوله :

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيُّهم
وقُدِّسَ مَنْ يَسْرِى إليهم ويَغْتَدِى

تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَزَالَتْ عُقُولُهم
وحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ

وهَلْ يَسْتَوِى ضُلَّالُ قَوْمٍ تَسَكَّعُوا
عَمًى وهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ

نَبِىٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ
وَيَتْلُو كِتَابَ الله فِى كُلِّ مَشْهَدِ

فَإِنْ قَالَ فِى يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ
فَتَصْدِيقُهَا فِى ضَحْوَةِ اليَوْمِ أَوْ غَدِ

لِيَهْنَ أبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ
بِصُحْبَتِهِ ، مَنْ يُسْعِدِ «الله» يَسْعَدِ

ويَهْنِ بَنِى كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِم
وَمَقْعَدُهَا للمُسْلِمِينَ بِمَرْصَدِ

وهذا الموقف مع أم معبد يعطينا صورة واضحة لما كانت عليه هذه الرحلة من عناية وتوفيق ، كما يوضح لنا أن الرعاية الإلهية قد حرست خطى الرسول (ﷺ) فى حله وترحاله ، وأن تلك المعجزة التى جرى اللبن بها على يديه ، إنما تدل على أن الخير قد انهمر من لا شىء ، وعن قريب سينهمر بصورة أكبر ، وينتشر النور بصورة أوسع ، وتعم الهداية كل الناس ، وتتحول الجهالة إلى علم والضلالة إلى هدى ، ويجىء نصر «الله» والفتح ويدخل الناس فى دين «الله» أفواجًا .

وها هم أولاء فى رحلتهم المباركة يعرض لهم سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له ، فدعا عليه رسول الله (ﷺ) : فساخت فرسه فقال : يا هذان ادعوا لى «الله» ولكما ألاّ أعود ، فدعوا «الله» ، فعاد فساخت ، فقال : ادعوا لى «الله» ألاّ أعود ، قال : عرض عليهما الزاد ، فقالا : «اكفنا نفسك» ، فقال : قد كفيتكماها ..

وهذه معجزة أخرى ، تردُّ كلَّ من قصد الرسول (ﷺ) بِشَرٍّ ، وتحبط كيد أعدائه ، وترد كل فتيانهم المتسابقين على الشر ؛ تردهم بالخزى والعار ، فلا يستطيعون أن يلحقوا به فى رحلته وهجرته .

وقد تجلّى وفاء أبى بكر للرسول (ﷺ) وحرصه على سلامته إذ كان يسبق الرسولَ (ﷺ) فى الدخول إلى الغار ليطمئن على سلامته من الهوام والحشرات . ثم ينادى رسولَ الله (ﷺ) بعد ذلك ، كما كان يدفعه أيضا أثناء المسير ، حيث يسبقه مرة ويلحقه أخرى ، وعندما سأله رسول الله (ﷺ) عن ذلك قال :

يا رسولَ الله أذكر الترصُّد فأسبقك ، وأذكر الطلب فأتبعك .

موقف سراقة بن مالك فى يوم الهجرة

قال الإمام البخارى : حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبى إسحاق قال : سمعت البراء رضى الله عنه قال : لما أقبل النبى (ﷺ) إلى المدينة تبعه سراقة بن مالك بن جعشم فدعا عليه النبى (ﷺ) فساخت[1] به فرسه . قال : ادع الله لى ولا أضرك ، فدعا له قال : فعطش رسول الله (ﷺ) فمر براع قال أبو بكر : فأخذت قدحا فحلبت فيه كثبة[2] من لبن فأتيته فشرب حتى رضيت رواه البخارى .

وقصة سراقة يوم الهجرة كما رواها الإمام البخارى قال : قال ابن شهاب : وأخبرنى عبد الرحمن بن مالك المدلجى وهو ابن أخى سراقة بن مالك ابن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله (ﷺ) وأبى بكر دية كل واحد منهما من قتله أو أسره ، فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : يا سراقة إنى قد رأيت آنفا أسودة[3] بالساحل أراها محمدا وأصحابه قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا[4] ، ثم لبثت فى المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء أكمة[5] ، فتحبسها على ، وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت[6] بزجه[7] الأرض ، وخفضت عاليه[8] ، حتى أتيت فرسى فركبتها فرفعتها[9] تقرب بى[10] حتى دنوت منهم ، فعثرت بى فرسى

---

(١) ساخت : أى غاصت .
(٢) كثبة : الكثبة كل قليل جمعته من لبن أو غيره .
(٣) الأسودة : الأشخاص .
(٤) أى فى نظرنا معاينة يبتغون ضالة لهم .
(٥) الأكمة : الرابية المرتفعة .
(٦ ، ٧) خططت بزجه : أمسكت أسفله والزج الحديدة فى أسفل الرمح .
(٨) أى أمسكه بيده وجرّه على الأرض .
(٩) أسرعت بها السير .
(١٠) السير دون العدو وفوق العادة .

فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدى إلى كنانتى[١] فاستخرجت منها الأزلام[٢] فاستقسمت بها : أضرهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره ، فركبت فرسى وعصيت الأزلام تقرب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله (ﷺ) ، وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ، ثم زجرتها ، فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثَانٌ[٣] ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم ، ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله (ﷺ) ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى[٤] ولم يسألانى إلا أن قال : «أخف عنا» ، فسألته أن يكتب لى كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم ، ثم مضى رسول الله (ﷺ) .

قال ابن شهاب : فأخبرنى عروة بن الزبير أن رسول الله (ﷺ) لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله (ﷺ) وأبا بكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله (ﷺ) من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم[٥] من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله (ﷺ) وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يا معشر

---

(١) الكنانة : جعبة صغيرة من جلد يحمل فيها النبل والسهام .

(٢) الأزلام : هى سهام لاريش عليها كان أهل الجاهلية يستقسمون بها .

(٣) عُثان : دخان . (٤) لم يرزآنى : أى لم يصيبا شيئا من زاده ومتاعه .

(٥) الأُطم : الحصن .

العرب هذا جدكم[1] الذى تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله (ﷺ) بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، لقد أعدت قريش دية كل واحد من رسول الله (ﷺ) وأبى بكر مائة من الإبل وقد نهض سراقة لهذا الأمر وتبع الركب حتى كان على مقربة منهم ، غاصت يدا فرسه و..ر عنها ، وتكرر ذلك حتى أيقن سراقة أن سيظهر أمر رسول الله (ﷺ) وسينصره «الله» تعالى ، فناداه سراقة بالأمان ، وفى بعض الروايات أنه قال : قد علمت يا محمد أن هذا عملك فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه والله لأعمين عليك مَنْ ورائى أى الطلب ، بل إنه عرض عليهم الزاد والمتاع فأخبروه : لا حاجة لنا فى ذلك ، ثم سأل سراقة رسول الله (ﷺ) أن يكتب له كتاب أمن ، فأمر عامر بن بهيرة فكتب فى رقعة من أدم ثم ألقاه إليه فأخذه سراقة فجعله فى كنانته ثم رجع ، ومرت الأعوام حتى فرغ من حنين بعد فتح مكة خرج سراقة ليلقى رسول الله (ﷺ) ومعه الكتاب فلقيه بالجعرانة حتى دنا منه فرفع يده بالكتاب فقال : يارسول الله هذا كتابك فقال : «يوم وفاء إذن فأسلم» وقيل أنه أسلم يوم الفتح وفى قصة سراقة مع النبى (ﷺ) قال سراقة مخاطبا أبا جهل :

أبا حكم والله لو كنت شاهدا .. لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأنّ محمدا .. رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

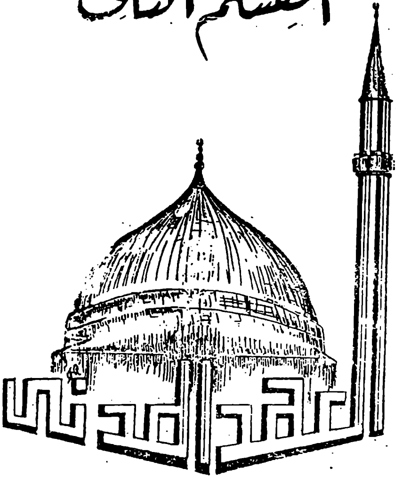
وقال ابن عيينة عن إسرائيل أبى موسى عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك : «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟» قال فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه ، فقال له : ارفع

(١) اى حظكم وصاحب دولتكم.

يديك ، وقل الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابى ، وقد مات سراقة فى خلافة عثمان سنة أربع وعشرين ، وقيل : بعد عثمان .

إن موقف سراقة ليدلنا على أن «الله» تعالى يحرس الحق ، ويرعى الدعوة ويحيط رسوله (ﷺ) وأتباعه بالعناية الربانية ، وأن الباطل مهما قويت شوكته فهو إلى زوال وإلى نهاية .. وأن «الله» تعالى قد أيد رسوله عليه الصلاة والسلام بالمعجزات الكثيرة الواضحة التى شاهدها أعداؤه ، وعاينها بعض من كان يحاربه ويقاومه فحين أيقن بها لم يسعه إلا الإيمان «بالله» ورسوله (ﷺ) .

القسم الثاني



استقبال أهل المدينة للرسول (ﷺ)

لقد أخذت الرحلة ثمانية أيام ، وانتظر أهلُ المدينة رسولَ الله (ﷺ) فى لهفة وشوق ، ولما مرت الفترة اللازمة للرحلة ولم يصل بعد ازدادت لهفتهم ، وصاروا يصعدون الأماكن العالية وينظرون إلى بعيد ، حتى طال بهم الانتظار فرجعوا إلى بيوتهم ، فإذا رجل من اليهود يصيح على أطم بأعلى صوته : يا بنى قيلة هذا صاحبكم قد جاء ، فخرجوا ، فإذا رسول الله (ﷺ) وأصحابه الثلاثة ، وإذا الفرحة تسود الجميع ، وتصعد ذوات الخدور إلى أعلى المنازل ، وتنساب الغبطة من كل القلوب عازفة أحلى الأناشيد وأرقها .

وكان رسول الله (ﷺ) ، قد نزل من قبل فى قباء عند عمرو بن عوف ، ومكث بها أربعة أيام ، أسس فيها مسجد قباء الذى وصفه « الله » بقوله :

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾(1)

وفى قباء لحق على بن أبى طالب (رضى الله عنه) برسول الله (ﷺ) بعد أن قام برد الودائع إلى أهلها ، ودخل المدينة فى الموكب النبوى الشريف ، وخرج رسول الله (ﷺ) من قباء يوم الجمعة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى وهى أول جمعة أداها (ﷺ) بالمدينة . ومر الموكب النبوى ، وكلما مر على دار من دور الأنصار دعوه للنزول عندهم ، وأخذوا بزمام ناقته ، فيقول لهم : « دَعُوهَا فإنَّها مَأْمُورَةٌ » وظلت الناقة سائرة حتى بركت أمام دار أبى أيوب الأنصارى وفى محلات

---

(1) التوبة : ١٠٨ .

أخواله بنى النجار ، فقال رسول الله (ﷺ) : « هَهُنَا المنزلُ إن شَاءَ الله» وتلا قوله تعالى .

﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]

فحمل أبو أيوب رحل رسول الله (ﷺ) ووضعه فى بيته ، وكان المكان الذى نزل فيه لسهل وسهيل ابنَى عمرو ، وهما يتيمان ، فاتخذ منه الرسول (ﷺ) مسجدًا بعد دفع العوض لصاحبيه .

(١) المؤمنون : ٢٩ .

المَسجدُ النَّبوىّ

وصل الرسول (ﷺ) إلى المدينة ابتاع المكان الذى بركت فيه ناقته ، كان مربدًا للتمر يملكه الغلامان (سهل وسهيل) فاشتراه وأبى أن يقبله هبة ، وأمر أن تُسوَّى ما فيه من حفر ، ويُقطَعَ ما به من نخل وأُصْلِحَت أرضه ، وبدأ فى بناء المسجد من اللبن – الطوب الأخضر – وجانبا الباب من الحجارة ، وسقفه من الجريد ، وأعمدته من جذوع النخل ، وكان ارتفاعه لا يزيد عن قامة الإنسان إلا اليسير ، واشترك معهم الرسول (ﷺ) فى البناء ، تقوية للروح المعنوية ، وبيانا لمنزلة المساجد ، وقيمة العمل وشرفه وكانوا يروِّحون عن أنفسهم عناء العمل بترديد بعض الشعر قائلين :

اللّهم لاَ عَيشَ إلاَّ عَيْش الآخِرَة
فَارحَمِ الأنصَارَ وَالمهاجِرَة

ويرتجز بعضهم الشعر فى حماس حين يرى الرسول (ﷺ) يأبى أن يتميز على واحد منهم ، ويقوم بالعمل كواحد منهم يقول بعضهم :

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبىُّ يَعْمَلُ
لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ المضَلِّلُ

وكان المسجد أنئذٍ مرتكز الصلة الكبرى ، الصلة بين الخلق وخالقهم ففيه تؤدى الصلاة ويؤذن بالتوحيد ، والصلة بين الأفراد والجماعات ، ومنه تنبثق مبادىء الصبر والمرحمة ، والأخلاق الرشيدة ، وكان المسجد بجانب ذلك ملتقى لجميع المسلمين ، تتم فيه مجالس الشورى ، والفصل فى القضايا وشئون التجارة ، وما إلى ذلك ، وقد جاء فى فضل المسجد النبوى أحاديث منها : ما روى فى الصحيحين عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (ﷺ)

قال : « لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إلى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِى هَذَا وَالْمسجد الحَرَامُ وَمَسْجِد بَيْتِ المَقْدِس » ، كما روى أيضا : « صَلاَةٌ فِي مَسْجدى هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ إلاَّ المَسْجد الحَرَام » وقوله (ﷺ) : « مَا بَيْنَ بَيْتِى وَمِنْبَرِى رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ ، وَمِنْبَرِى عَلَى حَوضِى » .

رواه مسلم

المـؤاخـــاة

أما الخطوة التالية بعد ذلك فهى المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض وبينهم وبين الأنصار ، فالمهاجرون تركوا أوطانهم وديارهم وأموالهم مقبلين على عقيدتهم ، مهاجرين فى سبيل «الله» ورسوله ، والأنصار تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ، ولقد أحس الأنصار بحاجة إخوانهم المهاجرين فآثروهم وآووهم ، وفضلوهم على أنفسهم ، مهما كانت حاجتهم ووصلت هذه المؤاخاة درجة أصبحوا بها يتوارثون بعد الممات ، إلى أن قال تعالى :

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾(١) ..

فرجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه . وقد أظهر الأنصار من ضروب السماحة والإخاء مع إخوانهم ما جعلهم أهلا لوصف القرآن لهم :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(٢) ..

حتى لَيُروَى أن سعد بن الربيع وهو من الأنصار وقد آخى الرسول (ﷺ) بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ، كان أن شاطره ماله ، فأبى عبد الرحمن وسأل عن السوق وراح يشتغل بالتجارة فى سوق المدينة حتى نما ماله ، وهكذا رفض عبد الرحمن أن يعيش عالة على غيره ، وأبى إلا أن يأكل من عمل يده ، تمجيدا لشرف العمل ، وتقديرا لكرامة المسلم ، وهكذا ربط الرسول (ﷺ) بين المهاجرين والأنصار حتى أصبحت كل أسرة مرتبطة بأسر

(١) الأنفال : ٧٥ . (٢) الحشر : ٩ .

كثيرة بسبب هذه المؤاخاة ، ونسى الجميع كل الصلات الأخرى إلا هذه الصلة الجديدة حيث أصبحوا بنعمة «الله» إخوانا ، فلم يعد يظهر تعدد القبائل ، وما له من آثار الفرقة والاختلاف ، وإنما أصبح مجتمع للدينة مسلمين وغير مسلمين مجتمعا واحدًا . ولم يبق أمام الرسول (ﷺ) إلا خطوة واحدة ، فيها تتحقق الوحدة الوطنية ، ويتم التحالف بين جميع سكان المدينة من المسلمين وغيرهم ، ويعطى لهم أروع الأمثلة ، وأنبل الدروس فى سماحة الإسلام وسمو مبادئه ، حتى يبصر أتباع الأديان الأخرى نور الدين الإسلامى ورحمته بالإنسانية كلها على أساس من حرية العقيدة ، فكانت المعاهدة التى أبرمها (ﷺ) بين المسلمين وغيرهم .

المُعَاهَدَة

أصبح سكان المدينة بعد الهجرة ، والمؤاخاة يمثلون ثلاثة أنواع :

١ - المسلمون .

٢ - اليهود من بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع .

٣ - العرب الذين لم يعتنقوا الإسلام .

فأراد رسول الله (ﷺ) أن يوحد بينهم جميعا ، ويربط بين القلوب حتى تسود روح الإسلام وسماحته فعقد هذه المعاهدة وقامت بها أسمى المبادىء الإنسانية التى تكفل حقوق الناس جميعا ، من حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرمة المدينة ، ومحاربة الظلم والعدوان .. ومما عالجته هذه المعاهدة من مبادىء أن من حق الجماعة معاقبة المفسد ، وأن يتعاون سكان المدينة ، ويردوا أى عدوان يوجه إليهم ، وأن الرئاسة العامة تكون للرسول (ﷺ) ، كما نصت على جميع الحقوق السياسة والاقتصادية والاجتماعية ، التى تقوم على أساسها دعائم المجتمع الإسلامى الجديد ، تقوم السياسية فيه على الشورى ، كما قال تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[1] ..

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2] ..

ودعائم اقتصادية تقضى بالتعاون الاقتصادى التام كما جاء فى الحديث : « مَا آمَنَ بِى مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُه جَائِعٌ إلى جَنْبِهِ وهو يَعْلَمُ به»[3] .

ودعائم اجتماعية تسود فيها المساواة بين الناس ، فلا فضل إلا بالتقوى .

(١) آل عمران : ١٥٩ . (٢) الشورى : ٣٨ . (٣) رواه البزار والطبرانى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾[1]

فكان ذلك نواة للدولة الإسلامية الكبرى التى ستكون خير أمة أخرجت للناس .

(١) الحجرات : ١٣ .

دُرُوسٌ مِنَ الهِجرَة

وقد أفاءت الهجرة النبوية على المحيط الإسلامى دروسا كريمة كان لها أكبر الأثر فى توجيه الحياة إلى الرشد والسداد ولما كان للهجرة أثرها الجليل فقد اتخذت مبدأ للتاريخ فقد كتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر (رضى الله عنهما) : تأتِينَا مِنكَ كُتُبٌ لَيسَ لها تَاريخٌ ، فجمع عمر (رضى الله عنه) الناس فقال بعضهم : **أَرِّخْ بِالْمَبْعث** ، وقال بعضهم : **أَرِّخْ بالهجرة** ، فقال عمر : **الهِجْرَةُ فَرَّقَتْ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ فَأَرِّخُوا بِهَا** .. وابتدأ التاريخ منها بالمحرم ، لأنه الشهر الذى ابتدأ فيه العزم والتصميم على الهجرة بعد البيعة وذلك فى المحرم .

إذًا فإن سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) لم يقطع بالرأى من اتخاذ الهجرة مبدأ للتاريخ إلا بعد المشاورة وأخذ الآراء ، حتى قيل أن البعض أشار أن يكتب بتاريخ الروم فقيل : **إِنَّ الرُّومَ يَطُولُ تَارِيخُهم يَكتُبونَ مِن ذِى القَرنَينِ** ، وأشار البعض بتاريخ فارس فقيل : **إِنَّ فَارِسَ كُلَّمَا قَامَ مِلِكٌ طَبَعَ مَن كَانَ قَبلَهُ** ، فاجتمع الرأى كما سبق على الهجرة .. ومعلوم أن للتاريخ أهمية عظيمة فبه تعرف مواليد الرواة ووفياتهم ، وبه يمكن الوقوف على صدق الرواة وعدمه ومعرفة الأعمار وما إلى ذلك من الفوائد . ولنمر سريعا على بقية دروس الهجرة المباركة ففيها تبصرة وعبرة لأولى الأبصار ، ولقد كان من أهم الدروس التربوية ; الفدائية ، والتضحية التى قام بها أعظم نفر مثلوا أروع نماذج المجتمع الإسلامى فى جهاده وفدائه وهؤلاء هم :

١ - أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) الذى مثل رجولة الرجل والصديق .

٢ - على بن أبى طالب (رضى الله عنه) الذى ضرب مثلا بشبابه ظل أسوة على مر العصور لجميع الشباب .

٣ - أسماء بنت أبى بكر (رضى الله عنها) التى قامت بدور المرأة المسلمة ، وأدت واجب التضحية على أعظم ما يكون .

٤ - عبد الله بن أبى بكر (رضى الله عنه) الذى قام بدور الاستطلاع ، فجمع أخبار الأعداء وهى مهمة من أخطر ما يكون : إنها (المخابرات) فى أشرف قصد وأسمى غاية «لله» ولرسوله .

٥ - عامر بن فهيرة (رضى الله عنه) مولى أبى بكر الذى مثل الجندية الإسلامية فى أسمى معانيها وأدق صورها ، حيث قام بتوفير الأمان ، فرعى غنم الصديق ليروح إلى الغار فى الليل ليأخذا حاجتهما منها ، وليعفى بالغنم آثار المشى إلى الغار فيضل عنهما الأعداء .

ومن دروس الهجرة كذلك الثقة بـ «الله» وصدق الإيمان به ، وما له من أثر فى حياة المسلم يجعله لا يخشى إلا «الله» كما قال (ﷺ) لأبى بكر حين قال له : لَوْ نَظَرَ أحدُهُم إلى مَوضِعِ قَدَمِيهِ لَرَآنا قال : «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا ، لاَ تَحْزَنْ إنَّ الله مَعَنَا » وكذلك كان من تعاليم الهجرة بيان ثمرة الصبر ، وأن مع العسر يسرا ، وفضيلة الأنصار وإيثارهم لإخوانهم من المهاجرين نتيجة مؤاخاة الرسول (ﷺ) بينهم فأثمرت هذه المؤاخاة معانى إسلامية رائعة وكونت مجتمعا مؤمنا يشرق بمكارم الأخلاق .

—

فى الهجرة نصر وفتح

ولقد وضح «الله» تعالى أنه مع رسوله (ﷺ) بالنصر والتأييد إن لم ينصروه فسينصره « الله » الذى نصره من قبل فى وقت أشد من هذا وذلك عندما تسبب الذين كفروا فى خروجه فأذن «الله» تعالى له حين هموا بإخراجه وائتمروا عليه وقرروا أن يتخلصوا منه فأطلعه « الله » على مؤامرتهم وأوحى إليه بالخروج هو وأبو بكر الصديق دون جيش أو سلاح ، وكان القوم على أثرهما ، وأبو بكر يخشى على رسول الله (ﷺ) ويقول : **لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لأبصرنا** .. وقد أنزل «الله» سكينة على قلب رسوله (ﷺ) فقال : **«يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن .. إن الله معنا»** فكان النصر المؤزر بجنود من عند «الله» تعالى لم يرها الناس وكانت الهزيمة للكافرين بالذلة والصغار ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة «الله» عالية منتصرة قوية (والله عزيز) يعز أولياءه فلا يذلون (حكيم) يقدر النصر فى جنبه **وأيده بجنود لم يرها أعداؤه من الكفار** وهم الملائكة يوم بدر والأحزاب وحنين وقيل هم الملائكة أنزلهم «الله» ليحرسوه فى الغار لذا كان حديث القرآن عن الهجرة حديث النصر :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾(١) .

وإن حادث الهجرة النبوية لمن أروع الأحداث الشاهقة فى تاريخ الإسلام فقد انتصرت به أمة وفتحت له دنيا ، وتواكبت على مساره أجيال ولكن حفت

---

(١) التوبة : ٤٠ .

به مخاطر مهولة وتلاحقت عبر أيامه ظلمات جامدة فقد كانت بوارق الأمل شرق فوق صحراء الزمن وتنبثق بين صخور الظلام رافعة شعارها الأخضر : لا تحزن إنَّ «الله» مَعَنَا . ولقد عاشت الدعوة الإسلامية فترة ما قبل الهجره على أشواك من الحياة الجافة تحيط بها ضلالة الوثنية الرعناء وجهالة الشرك العنيد ، وانطلقت من هذه الظلمات المتراكمة عداوات وإحن ، أخذت طريقها فى مطاردة الدعوة والداعية ، ومحاولة الإجهاز عليهما فى وقت واحد ، واتخذت قريش كل ألوان الأذى والعنت لتصرف الناس عن هذه الدعوة وتطفىء نورها بينهم ، وذاق المستضعفون من هذا الاضطهاد ما ذاقوا إلا أنهم كانوا يستعذبون العذاب فى سبيل «الله» وكلهم يقين وثقة أن ليل التآمر والغدر لابد أن يسفر عن نصر قريب فكان المؤمنون متمثلين قول ربهم سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[1] ..

ولقد بث الرسول (ﷺ) فى أصحابه روح الإيمان ، والصبر فى الأزمات يقول خباب بن الأرت : شكونا إلى الرسول (ﷺ) وهو متوسِّد برده فى ظل الكعبة فقلنا له : أَلاَ تَستَنصِرُ لَنَا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُم يُحفَرُ لَهُ فِى الأَرْضِ فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَ «الله» لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مَنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوت لاَ يَخَافُ إلا «الله» عَزَّ وَجَلَّ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكنكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» .

---

(١) البقرة : ٢١٤ .

هذا والهجرة فى مفهومها الصحيح لم تكن فرارا ضعيفا من مطاردة المشركين لتختفى الدعوة وأصحابها عن تلك العيون المحدقة ، وإنما كانت انتقالا ببذور الدعوة إلى تربة صالحة يخرج نباتها بإذن ربه ، واتجاها إلى مناخ ملائم تترعرع فيه لتؤتى أكلها كل حين .

والحرب النفسية والمادية التى شنها أعداء الإسلام على الدعوة لم يكن القصد منها القضاء فقط على الداعية والمؤمنين التابعين له ، وإنما كان أهم ما يعنيهم يومها أن تنتصر الوثنية وجندها ، وتنهزم هذه الدعوة الجديدة فلا يبرق لها شعاع بين أنحاء البلاد ، ولكنهم لم يستطيعوا إطفاء نورها ، لأن « الله » سبحانه يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وفى مكرهم ومؤامراتهم لم يصلوا إلى شىء ، لأن رب الدعوة حارس لها ، ومؤيد رسوله :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾(١) ..

لذا كان تمسك أصحاب الرسول (ﷺ) بدعوتهم وتغلغلها فى دمائهم وأرواحهم انتصارا للدعوة ، مهما بالغ الأعداء فى التنكيل بهم .

وإن أمثلة الإيمان والشجاعة التى ضربها أمثال بلال وآل ياسر وغيرهم كانت أنماطا صادقة الرؤى لانتصار الدعوة لدى هؤلاء المؤمنين المخلصين - ولو انتهى بهم الأمر إلى القتل أو الموت خلال تمسكهم بدينهم وهجرتهم بدعوتهم ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾(٢) .

---

(١) الأنفال : ٣٠ . (٢) الحج : ٥٨ .

هذا وقد تحدث القرآن عن الهجرة حديث الانتصار قال تعالى :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[1] .

وقد أثمرت المؤاخاة التى أبرمها رسول الله (ﷺ) فكونت أسمى لأعظم مجتمع مثالى تألقت فيه معانى الحب والإخاء ، وأشرقت بين جنباته بطولة العقيدة التى حققت النصر فى الغزوات وتحقق على يديها الفتح المبين .

---

(١) التوبة : ٤٠ .

لا هجرة بعد الفتح

ولنختم حديثنا عن الهجرة بهذا الحديث الشريف : عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن النبى (ﷺ) قال يوم الفتح : « لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِن جِهَادٌ وَنِيةٌ ، وإذا اسْتُنْفِرتُمْ فانفِرُوا »(١) .

كانت الهجرة فى مبدأ أمر الإسلام فرضا على من أسلم ، لأن عدد المسلمين بالمدينة قليل ، ولأن الحاجة إلى اجتماعهم وتوحدهم ضرورية لتقوية جانبهم ، وكانت نصرا وأمنا لهم ، حتى يسلموا من أذى قومهم من الكفار حيث كانوا يذيقونهم العذاب ويستغلون ضعف قوتهم فى محاولة إرجاعهم عن الدين ، ونزل فيهم قول « الله » تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾(٢) ..

وبعد أن فتح «الله» تعالى على رسوله (ﷺ) مكة المكرمة التى أخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا «الله» ، وجاء نصر «الله» والفتح ودخل الناس فى دين «الله» أفواجا حينئذ سقط فرض الهجرة ، وبقى فرض الجهاد فى سبيل «الله» والنية المخلصة ، إذا دهم العدو البلاد .

وقد بقى من أنواع الهجرة : هجرة من أسلم فى دار الكفر واستطاع أن يخرج مهاجرا بعقيدته وعبادته .

فالمفارقة إنما تكون بسببين : الأول : الجهاد . والثانى : النيَّةُ الصَّالحةُ ، كالفرار من دار الكفر والخروج فى طلب العلم ، والفرار بالدين من الفتن مما لم يستطع الإنسان تحصيله بالجهاد والنية الصالحة ، ثم وجه الرسول (ﷺ) المسلمين إلى وجوب الاستنفار فى سبيل « الله » ، إذا طلب ذلك أولو الأمر « وإذا استنفرتم فانفروا » سواء كان ذلك للجهاد أو نحوه من الأعمال الصالحة .

---

(١) رواه مسلم . (٢) النساء . ٩٧ .

أول ظعينة قدمت المدينة المنورة

للرعيل الأول مواقف إيمانية لا نظير لها فى تاريخ البشر فهى تحمل مثلا عالياً لدنيا الناس ، وتضىء بمشاعلها كل الدروب أمام قافلة الحياة .

وترى كل الأجيال : كيف صنع الإيمان هؤلاء الرجال ..

وإن حادث الهجرة النبوية من أهم الحوادث الإسلامية المشهورة .. والمذكورة على كل الألسنة وعبر عصور التاريخ .

بيد أن من بين صفحات الهجرة . سطوراً مشرقة بإيمان أصحابها الذين ضحوا بكل نفيس وغال فى سبيل عقيدتهم ، وحبا فى «الله» وفى رسوله (ﷺ) ..

وتلك السطور جديرة بالوقوف عندها ، وبتأمل ما احتوته من عبر ودروس . فمنذ أعلن رسول الله (ﷺ) الهجرة إلى المدينة المنورة ، وأصدر الإذن لأصحابه ، منذ ذلك الحين وشوق المسلمين جارف إلى طيبة المباركة .. والقلوب النقية التى عمرها الإيمان ترتعش فرحة وغبطة وحبورا ، وتحركها عقيدتها إلى هذا الموطن الحبيب الذى احتضن الدعوة ، ورحب بها ، وكان مناخا خصبا آتى ثماره بإذن «الله» .

لقد بايع من قبل أهلها رسولهم (ﷺ) ، وفتحوا لدعوته قلوبهم . قبل دورهم وعند قدومه لهم استقبلوه على شوق .. استقبال الظمآن للماء البارد وهتفوا بترحابه وبحُبِّه . جميعا شيـ ـبانا .. ورجالا ونساء . وأصبحت المدينة مهرجانا من الفرحة والبشر والنور والهدى .

ولا حصر لتعداد ما هو معروف من حبهم وإيثارهم الذى كان مضرب الأمثال ، وأخوّتهم التى كانت من أقوى الروابط فى الوجود ، ولكن حسبنا

أن نقف مع مشهد واحد فقط من المشاهد الأولى للهجرة . لنرقب عن كثب ونشاهد كيف كان تسابق المسلمين على الهجرة . وكيف ضحّوا بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ووطنهم وكل عزيز عليهم فى سبيل « الله » ورسوله ، فإن فى الوقوف على ذلك عبرا للمسلمين ودروسا تطلعنا على ما صنعه الإيمان .

ولم تكن الهجرة مع ما فيها من المخاطر المهولة وتجشم الصعاب وفراق الوطن والولد والأهل والمال لم تكن مقصورة على الرجال فحسب .. وإنما كان للنساء المسلمات دورهن العظيم فيها . لقد كان أول المهاجرين أبو سلمة .. وكانت معه زوجه أم سلمة .. وهى أول من خرج مهاجرا من النساء ، ولولا أن أهلها منعوها لكانت أول من وصلت المدينة فهى كما قال موسى بن عقبة أول ظعينة . والظعينة هى المرأة تركب البعير .

وقال ابن عبد البر : أول ظعينة ، قدمت المدينة هى ليلى بنت أبى حثمة زوج عامر بن ربيعة حليف بنى عدى بن كعب . وإنما بنى ابن عبد البر رأيه هذا على أساس أن ليلى أول من وصلت المدينة من النساء ، وأما موسى بن عقبة فرأى أن أول ظعينة هى أم سلمة لأنها أول مهاجرة خرجت من النساء . فماذا كان من نبأ السيدة أم سلمة (رضى الله عنها) فى حادث الهجرة ؟!

لقد كان زوجها أبو سلمة أول مهاجر . إنه هاجر قبل بيعة العقبة الثانية بعام . فقد كان الإذن بالهجرة عقب بيعة العقبة الأولى . فعندما عاد من الحبشة إلى مكة لقى ما لقى من أذى أهلها وبلغه خبر الذين أسلموا من الأنصار وعلم إذن الرسول (ﷺ) لأصحابه فأسرع بتلبية الأمر وكان أول مهاجر إلى المدينة . والتسابق على الاستجابة لما رآه رسول الله (ﷺ) كان شأن الصحابة الأجلاء (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) .

وحاشا «لله» أن يكون ذلك فرارا أو خوفا من الأذى ؛ فقد أدرك الرعيل

الأول مكانة الهجرة .. وما انبثق عنها من إخاء دينى فاق أخوة النسب ، ولهذا كان الميراث آنذاك قائما على أساس الهجرة وأخوة الدين ووشيجه . ولم يكن على أساس قرابة النسب إلا بعد ذلك حيث أصبح للمسلمين قوة ودار ومنعة وتكاملت دولة الإسلام فى المدينة .. قال « الله » تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾[1] .

ولنعد إلى نبأ أم سلمة وزوجها ، لقد خرج أبو سلمة بزوجه ومعهما (سلمة) ابنهما . وخرج أبو سلمة بهما مهاجرين يقود بهما بعيره .. فلما رآه رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهم عشيرة زوجه وابنة عمه أم سلمة . لما رأوه قاموا إليه ، فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد . فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوا منه زوجه .

وعندئذ غضب بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة .. فقالوا : لا و «الله» لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا سلمة ابنها بينهم حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسها بنو المغيرة عندهم . وانطلق زوجها أبو سلمة إلى المدينة .

ولنا هنا وقفة . لقد فرّقوا بينها وبين فلذة كبدها وزوجها ومع هذا فهى مُصِرَّة على الهجرة ، والزوج هاجر بالفعل تاركا زوجه وولده وما ذلك إلا صنع الإيمان وبتحريك العقيدة الإسلامية فتجاهها يرخص كل غال .

---

(٢) الأنفال : ٧٢ .

كما أنهم يعلمون أن الهجرة فرض – حينئذ – وإنها لباقية كذلك حيث كانت أسبابها ، وأما الهجرة التى انتهت بالفتح فى قوله (ﷺ) : « لاَ هِجرَةَ بعدَ الفتحِ وِلكِن جِهَادٌ وَنِيَّةٌ» فالمقصود بها الهجرة إلى النبى (ﷺ) . قال «الله» تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

ولقد كانت السيدة أم سلمة تخرج كل غداة فتجلس بالأبطح تبكى حتى مر عام على حالها وإلى أن مر بها رجل من بنى عمها أحد بنى المغيرة فقال لقومه : ألا تُخرِجُونَ هذِهِ المسكِينةَ . فرَّقْتُم بينها وبينَ زوجِهَا وبينَ ولَدِهَا .. قالت : فقالوا لى : إلحقى بزوجِكِ إن شِئتِ ، قالت : وردَّ بنو عبد الأسد إلىَّ – عند ذلك – ابنى .. وارتحلت بعيرها ، وخرجت بابنها إلى المدينة .. وتكمل السيدة الكريمة نبأها فتقول : وما معى أحد من خلق «الله» فقلت أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى حتى كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار فقال لى : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : وما معك أحد ؟ فقلت : لا و «الله» إلا «الله» وابنى هذا . قال : وَ «الله» مالك من مترك ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معى يهوى بى ، فوَ «الله» ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ثم استأخر عنى . حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحط عنه . ثم قيده فى الشجرة ثم تنحى عنى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ثم استأخر

(١) النساء : ٩٧ .

عني وقال : اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى نزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى ، حتى أقدمنى للدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك فى هذه القرية – وكان أبو سلمة بها نازلا – فادخليها على بركة «الله» ، ثم انصرف راجعا إلى مكة فكانت تقول : و «الله» ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة . وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

ولنا وقفة هامة عند مقالة السيدة أم سلمة (رضى الله تعالى عنها) فقالت : فقد أصاب آل أبى سلمة ما أصابهم فى أنفسهم وولدهم ، ومع هذا فقد كان حب الله ورسوله مقدما على أعز ما فى الوجود فبرغم ما أصيبوا به لم يثنهم ذلك عن الهجرة واللحاق برسول الله (ﷺ) والانضام إلى المعسكر الجديد للدعوة الإسلامية للمشاركة فى نصرة العقيدة ونشر الإسلام وتكوين المجتمع .

أما موقف عثمان بن طلحة . رغم أنه كان كافرا آنئذ فهو موقف يدل على أصالة المعدن العربى ، وما جبل عليه العرب من المروءة الصادقة ، ونجدة المستنجد حتى ولو كان على غير دينه .

لقد كان عثمان هنا يوم أن سار بأم سلمة كافرا ، وإنما دخل الإسلام فى هدنة الحديبية ، وقتل عمه عثمان بن أبى طلحة يوم أحد . وكانت معه مفاتيح الكعبة فأعطاها الرسول عليه الصلاة السلام – يوم الفتح – إلى عثمان بن طلحة ابن أبى طلحة وإلى عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة وهو جد بنى شيبة حجبة البيت ، واستشهد عثمان بأجنادين فى أول خلافة عمر (رضى الله عنه) .

ومن مواقف الهجرة المباركة تنبثق دروس الأخوة الإسلامية والتناصر والإيثار والمروءة والنجدة ودروس أخرى فى التضحية والبذل والفداء ودروس

غيرها فى نصرة المستضعفين من المسلمين وهى تحمل المؤشر القوى لنا فى نصرنا الراهن لنصرة الأقليات الإسلامية ، وإنقاذها ، والوقوف بجانبها . وفى أحكام القرآن لابن العربى يقول : إذا كان فى المسلمين أُسَرَاءُ أو مستضعفون فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة بالبدن بأن لا تبقى منا عين تطرف حتى نخرج إلى استنقاذهم إذا كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا فى استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك (أ . هـ)

هكذا تُفىء علينا دروس الهجرة ومواقفها من العبر ما يضىء الطريق أمام المجتمع الإسلامى والأمة الإسلامية إلى ما فيه صلاح البلاد والعباد .

مشروعية الجهاد فى سبيل «الله»

ظل الرسول (ﷺ) ، والمسلمون فى العهد المكى ثلاثة عشر عاما صابرين لا يعتدون ولا يقابلون حرب المشركين لهم بحرب ، بل كانوا يستجيبون لأمر «الله» تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1] .

ولطالما شكا المسلمون للرسول (ﷺ) ما يلاقونه من أعدائهم ، فيجيبهم قائلا : «اصْبِرُوا ؛ فإنى لم أُومَر بِقِتَال» وظل الحال على ذلك حتى تمت الهجرة من مكة إلى المدينة ، وأصبح المسلمون فى منعة وقوة فأذن «الله» تعالى لهم بالجهاد فى أوائل السنة الثانية للهجرة . ولم يشرع فى السنة الأولى للهجرة لأن المسلمين كانوا يقومون بتكوين دولتهم الجديدة ، وتنظيم أحوالهم ، وبناء المسجد النبوى ، والمؤاخاة ، وما كان فى السنة الأولى إلا بعض سرايا كان الهدف منها إرغام المشركين على التفكير فى تغيير سياستهم ونظرتهم تجاه المسلمين حيث كانوا يستضعفون المسلمين ، فكانت هذه السرايا وما فيها من دلالة القوة تدعو بلسان الحال إلى إفساح الطريق أمام الدعوة الإسلامية لتأخذ طريقها إلى قلوب الناس وكان أول ما نزل من القرآن على أرجح الآراء — فى مشروعية الجهاد — قول «الله» تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن
يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ

---

(١) النحل : ١٢٧ .

صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ »(١) .

ومر الجهاد بأطوار متدرجة فكان فى أول الأمر مقصورا على قتال الذين قاتلوا المسلمين وعذبوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق :

« وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ »(٢)

ثم كان الطور الثانى حيث حالفت بعض القبائل قريشا بعد الهجرة وحاولوا مهاجمة المدينة ، بل إن البعض هاجمها بالفعل كما صنع كرز بن جابر الفهرى الذى أغار على سرح المدينة فخرج إليه المسلمون فى غزوة بدر الأولى فلم يدركوه ، ومنهم من تحرش بالمسلمين فبادر الرسول (ﷺ) بالرد عليهم وكان يرسل السرايا لعقابهم ، وكان لرده عليهم أكبر الأثر فى اطلاعهم على الإسلام وتعرفهم على سماحته فدخل الكثير منهم الإسلام .

ثم كان طور آخر حيث تمالأ المشركون فى مكة وخارجها على المسلمين فكان الأمر الإلهى فى القرآن الكريم :

« وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً »(٣)..

ثم إن الرسول (ﷺ) لما كان قد عاهد اليهود وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ولكنهم نقضوا العهد وانضموا مع المشركين بل حرضوهم على القتال كما فى

---

(١) الحج : ٣٩ - ٤١ . (٢) البقرة : ١٩٠ . (٣) التوبة : ٣٦ .

غزوة أحد ، لما حدث منهم ذلك أمر «الله» رسوله عليه الصلاة والسلام بقتالهم :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1] .

ثم لما تم فتح مكة وراسل الرسول (ﷺ) الملوك والأمراء وأصبحت دعوة الإسلام معروفة ، وتحفزت الروم لغزو بلاد المسلمين ، عندئذ جمع الرسول (ﷺ) الجموع وخرج إليهم فلم يجد أحدا ، ولكنه أراهم قوة الإسلام ، ومنذ ذلك الحين انتقل الجهاد إلى خارج الجزيرة ، وحدثت وقائع كبيرة بعد أن لحق الرسول (ﷺ) بالرفيق الأعلى ، وتمت الفتوحات الإسلامية الكبيرة بفضل « الله » ونصره وتأييده للمسلمين .

(١) الأنفال : ٥٨ .

أنواع الجهاد

والجهاد أربعة أنواع : جهاد الكفار ، وجهاد النفس والشيطان ، وجهاد البغاة الخارجين على الإمام ، وجهاد أهل البدع والأهواء الذين لم يخرجوا على الإمام .

● وأول هذه الأنواع قد تخلص فيه النية وتصدق فيه العزيمة فيسمو سموا إيمانيا صادقا يجمع الأنواع كلها وذلك : حين يجاهد فى سبيل «الله» بدافع عقيدته وهو حينئذ يكون قد جاهد نفسه وشيطانه ولم يخالف إمامهُ ولم يتبرم بأوامره ، وارتفع بنفسه عن مستوى جميع الأهواء والبدع .

وهذا النوع من الجهاد يكون باللسان وباليد وبالمال وبالقلب فالجهاد باللسان : يكون بإقامة الحجج ودفع الشبه ، يتصدى لذلك الراسخون فى العلم ، الواقفون على أسرار الشريعة ، العارفون بطرق الأدلة وأحوال الناس .

ولقد كان أروع وأعظم سلاح من هذا النوع يجده الرسول (ﷺ) فى القرآن الكريم فيجاهد بالقرآن جهادا كبيرا .

قال تعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢ ﴾(١) .

والجهاد باليد : وهو قتال الكفار وقد شرع فى السنة الثانية من الهجرة .

والجهاد بالمال : وهو بذله فى تجهيز الجيوش وإعداد السلاح ومداواة جرحى الحرب .

---

(١) الفرقان : ٥١ ، ٥٢ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(١) .

والجهاد بالقلب : وهو عدم الرضا عن كفرهم والسخط عليهم وذلك هو البغض فى «الله» ويجمع هذه الفروع كلها حديث الرسول (ﷺ) :

عن أنس (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) :
«جاهِدُوا المشركِينَ بأَمْوَالِكُمْ وأنفسِكُمْ وألْسِنَتِكُمْ»(٢) .

● والثانى من أنواع الجهاد : جهاد النفس والشيطان ، وهذا النوع من الجهاد يكون بمخالفة هوى النفس ودفع ما يوسوس به الشيطان - ويشمل جميع ما يصدر عن المكلف فعلا أو تركا مما يحتاج إلى مجاهدة النفس والشيطان .

وقد أمر «الله» سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يولوا الشيطان ظهورهم فلا يتبعوا خطواته لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر .

قال تعالى :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾(٣) .

● والثالث من أنواع الجهاد : جهاد البغاة الخارجين على الإمام الذين شقوا عصا الطاعة ، وخالفوا الجماعة .

---

(١) التوبة : ٦٠ . (٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى . (٣) النور : ٢١ .

يدل على فرضية قتال هؤلاء ما رواه عرفجة الأشجعى قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : «مَنْ أَتَاكُمْ وأَمْرُكُمْ جميعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُم أو يفرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوه»(١) .

● والرابع من أنواع الجهاد : جهاد أهل البدع والأهواء وهؤلاء وإن لم يخالفوا الإمام إلا أن بدعهم يتفاقم خطرها ، وأهواءهم يستشرى شرها فتجب مقاومتهم والأخذ على أيديهم .

وقد بيّن لنا الرسول (ﷺ) أن من رأى منكرا من هذا القبيل وجب عليه أن يقاومه ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأن يغيره بالقوة التى يملكها ، وبالأسلوب الذى يستطيعه .

قال عليه الصلاة والسلام :

«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه ، وذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»(٢) .

---

(١) رواه أحمد ومسلم . (٢) رواه مسلم .

حكمة مشروعية الجهاد

قال «الله» تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[1]..

وقد روى عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهرى ، وروى الحاكم فى المستدرك عن حبر القرآن ابن عباس : إنها أول ما نزل فى القتال .

هذا وقد تضمنت الآيات السابقة الحكمة من مشروعية الجهاد وهى تتلخص فى :

- **الانتصار للنفس ورفع الظلم عن المظلوم وقد عاش المسلمون طيلة العهد** المكى بالصبر والتسامح ، ولكن المشركين زادوا فى الظلم والاعتداء . فكان لابد من مقابلة القوة بمثلها .

---

(١) الحج : ٣٨ ، ٤١ .

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢ ﴾[1] ..

● وتمكين المسلمين من ممارسة أعمالهم الدينية ، والقيام بعباداتهم فى حرية تامة .

● وتمكين الدعوة الإسلامية لتأخذ مجراها للقلوب وطريقها فى الحياة كما جاء بذلك الوحى :

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[2] .

● وفى مشروعية الجهاد أمان النفوس ، وتمكين للدين ، وإطلاق لحريات الناس .. فالمسلمون يوم أن تكون لهم الغلبة فلا خوف على أهل الأديان الأخرى ، وأما لو كان الغلب لغيرهم ضاعت قيم الحياة وموازين الأديان قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ
صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ
عَزِيزٌ ۝٤٠ ﴾[3] .

---

(١) الشورى : ٤١ ، ٤٢ .
(٢) الأنعام : ١٩ .
(٣) الحج : ٤٠ .

حكم الجهاد

اتفق جمهور أهل العلم سلفا وخلفا على أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به من يكفى فى رد اعتداء المعتدين ، وظلم المظلومين سقط الطلب عن الباقين ، وإلا أثم الجميع ولا يرتفع الإثم إلا بخروج من فيهم الكفاية .

ثم يصير الجهاد فرض عين فى أحوال :

- إذا تقابل الفريقان فيجب على من حضر القتال ، ويحرم عليه الفرار ، بل إنه يكون من أكبر الكبائر .

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1] .

وقد جعل «الله» تعالى الفرار من العدو وتوليته الأدبار من أكبر الكبائر ، ولم يبح ذلك إلا متحرفا لقتال ، أو متحيزا إلى فئة .

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾[2] .

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله (ﷺ) قال :

«اجتنبوا السّبْعَ الموبِقَاتِ : قيل : وما هُنّ يا رسولَ الله ؟ قال : الشّرْكُ بالله ، والسّحر ، وقتْلُ النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الرّبا ، وأكل مالِ اليتيم ، والتّولّى يومَ الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» .

---

(١) الأنفال : ٤٥ . (٢) الأنفال : ١٥ ، ١٦ .

● إذا اعتدى الكفار على بلد من بلاد الإسلام وشنوا عليه هجوما . فالجهاد حينئذ واجب عينى على أهل هذا البلد جميعا كما يجب أيضا على إخوانهم المسلمين من البلاد الأخرى أن يزحفوا لمساعدتهم ، وأن يقوموا بمعاونتهم أداء لأخوة الإسلام .

وروى مسلم أن النبى (ﷺ) قال : «المسلمُ أخُو المسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ ولا يَخذُلُهُ» .

● وأيضا إذا أمر ولى الأمر أحدا بالقتال أصبح فرضا .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]

---

(١) التوبة : ٣٨ .

بالحِكْمةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ انتشرَ الإسْلامُ لا بالسَّيْفِ كمَا يَدَّعى المغرضُون

لقد رسم القرآن الكريم منهج الدعوة فى قول «الله» تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(١)

وفى العهد المكى مكث رسول الله (ﷺ) يدعو الناس إلى الإسلام فيدخل الناس فى الإسلام عن اقتناع ، لقد دخل الفقراء فى الإسلام كما دخل العبيد وليس لدى الرسول (ﷺ) من المال ما يغرى هؤلاء بل إنهم كانوا يواجهون الاضطهاد والإيذاء من المشركين فما زادهم ذلك إلا إيمانا وتثبيتا . لقد هاجر بعضهم الهجرتين إلى الحبشة ، وهاجر الجميع إلى المدينة ، وتركوا الأهل والوطن والمال اقتناعا بالإسلام وحبا «لله» ولرسوله .

ولم يكن فى هذه الفترة قد شرع الجهاد ، ولم يكن لدى الرسول (ﷺ) والمسلمين من المال أو القوة ما يغرى الناس أو يقهرهم على الدخول فى الإسلام .

ثم إنه لما شرع الجهاد ، شرع - كما سبق - للدفاع عن العقيدة وتمكينها فى الانتشار ، لرد الظلم الذى يقع على المسلمين .

بل إن الإسلام لم ينه عن البر بمن خالفنا فى الدين إذا لم يقاتلونا فى الدين ولم يخرجونا من ديارنا قال تعالى :

---

(١) النحل : ١٢٥ .

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1]

وقد قال « الله » تعالى فى كتابه العزيز :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾[2]

وقد روى فى سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه كان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ابنان متنصران قبل مبعث النبى (ﷺ) ، ثم قدما المدينة فى نفر من النصارى يحملون الزيت فلزمهما أبوهما وقال : لا أدعكما حتى تُسلِمَا ، فاختصموا إلى النبى (ﷺ) وقال : يارسولَ الله ، أيدخلُ بَعْضى النارَ وَأَنَا أَنظُرُ ؟! فأنزل «الله» تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾[3] ..

فخلى سبيلهما ، وقال «الله» تعالى :

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[4] ..

وقال جل شأنه :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾[5] .

---

(١) الممتحنة : ٨ ، ٩ . (٢) البقرة : ٢٥٦ . (٣) البقرة : ٢٥٦ .
(٤) يونس : ٩٩ . (٥) الكهف : ٢٩ .

وتشهد السنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف وإنما انتشر بسماحته وحكمته ..

روى الإمام مسلم فى صحيحه أن رسول الله (ﷺ) كان إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : «اغزُوا باسْمِ «الله» فى سبيلِ «الله» قاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بـ «الله» اغزُوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدرُوا ولا تُمثِّلُوا ، ولا تقتُلوا وَلِيدًا ، وإذا لقيتَ عَدُوَّكَ من المشركِينَ فادْعُهُمْ إلى ثلاثِ خِصال أو خِلال ، فأيتهُنَّ ما أجابُوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهُمْ ثم ادْعُهم إلى الإسلام فإن أجابُوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهُمْ فَإنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الجزية فإنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنهُمْ وكُفَّ عنهم ،إن هُمْ أَبَوْا فاسْتَعِنْ بـ «الله» وقَاتِلْهُمْ» والجزية ليست لإكراههم على الدخول فى الإسلام ولا نوعا من التشدد عليهم وإنما هى مقابل حماية المسلمين لهم وتقديم ما يحتاجون من خدمات ، وروى البلاذرى فى فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لواقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الجزية وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل - مع أنه على دينهم - عن المدينة . ومعاملة الرسول (ﷺ) عبر حياته كلها تتسم بروح التسامح والرأفة ، والدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالقوة والسيف ، وهذا نموذج يشهد بتسامح الإسلام ورسول الإسلام وهو موقف رسول الله (ﷺ) من سيد بنى حنيفة الذى أسره المسلمون فى إحدى السرايا وهو : ثمامة بن أثال الحنفى أسره المسلمون وهم لا يعرفونه فأتوا به إلى رسول الله (ﷺ) فعرفه وأكرمه وأبقاه عنده ثلاثة أيام وكان فى كل يوم يعرض عليه الإسلام عرضا كريما فيأبى ويقول : إن تسأل مالا تعطه وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن

تنعم تنعم على شاكر فما كان من النبى (ﷺ) إلا أن أطلق سراحه ، فأثرت هذه السماحة فى الرجل ، فذهب واغتسل ثم عاد إلى رسول الله (ﷺ) ودخل الإسلام عن اقتناع واختيار وقال له : يا محمد ، والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلىّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلىّ من دينك فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلىّ و « والله » ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك فقد أصبح أحب البلاد إلىّ وسُرّ الرسول (ﷺ) بإسلامه فقد أسلم بإسلامه كثير من قومه .

ومما لا شك فيه أن الذى يكره على شىء لا يثبت عليه وإنما يتخلص منه إذا وجد سبيلا إلى ذلك ، بل يكون عدوا له ولكننا عبر تاريخ الإسلام لم نجد أحدا ارتد سخطة عن دينه بعد أن يدخل فيه ، بل وجدنا المسلمين تعرضوا عبر تاريخهم إلى حروب وانقسامات لأقطارهم وتسلط أعدائهم عليهم ومع هذا فلم نجد أحدا منهم رجع عن دينه بل ثبتوا على الإسلام حتى فتح « الله » عليهم بركات من السماء والأرض وجاءهم نصر « الله » والفتح .

السـرايـا

السرايا جمع سرية ، والسرية هي الفرقة من الجيش التى لا يخرج معها الرسول (ﷺ) ، أما التى يكون الرسول (ﷺ) فيها فتسمى غزوة . وسميت السرية بهذا الاسم لأنها تسرى فى خفية دون ظهور .

وقد استهدفت تلك السرايا إشعار العالم عامة وإشعار أعداء الإسلام خاصة أن المسلمين فى قوة ومنعة ، وليسوا ضعفاء كما كانوا من قبل ، حتى لا تحدث المشركين أنفسهم بالاعتداء عليهم مرة أخرى .

كما أن فى تلك السرايا عقوبة لأعداء المسلمين وردًّا على ما صنعوه بالمسلمين من إخراجهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا «الله» ، وما أخذوه من أموالهم ظلما وعدوانا ، وكأن تلك السرايا كانت بمثابة الإنذار للمشركين إن هم حاولوا الاعتداء على المسلمين أو حاولوا الوقوف والتصدى للدعوة فإن عاقبتهم ستكون أليمة ، ولن يسكت المسلمون على حقهم .

● سرية حمزة :

كانت سرية حمزة بن عبد المطلب فى شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة ، فقد أرسله الرسول (ﷺ) فى ثلاثين راكبا ليعترضوا عيرا لقريش فيها أبو جهل فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى فأطاعوه ولم يحدث قتال .

● سرية عبيدة بن الحارث :

وكانت فى شهر شوال من السنة الأولى حيث أرسله النبى (ﷺ) فى ثمانين راكبا ليعترضوا عيرا لقريش فتلاقوا ببطن رابغ وكان على العير أبو سفيان ابن حرب فى مائتى رجل فتراموا بالنبال وخاف المشركون أن يكون

للمسلمين كمين فانهزموا وتفرقوا ولم يحدث قتال . وفى هذه السرية أطلق أول سهم فى الإسلام وكان الذى أطلقه عبيدة بن الحارث ، وقيل سعد ابن أبى وقاص .

• **سرية سعد بن أبى وقاص :**

وفى السنة الأولى كذلك فى آخر شهر شوال خرج سعد بن أبى وقاص فى عشرين رجلا ليعترضوا عيرا لقريش ، ولكن العير كانت قد مرت ولم يلقوا أحدا .

غزوة ودان أو الأبواء

هى أول غزوة غزاها الرسول (ﷺ) وكانت فى شهر صفر من السنة الثانية حيث خرج الرسول (ﷺ) وبعض أصحابه ليعترض عيرا لقريش ، واستخلف سعد بن عبادة على المدينة فلما بلغ ودان وجد العير قد فات فوادع النبى بنى ضمرة وحالفهم وهي أول معاهدة عقدها الرسول (ﷺ) مع غير يهود المدينة .

و (الأبواء وودان) مكانان متقاربان بينهما ستة أميال أو ثمانية ، والأبواء قرية من عمل الفرع بينها وبين الجحيفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلا .

غزوة بواط

و«بواط» بفتح الموحدة وقد تضم : جَبَل من جبال جهينة بقرب ينبع وقد اتجه رسول الله (ﷺ) يريد قريشا فى شهر ربيع الأول من السنة الثانية واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بواط فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى .

غـــزوة العشـــيرة

والعشيرة ببطن ينبع وخرج إليها فى جمادى الأولى يريد قريشا أيضا فوادع فيها بنى مدلج من كنانة ، واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد

وذكر الواقدى أن هذه السفرات الثلاث كان يخرج فيها ليلقى تجار قريش حين يمرون إلى الشام ذهابا وإيابا .

غـزوة بـدر الأولـى

عندما قدم الرسول (ﷺ) إلى المدينة من غزوة العشيرة مكث ليالى قلائل وإذا بكرز بن جابر الفهرى يغير على سرح المدينة فخرج رسول الله (ﷺ) فى طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ومضى كرز بن جابر دون أن يدركه ، ثم رجع الرسول (ﷺ) إلى المدينة .

سـرية عبد الله بن جحـش

كانت سرية عبد الله بن جحش فى شهر رجب من السنة الثانية ، أرسله رسول الله (ﷺ) فى اثنى عشر رجلا من المهاجرين وقيل ثمانية وقيل سبعة ، كل اثنين يعتقبان بعيرًا – أرسله إلى بطن نخلة وهو بستان ابن عامر قرب مكة . وأمره أن يرصد بها عير قريش ، وأعطاه كتابا وقال له : **«لا تَفْتَحْهُ إلا بعدَ يَوْمَين ، فإذا فتحته فامْضِ لما أمَرْتُكَ بِهِ ولا تَسْتَكْرِه أحَدًا مِنْ أصحابِكَ»** فلما سار بهم يومين فتحه فوجد فيه ما يأتى :

«إذا نظرت كتابى فامْضِ حتّى تَنْزِلَ نخلةَ بينَ مكَّةَ والطائف فترصد بها قُرَيْشًا وتعلم لنا من أخبارهم» فلما قرأ الكتاب قال : **سمعا وطاعة** ، وأخبر

أصحابه بما اشتمل عليه هذا الكتاب وقال : قد نهانى أنْ أستكْرِهَ أحدًا منكم ، فمَنْ كانَ يريدُ الشهادَةَ ، ويرغبُ فيها فلينطلق ، ومن كَرِهَ ذلكَ فَلْيَرْجِعْ ، فأمَّا أنا فماضٍ لأمرِ رسولِ الله (ﷺ) ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلفْ أحدٌ . وقد تجلت الحكمة الدقيقة فى عدم إخبار السرية بالهدف من إرسالهم قبل أن يغادروا المدينة حتى لا يتسرَّب الخبر إلى أحد المنافقين أو اليهود ، فينقل إلى قريش فترصدهم فى مكان بعيد وتنال منهم .

وكان البعير الذى يعتقبه سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان قد شرد منهما فتخلفًا فى طلبه ، وسار الركب حتى وصلوا نخلة فمرت بهم عير لقريش فيها عمرو بنْ الحضرمى ومعه ثلاثة ، فهاجمها عبد الله والذين معه ، وقتل فى هذه المعركة عمرو بن الحضرمى ، وأسر اثنان من المشركين ، وعاد عبد الله بالقافلة والأسيرين . وقدموا المدينة على رسول الله (ﷺ) .

فلما علم الرسول (ﷺ) أنهم قاتلوا فى رجب قال : « مَا أَمَرْتُكُم بِقِتَالٍ فِى الشهرِ الحَرَامِ » ، وأبى أن يأخذ شيئا ، وسقط فى أيدى القوم وعنفهم إخوانهم المسلمون ، وأخذ المشركون يطعنون فى المسلمين ويقولون : قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال .. وفى هذه الفترة نزل الوحى يرد عليهم افتراءهم ، ويؤيد تصرف عبد الله ، فقد سبق أن حارب المشركون الإسلام وصدوا عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وأخرجوا المسلمين من بلدهم وتآمروا على قتل الرسول (ﷺ) قال الله تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ

حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ
مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾[1] .

وعبد الله بن جحش هو أول من عقدت له الراية فى الإسلام ، وأمه هى عمة الرسول (ﷺ) أمية بنت عبد المطلب ، وقد كان من مهاجرة الحبشة ، وممن شهد بدرا ، وصاهر رسول الله (ﷺ) بأخته زينب بنت جحش ، قال الشعبى : أول لواء عقد فى الإسلام لواء عبد الله بن جحش وأول مغنم قسم فى الإسلام مغنم عبد الله بن جحش .

(١) البقرة : ٢١٧ ، ٢١٨ .

غـزوة بـدر الكـبرى

«بــدر» : هو موضع الغزوة المشهورة وهو عبارة عن ماء معروف ، وقرية عامرة على نحو أربع مراحل من المدينة بينها وبين مكة .

وقال ابن قتيبة : بدر : بئر كانت لرجل يسمى بدرا فسميت باسمه .

وقال بعض العلماء : كانت لرجل من بنى غفار ، وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان فى السنة الثانية للهجرة .

سبب الغزوة : لما علم الرسول (ﷺ) ، أن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام فى عير لقريش فيها تجارتهم وأموالهم ، دعا المسلمين للاقأتهم وقال : «هذه عِيرُ قريشٍ ، فاخْرُجُوا إليها لعلَّ الله أن ينفلكموها» فخف البعض وتثاقل البعض ظنا منهم أنه لا يريد حربا ، واستخلف النبى (ﷺ) عبد الله ابن أم مكتوم ليصلى بالناس فى المدينة .

ولم يكن تعرض المسلمين لعير قريش إلا جزاء ما صنع المشركون بهم من قبل فقد أخرجوهم من ديارهم وأبنائهم فى مكة ، واستولى المشركون على أموال المسلمين فى مكة وممتلكاتهم ، هذا بالإضافة إلى أن أموال الحربيين تعتبر غير محترمة فللمسلمين الاستيلاء عليها ... ومع هذا فقد شاءت الحكمة الإلهية أن تفلت العير ، لتكون المعركة ، والجهاد فى سبيل «الله» من أجل نشر الدعوة الإسلامية . وكان مع رسول الله (ﷺ) ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا منهم نيف وأربعون ومائتان من الأنصار والباقى من المهاجرين ولم يتخلف إلا عثمان بن عفان لمرض زوجته السيدة رقية بنت رسول الله (ﷺ) .

والذين تثاقلوا عن الخروج أول الأمر ما كانوا يتوقعون القتال ، لأنهم لم يكونوا على استعداد ، هذا هو السبب لا أنهم كرهوا لقاء قريش قال تعالى :

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥
يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ
وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾[1] ..

لقد كانوا فى بادىء الأمر يرغبون فى العير وهى المقصودة بقوله تعالى :

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ ﴾[2] ..

ولكن «الله» تعالى يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها شوكة وقتال لينصركم عليهم ويظهر دين الحق وترتفع راية الإسلام ، وهو أعلم بعواقب الأمور .

وهكذا شاءت إرادة «الله» تعالى أن تكون ذات الشوكة وهى المعركة والقتال .

ولكن المسلمين ما إن علموا الحقيقة إلا وسارعوا لتلبية النداء .. وكان مع رسول الله (ﷺ) والمسلمين سبعون بعيرا يعتقبونها ، كل ثلاثة يعتقبون على بعير ، عن عبد الله بن مسعود قال : **كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير** – أى يعتقبون – **وكان أبو لبابة وعلى بن أبى طالب زميلى رسول الله (ﷺ)** ، قال : فكانت عقبة رسول الله (ﷺ) ، فقالا له : **نحن نمشى عنك** ، فقال : **« ما أنتما بأقوى منى ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما »** رواه أحمد .

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا ، وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبو كبشة يعتقبون بعيرا .

---

(١) الأنفال : ٥ ، ٦ . (٢) الأنفال .

وسار الجيش الإسلامى خارج المدينة حتى وصل بيوت السقيا وعسكر هناك ، واستعرض رسول الله (ﷺ) الذين خرجوا معه ، فرد كل من لا قدرة له على الجهاد ، ومن هؤلاء الذين ردهم البراء بن عازب ، وعبد الله بن عمر ، عن البراء قال : « استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر وكان المهاجرون يوم بدر نيفا وستين والأنصار نيفا وأربعين ومائتين » رواه البخارى .

استشارة الرسول للمسلمين

يقول محمد بن إسحاق رحمه الله : لما سمع رسول الله (ﷺ) بأبي سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم ، وقال : «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها» ، فانتدب الناس ، فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله (ﷺ) يلقى حربا وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك .

فاستأجر (ضمضم بن عمرو الغفارى) فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قريشا ، فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة .

وخرج رسول الله (ﷺ) فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له : ذفران فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل ، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار رسول الله (ﷺ) الناس ، وأخبرهم عن قريش .

فقام أبو بكر (رضى الله عنه) فقال فأحسن ، ثم قام عمر (رضى الله عنه) فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال :

يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، و والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى (بَرْكِ الغِماد) - يعنى مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال رسول الله (ﷺ) خيرا ، ودعا له بخير ، ثم قال

رسول الله (ﷺ) « أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاس » وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله (ﷺ) يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم .

فلما قال رسول الله (ﷺ) ذلك قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال : أجل ، فقال : فقد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أمرك «الله» ، فو الذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل «الله» يريك ما تقر به عينك ، فسِرْ بنا على بركة «الله» ، فَسُرَّ رسول الله (ﷺ) بقول سعد ، ونشطه ذلك ثم قال : « سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ «الله» وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ «الله» قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ و «الله» لَكَأَنِّى الآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ » .

وقد كان تعداد جيش المشركين تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس وسبعمائة بعير يعتقبونها .

وقد كانت استشارة رسول الله (ﷺ) اختبارا لإيمانهم وقوة يقينهم وحبهم ، ومدى استعدادهم للجهاد فى سبيل «الله» والتضحية والفداء من أجل رفع راية التوحيد ..

وهكذا كانت حياته (ﷺ) تتسم بالشورى فى كل أمر لا نص فيه من كلام «الله» سبحانه وتعالى ، والأخذ بمبدأ الشورى هو تطبيق لأمر «الله» تعالى له فى قوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾(١) ..

ولهذا كان رسول الله (ﷺ) يشاور أصحابه فى الأمر إذا حدث ، تطيبيا لقلوبهم ، ففى هذه الغزوة شاورهم فى لقاء العدو ، وشاورهم فى مكان النزول كما سيأتى .

كما شاورهم فى غزوة أحد ، فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم ، وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فترك ذلك ، وشاورهم يوم الحديبية فى أن يميل على ذرارى المشركين فقال له الصديق (رضى الله عنه) : إنّا لم نجئ لقتال أحد ، وإنما جئنا معتمرين ، فأجابه إلى ما قال ، فكان (ﷺ) يشاورهم فى الحروب ونحوها .

وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) فى قول «الله» تعالى :

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾(٢) :

قال : نزلت فى أبى بكر وعمر وكانا حوارى رسول الله (ﷺ) ووزيريه وأبوى المسلمين .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) آل عمران : ١٥٩ .

وقد روى الإمام احمد عن عبد الرحمن بن غنم أن رسول الله (ﷺ) قال لأبي بكر وعمر : « لو اجْتَمَعتا فِي مَشُورَة مَا خَالَفْتُكُمَا » وروى ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : سئل رسول الله (ﷺ) عن العزم ؟ فقال : «مُشَاوَرَةُ أَهْلِ الرَّأْي ثُمَّ اتِّبَاعُهُم» . وقد قال ابن ماجة عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) قال : « المستشار مؤتمن » .

التعـرف علـى أخبـار قريـش

كان أبو سفيان قد أرسل إلى قريش فخرجت عن بكرة أبيها ، ونجا بالعير فأشار عليهم بالرجوع وقال : إنكم قد خرجتم تمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها «الله» فارجعوا.

ورأى كثير منهم ما رآه أبو سفيان من الرجوع ولكن أبا جهل أبى أن يرجعوا وقال : و «الله» لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليها ثلاثا ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا .

ولما كان المسلمون على مقربة من بدر ، ركب رسول الله (ﷺ) وصاحبه أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) وبلغا شيخا من العرب يقال له سفيان الضمرى فسأله الرسول (ﷺ) عن قريش وعن محمد وأصحابه فقال : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله (ﷺ) : «إذا أخبرتنا أخبرناك» فقال : أوذاك بذاك ؟ فقال : نعم قال الشيخ : فإنه بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى جمع به الرسول (ﷺ) ، وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذى أخبرنى صدقنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى به قريش فلما فرغ قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : «نحن من ماء» ثم انصرفا عنه فقال الشيخ : ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ، وكلمة (من ماء) من التورية تحتمل معنيين أحدهما قريب وهو المكان المعروف بهذا الاسم والآخر بعيد وهو الماء الذى خلق منه كل إنسان ، وذلك لأن الحرب خدعة .

ثم بعث رسول الله (ﷺ) بعد ذلك على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر إلى ماء بدر للتعرف على الأخبار فأصابوا إبلا لقريش لها يستسقى عليها غلامان فأتوا بهما ورسول الله (ﷺ) يصلى، فقالا: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان، فضربوهما فلما أوجعوهما قالا: نحن لأبى سفيان، فتركوهما، فلما فرغ رسول الله (ﷺ) من صلاته قال: «إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما صدقا و «الله» إنهما لقريش».

ثم قال لهما: «أخبرانى عَنْ قُرَيشٍ»، فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما: «كَم الْقَومُ ؟» قالا: كثير، قال: «مَا عُدَّتُهُم ؟» قالا: لا ندرى.

قال الرسول (ﷺ): «كَم يَنحَرُونَ كُلَّ يَومٍ ؟»

قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا.

فقال رسول الله (ﷺ): «القومُ مَا بينَ التسعمائةِ والألفِ».

فقال لهما: «فَمَنْ فِيهِم مِنْ أشْرَفِ قُرَيشٍ ؟».

فذكرا عتبة بن ربيعة، وشيبة، وأبا جهل، وأمية بن خلف وسهل بن عمرو وآخرين من صناديد قريش.

فأقبل رسول الله (ﷺ) إلى أصحابه قائلا: «هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُم أفلاذَ كَبِدِهَا».

نـزول المسلمين فـى بـدر

وقد مضى المسلمون فى طريقهم إلى أن وصلوا بعدوة الوادى الدنيا . وهو جانب الوادى القريب من المدينة ، بعيدًا عن الماء ، وكان نزولهم أيضا فى أرض سبخة لا تثبت عليها الأقدام وأصبح القوم وقد ظمئوا ، والبعض أحدث وأصبح الآخر جنبا ، وحاول الشيطان أن يوسوس لهم ويلقى الشك فى بعض النفوس قائلا : ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع الظمأ رقابكم ويذهب قواكم .

وهنا تجلت عناية «الله» سبحانه وتعالى ، حيث أبطل كيد الشيطان ، وتدارك سبحانه عباده المؤمنين فأرسل السماء عليهم مدرارا ، فشربوا وارتوى من كان ظمآن ، وتوضأ المحدث ، واغتسل الجنب ، وملأوا الأسقية ولبد المطر الأرض فثبتت عليها الأقدام .

وفى الوقت نفسه كان هذا المطر نقمة على المشركين حيث وحل الأرض تحت أقدامهم فما قدروا على الارتحال وفى هذا يقـول «الله» تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾[1] .

ولما نزل الرسول (ﷺ) هذا المكان قال الحُباب بن المنذر الخزرجى : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه «الله» ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال الرسول (ﷺ) : «بَلْ هُوَ الرَّأْىُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَة» .

---

(١) الأنفال : ١١ .

فقال : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغور ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله (ﷺ) : «لقد أشرتَ بالرأى» وأخذ (ﷺ) بمشورة الحباب .

كما أشار سعد بن معاذ الأوسى قائلا : يا نبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا «الله» وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك «الله» بهم ويناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه الرسول (ﷺ) خيرا وأخذ بمشورته وبنى له العريش .

ثم أخذ رسول الله (ﷺ) يطمئن أصحابه قائلا : «هذا مصرع فلان ومصرع فلان» - أى من المشركين - وهو يضع يده على الأرض ، فما تزحزح أحدهم عن موضع يده .

ليلة اللقاء

● وفى تلك الليلة - ليلة اليوم الذى سيلتقى فيه الجيشان - رأى رسول الله (ﷺ) المشركين قليلا عددهم ، كى يجرؤا عليهم ولا يهابوهم كما قال تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[1] ..

فأراه «الله» المشركين فى منامه قليلا ، وأخبر النبى (ﷺ) أصحابه بذلك فكان تثبيتا لهم ، ولو أراه إياهم كثيرا ربما اختلفوا فيما بينهم أو خافوا منهم .

كما شاءت إرادة الحكيم الخبير أن يقلل عدد المشركين فى أعين المسلمين ، ويقلل عدد المسلمين فى أعين المشركين ليتجرأ كل فريق فتكون المعركة وإذا أراد «الله» أمرا يسر له الأسباب قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾[2] ..

قال ابن مسعود (رضى الله عنه) : لقد قُلّلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل هم ١٠٠ ، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه فقال : كنا ألفا . وهكذا أغرى «الله» تعالى كل فريق بالآخر وقلله فى عينه ليطمع فيه لتكون المواجهة .

---

(١) الأنفال : ٤٣ . (٢) الأنفال : ٤٤ .

وأما عندما التحم الجيشان ، فقد أيد الله المؤمنين بجنود من الملائكة مردفين ، فكان الكفار ينظرون إلى المؤمنين فيرونهم مثليهم ، كما قال تعالى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾(١) .

---

(١) آل عمران : ١٣ .

فـى يـوم اللقـاء

فى صبيحة يوم اللقاء ، يوم التقى الجمعان صف رسول الله (ﷺ) جنود المسلمين للقتال صفوفا منتظمة كأنها البنيان المرصوص .

ولما رأى رسول الله (ﷺ) قريشا تنحدر من وراء الكثيب إلى الوادى قال : « اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ ، اللَّهُمَّ فَنَصْرَكَ الَّذِى وَعَدْتَنِى اللَّهُمَّ أَحِنْهُمُ الْغَدَاةَ » ، « وأحنهم » من الحين أى الهلاك .

ووقف الفريقان وجها لوجه ، وابتدأت المعركة بالمبارزة .

وبعد المبارزة ، وقف رسول الله (ﷺ) ينظم الصفوف ويعدلها بقضيب كان فى يده فمر بسواد بن غزية حليف بنى النجار ، وكان خارجا عن الصف فطعن فى بطنه بالقضيب وقال : اسْتَقِمْ يَا سَوَاد . فقال : يارسول الله ، أوجعتنى وقد بعثك «الله» بالحق والعدل فأقدنى - أى مكنّى لأقتص - فكشف له رسول الله (ﷺ) عن بطنه وقال : « اسْتَقِدْ يَا سَوَاد » فاعتنقه سواد ، وقبل بطنه ، فقال له الرسول (ﷺ) : «وَمَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ ؟» قال : يا رسول الله حضر ما ترى - أى موطن الاستشهاد فى سبيل «الله» - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له الرسول بخير وفى هذا الموقف الرائع من الدلائل العظيمة والنبيلة ما يدل على قمة العدل الذى لا نظير له فى الوجود من رسول الله (ﷺ) وهو يمكن سواد بن غزية ويقول له : استقد يا سواد كاشفا عن بطنه راضيا ، كما يدل على حب الرجل لرسول الله (ﷺ) ، وهو حب شديد برهن عليه حين أعلن أن أسمى أمانيه أن يفارق الحياة وقد حظى ببركة رسول الله (ﷺ) وبلمسة من جسده الشريف .

وفى يوم اللقاء هذا خرج رسول الله (ﷺ) يحرض القوم على القتال، ويبشرهم بجنات تجرى من تحتها الأنهار قائلا لهم:

«وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يُقَاتِلُهُمُ الْيَوم رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ إلاَّ أَدْخَلَهُ «الله» الجَنَّةَ، وَمَنْ قتلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُه وقال: قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَات وَالْأَرْض» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عمير بن الحمام قال: يارسول الله .. جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ بخ – وهى كلمة استحسان ورضا وحب – فقال له الرسول (ﷺ): «ما يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِ بَخٍ بَخٍ؟» قال: لا و«الله» يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها.

قال: «فإنك من أهلها» وكان مع عمير بن الحمام بعض تمرات فى يده يأكل منهن فقال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما بقى معه ثم قاتل وهو يقول:

رَكْضًا إلى «الله» بِغَيْرِ زَادِ ... إلا التُّقَى وَعَمَل المَعَـادِ
والصَّبْر فى «الله» عَلَى الْجِهَادِ ... وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَـةُ النَّفَـادِ
غَيْرَ التُّقَى وَالْبِرِّ وَالرَّشَادِ

وما زال يقاتل حتى قتل شهيدا.

وفيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه: قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): لما كان يوم بدر نظر رسول الله (ﷺ) إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبى الله (ﷺ) القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه:

«اللَّهُمَّ انْجِز لِى مَا وَعَدْتَنِى، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِى، اللَّهُمَّ إن تَهلكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لاَ تُعْبَد فِى الأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ

مادًا يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبى «الله» كفاك مُنَاشَدتكَ رَبَّك فإِنَّهُ سَيُنجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فأنزل «الله» عزَّ وجل :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ ﴾[1] ..

فأمده «الله» بالملائكة قال أبو زميل : فحدثنى ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم[2] فنظر إلى المشرك أمامه ، فخر مستلقيا فنظر إليهْ فإذا هو قد خطم أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط ، فاخضرَّ ذلك أجمع ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله (ﷺ) فقال : «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة» ، فقتلوا يومئذ سبعين ، وأسروا سبعين قال أبو زميل قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله (ﷺ) لأبى بكر وعمر : «مَا تَرونَ فى هؤلاءِ الأسارى ؟» فقال أبو بكر : يا نبى الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى «الله» أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله (ﷺ) : «مَا ترى يا ابن الخطاب ؟» قلت : لا والله يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تُمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكنى من فلان « نسيبا لعمر » فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوى رسول الله (ﷺ) ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله (ﷺ) وأبو بكر قاعدان يبكيان .

---

(١) الأنفال : ٩ .

(٢) حيزوم : اسم فرس الملك .

قلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شيء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟

فقال رسول الله (ﷺ) : «أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبى الله (ﷺ)[1] .

وأنزل «الله» عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾[2] ..

فأحل «الله» الغنيمة لهم .. وقد أسف الصحابة على هذا العتاب . وكفوا عن الانتفاع بالفداء حتى أنزل «الله» قوله :

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾[3] ..

وقال العلماء عن تلك المناشدة التى ناشد رسول الله (ﷺ) ربه وعن دعائه واستغاثته به قالوا : هذه المناشدة إنما فعلها النبى (ﷺ) ؛ ليراه أصحابه بتلك الحال ، فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرعه مع أن الدعاء عبادة ، وقد كان وعده «الله» تعالى إحدى الطائفتين إما العير وإما الجيش ، وكانت العير قد ذهبت وفاتت ، فكان على ثقة من حصول الأخرى ، ولكن سأل التعجيل وإنجازه من غير أذى يلحق المسلمين .

هذا ومما يجدر التنبيه إليه أن رسول الله (ﷺ) لم يكتف بالدعاء والتحريض

---

(١) رواه مسلم . (٢) الأنفال : ٦٧ - ٦٩ . (٣) الأنفال : ٦٩ .

والتوجيه ، وإنما شارك فى القتال عن على (رضى الله عنه) قال : **ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله (ﷺ) وهو أقربنا من العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا** .. رواه الإمام أحمد . وانتهت هذه الغزوة بنصر المؤمنين وهزيمة المشركين حيث قتل سبعون من صناديد قريش وأسر سبعون واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا .

وصدق «الله» حيث يقول :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ ٩ ﴾[1] ..

أى متابعين وكان نزولهم بشرى للمسلمين وتسكينا لقلوبهم وربطا عليها ، أما حقيقة النصر فليس من الملائكة ولا من قوتهم بل إنه من عند «الله» الغالب القاهر : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ١٠ ﴾[2] ..

ويرى أكثر العلماء أن نزول الملائكة كان للقتال وللبشرى والطمأنينة والتثبيت ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾[3] ..

ويرى البعض أنه للبشرى والطمأنينة لقوله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾[4] ..

---

(١) الأنفال : ٩ . (٢) الأنفال : ١٠ .
(٣) الأنفال : ١٢ . (٤) آل عمران : ١٢٦ .

والذى نرجحه هو أن البعض قد قاتل وأن أكبر الأعمال الحربية والقتالية كان للمسلمين ، وقد أراد «الله» تعالى أن يكون الهلاك بأيدى المؤمنين ليكون ذلك أنكى لقريش وأشفى لصدور المؤمنين قال تعالى :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾[1] ..

---

(١) التوبة : ١٤ – ١٥ .

من دروس غزوة بدر الكبرى

قد كان لهذه الغزوة الهامة التي تعتبر أول معركة التقى فيها المسلمون مع عدائهم من المشركين لقاء مسلحا - كان لها دروسها وعبرها .. من ذلك :

• أن الإيمان الصادق يصنع الرجال الشجعان الذين يضحون فى سبيل «الله» ومن أجل نصرة دينهم وعقيدتهم .

• أن النصر من عند «الله» العزيز الحكيم ؛ فلا يركن أحد إلى قوته فحسب ولا إلى عدته بل لابد مع إعداد العدة من توثيق الصلة بـ «الله» والدعاء والاستغاثة به .

ثم ما ينبغى على المسلمين من التمسك بدينهم والدفاع عنه ، وتوحيد صفوفهم تجاه أعدائهم ، واعتصامهم جميعا بدين «الله» كما قال جل شأنه :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾(١) ..

واستجابة المسلمين لدعوة رسولهم (ﷺ) حين دعاهم وحرضهم ، فهرعوا لندائه ، وآثروه على أعز ما فى حياتهم ولم يهملوا نداءه ولم يتأخروا لحظة فى تلبية دعوته .

• ومن دروس هذه الغزوة : جانب المثالية الذى اتسمت به ومن ذلك حسن معاملة الأسرى وهى سمة تعلمها المسلمون من قرآنهم الذى يقول :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾(٢) ..

وفى هذه الغزوة قال رسول الله (ﷺ) لأصحابه بعد أن وزع بينهم الأسرى ، وعند رجوعهم إلى المدينة قال : « اسْتَوصُوا بِهِم خَيْرًا » وقال أبو عزيز بن عمير وكان من أولئك الأسرى : « كنت فى رهط من الأنصار

(١) آل عمران : ١٠٣ .　(٢) الإنسان : ٨ .

حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز ، وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله (ﷺ) إياهم بنا ، فما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها فأستحى فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها ، ومن سماحة الإسلام التى هى إحدى العبر من هذه الغزوة : منع التمثيل بالقتلى ، ومنع تعذيب الجرحى ، بل إن رسول الله (ﷺ) أمر فى غزوة بدر بدفن جثث القتلى من المشركين فى القليب وهو بئر جاف ودفنهم فيه .

● ومن أبرز دروس هذه الغزوة : «الشورى» وما لها من أثر فى نجاح القصد والوصول إلى الغاية ، ومما لا شك فيه أن الشورى من سمات الإيمان ولذا ذكرها «الله» تعالى بين الصلاة والإنفاق لأهميتها فقال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1] .

وإذا استشار الإنسان أحدا من الناس فعلى المستشار أن يكون أمينا فى مشورته صادقا فى نصيحته ، وليعلم أن الشورى عندئذ أمانة فإن لم يشر بما هو نافع فقد خان الأمانة كما قال (ﷺ) :

« المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ » رواه ابن ماجه .

وعلى القيادة أن تستفيد بخبرة المتخصصين وأن تأخذ بمشورتهم ، كما صنع رسول الله (ﷺ) عندما نزل على رأى الحباب وغير موقع الجيش ، وقد كرم الرسول (ﷺ) الحباب صاحب هذه المشورة وقدر رأيه قائلا له : « أشرتَ بالرأى » .

(١) الشورى : ٣٨

غزوة بنى سُلَيْم «بالكُدْر»

وبعد غزوة بدر الكبرى ، غزا رسول الله (ﷺ) بنى سُليم واستعمل على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغفارى ، أو ابن أم مكتوم .

فبلغ ماء من مياههم ، يُقال له «الكُدر» فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا .. فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وأفدى فى إقامته تلك جلّ الأسارى من قريش . وكان السبب فى هذه الغزوة أن جموع بنى سُليم وعطفان تجمعوا يريدون مهاجمة المدينة ، وما إن علم الرسول (ﷺ) بما عزموا عليه إلا وخرج إليهم على رأس مائتين من المسلمين .

غـزْوَةُ السُّـوَيْقِ

سميت هذه الغزوة بهذا الاسم ، لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم وأطعمتهم هو السويق ، وهو طعام تحمص فيه الحنطة أو الشعير وتطحن وقد تخلط بالسمن واللبن والعسل وتعجن ، وقد تخلط بالماء ، إذا لم يوجد شيء من ذلك . وكان أبو سفيان قد بدأ العدوان فى غزوة السويق فى شهر ذى الحجة .. عندما رجع القوم المنهزمون من قريش من غزوة بدر الكبرى نذر أبو سفيان - حين رجع إلى مكة - ألا يمسَّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا (ﷺ) وهذا يدلنا على أن الغسل من الجنابة كان عندهم قبل الإسلام من بقايا دين إبراهيم عليه السلام كالحج والزواج .

لقد خرج أبو سفيان فى مائتى راكب من قريش فنزل على جبل يقال له «ثيب» من المدينة على بعد بريد ثم خرج ليلا حتى أتى بنى النضير فأتى حُيَىَ ابن أخطب فضرب على بابه ، فأبى أن يفتح له وخافه ، فانصرف إلى سلام ابن مِشْكم سيد بنى النضير ، فقام بضيافته وأعلمه من سرّ القوم ما أعلمه ، فخرج حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش إلى المدينة فحرقوا بعض النخيل وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفا له فى حرث لهما ثم انصرفوا راجعين ..

فخرج رسول الله (ﷺ) فى طلبهم ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر وهو أبو لبابة حتي بلغ قَرْقَرَة الكُدْر وهو موضع بينه وبين المدينة ثمانية برد .. ولكنه انصرف راجعا فقد فاته أبو سفيان وأصحابه .. وقد قال المسلمون حين رجع بهم رسول الله «ﷺ» : يارسول الله أنطمع لنا أن تكون غزوة ؟ قال : «نعم» .

غَزْوَةُ ذِى أَمَرَ وتسمّى : «غزوة غطفان»

وبعد عودة رسول الله (ﷺ) من غزوة «السويق» مكث فى المدينة بقية شهر ذى الحجة ، ثم غزا نجدا ، يريد غطفان واستعمل على المدينة عثمان بن عفان .. ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا ، فلبث بها شهر ربيع الأول كله .

وكان السبب فى هذه الغزوة أن بنى ثعلبة ومحارب وهما حيان من غط ان تجمعوا يريدون الإغارة على المدينة فخرج الرسول (ﷺ) فى خمسين وأربعمائة من أصحابه ، وساروا حتى بلغوا ماء يسمى (ذا أمر) فعسكروا فى هذا الموضع وأمطرت السماء وشغل المسلمون بأمورهم ورأى المشركون أن يأخذوا الرسول (ﷺ) على غرّة فبعثوا رجلا يسمى (دعثورا) ويقال هو غورث بن الحارث ليقتل النبى (ﷺ) ، فلما رآه النبي (ﷺ) واقفا على رأسه بالسيف وقال : **مَنْ يمنعك منى يامحمد ؟** قال النبى (ﷺ) : **«الله»** فرعب الرجل وسقط السيف من يده ، فتناوله الرسول (ﷺ) ورفعه وقال له : **«من يمنعك منى ؟»** فقال الرجل : **لا أحد** ، فعفا عنه النبى (ﷺ) فما كان من الرجل إلا أن أسلم وفى رواية : **أن الرسول (ﷺ) قال للرجل : ومن يمنعك منى ؟ فقال : كن خير آخذ ، قال : «تشهد أن لا إله إلا الله ؟» قال : لا ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فعفا عنه النبى (ﷺ) وخلى سبيله فأتى أصحابه وقال : جئتكم من عند خير الناس .**

وروى أنه نزل فى هذا قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾(١) ..

(١) سورة المائدة : ١١ .

غزوة الفُرُع من بحرَان

غزا رسول الله (ﷺ) ، يريد قريشا ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، حتى بلغ بحران معدنا بالحجاز من ناحية الفُرُع ، وهى قرية من ناحية المدينة ، فأقام بها رسول الله (ﷺ) شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا .

مَوقِفُ بَنِى قَينُقَاع

لقد جمع رسول الله (ﷺ) بنى قينقاع فى سوقهم ، وقال لهم : «يامعشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقُريش من النِّقْمَةِ وأَسْلِمُوا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم» قالوا : يامحمد ، إنك ترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

قال ابن إسحاق : فحدثنى مولى لآل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير أو عن عكرمة عن ابن عباس قال : ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيهم :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾[1] ..

قال ابن إسحاق : «وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أن بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله (ﷺ) ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ..

وأما عن سبب الحرب بينهم وبين المسلمين : فقد قال ابن هشام : وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مَخْرمة عن أبى عون قال : كان من أمر بنى قينقاع أنّ امرأة من العرب قدمت بجلَب لها - أى ما يُجلب عادة

---

(١) سورة آل عمران : ١٢ - ١٣

للسوق ليباع - فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى تصرف خبيث فعقد طرف ثوبها إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود . فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وهكذا ترى أن اليهود كانوا أول من نقض العهد ، كما كانوا السبب فى الشر بمثل ما تصرف به هذا الصائغ من تصرف سيء مع امرأة عربية مسلمة نشأت على خلق الإسلام والعفة ، هذا التصرف الخبيث أثار حفيظة المسلمين مدافعين عن عرضهم مهما كلفهم ذلك من فداء وتضحية وكما يقول القائل :

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذَى
حتى يُراقَ على جوَانِبِه الدَّمُ

وفى الحديث : «ومَنْ قُتِلَ دُون عِرْضِه فهو شَهِيدٌ» .

موقف ابن أُبَـيّ

وبعد أن حاصرهم الرسول (ﷺ) حتى نزلوا على حكمه ، قام عبد الله
بن أبى بن سلول فقال : يا محمد أحسن فى موالىّ - وكانوا حلفاء الخزرج -
فأبطأ عليه رسول الله (ﷺ) ، فقال : يا محمد أحسن فى موالى ، فأعرض
عنه ، فأدخل يده فى جيب درع رسول الله (ﷺ) ، فقال له رسول الله
(ﷺ) : «أرسلنى» وغضب رسول الله (ﷺ) حتى رأوا لوجهه ظُلَلا - أى
تغير وجهه من شدة الغضب ثم قال : «ويحك أرسلنى» قال : لا والله لا
أرسلك حتى تحسن فى موالىّ ، أربعمائة حاسر - أى لا درع لهم - وثلاثمائة
دارع قد منعونى من الأحمر والأسود وتحصدهم فى غداة واحدة إنى والله
امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله (ﷺ) : «هم لك» وكانت محاصرة
الرسول (ﷺ) إياهم خمس عشرة ليلة ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد
المنذر .

تَبَرُّؤ ابنِ الصّامتِ من حِلْفِهِمْ

لما حاربت بنو قينقاع رسول الله (ﷺ) تعصّب لهم عبد الله بن أُبى بن سلول ، أما عبادة بن الصامت فقد كان أحد بنى عوف ولهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أُبى ، ولكن عبادة تبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسول (ﷺ) من حلفهم وقال :

«يارسول الله ، أتولى الله ورسوله (ﷺ) والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم» وقد نزل فى شأنه وشأن ابن أُبى قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾(١) .

وفى شأن تبرؤ عبادة بن الصامت من بنى قينقاع ومن ولايتهم وحلفهم ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾(٢) .

---

(١) سورة المائدة : (٥١ ، ٥٢) .
(٢) سورة المائدة : (٥٦) .

سرية زيد بن حارثة

بعث رسول الله (ﷺ) زيد بن حارثة فى سرية ، فأصاب عير قريش وفيها أبو سفيان بن حرب على القَردة ، وهو ماء من مياه نجد : فإن قريشا خافت الطريق التي كانوا يسلكونها إلى الشام بعد غزوة بدر وما كان فيها فسلكوا طريق العراق .

فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة ، فلقيهم زيد ابن حارثة بسريته على ذلك الماء فأصاب العير وما فيها وقدم بها على رسول الله (ﷺ) ، وفرَّ الرجال ، وعادت السرية بالغنائم .

غـــــزوة أحـــــد

لما نصر «الله» جنده فى غزوة بدر الكبرى ، اجتمع زعماء قريش على أن يأخذوا بالثأر لقتلاهم ، وأن يستعينوا بعير أبى سفيان وما فيها من أموال لتجهيز الجيش كما استعانوا بعدد كبير من النساء ليمنعن من يحاول الفرار من رجالهم . وكلموا أبا سفيان بن حرب وكل من كانت له تجارة فى تلك العير من قريش ، وقالوا : يامعشر قريش إن محمدا قد وتركم[1] وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا . ففعلوا ، قال ابن إسحاق : ففيهم – كما ذكر لى بعض أهل العلم – أنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[2] ..

فاجتمعت قريش وانضم إليهم الأحابيش ، وهم الذين اجتمعوا معهم وانضموا إليهم من غير العرب .

ولما علم رسول الله (ﷺ) ، والمسلمون بأنهم قد نزلوا فى المكان الذى نزلوا فيه قال : «إنّى قد رَأيتُ و «الله» خيرًا ، رَأيتُ بقرًا ، ورأيتُ فى ذُبابِ سيفى ثلما ، ورأيتُ أنّى أدخلتُ يَدِى فى دِرعٍ حصينَةٍ ، فأولتها المدينة» .

قال ابن هشام : وحدثنى بعض أهل العلم ، أن رسول الله (ﷺ) قال : «رأيتُ بقرًا لى تُذبَحُ ؟ قال : فأمّا البقرُ فهى ناسٌ من أصحابى يُقتَلُونَ ، وأمّا الثلم الّذِى رأيتُ فى ذبابِ سيفى فهو رَجُلٌ مِن أهلِ بيتى يُقتَلُ» .

---

(١) وتر فلانا : قتل حميه وأصابه بمكروه .

(٢) ....

قال ابن إسحاق : فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مُقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ، وكان رأى عبد الله بن أُبىّ بن سلول مع رأى رسول الله (ﷺ) يرى رأيه فى ذلك ، وألا يخرج إليهم ، وكان رسول الله (ﷺ) يكره الخروج ، فقال رجال من المسلمين ، ممن أكرم «الله» بالشهادة يوم أحد وغيرهم ممن كان فاته بدر : يارسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنّا عنهم وضعفنا ؟ فقال عبد الله بن أُبىّ بن سلول : يارسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فو الله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا ؛ فلم يزل الناس الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم برسول الله (ﷺ) حتى دخل رسول الله (ﷺ) بيته ، فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ، وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له : مالك بن عمرو ، أحد بنى النجار ، فصلى عليه رسول الله (ﷺ) ثم خرج عليهم ، وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا رسول الله (ﷺ) ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم رسول الله (ﷺ) ، قالوا : يارسول الله : استكرهناك ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد (صلى الله عليك) ، فقال رسول الله (ﷺ) : «مَا يَنبغِى لِنَبىٍّ إذَا لَبِسَ لأمَتَهُ أن يَضَعَهَا ، حتىَّ يُقَاتِلَ» فخرج رسول الله (ﷺ) فى ألف من أصحابه .

واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس .

وقال ابن إسحاق : حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد ، انخذل عنه عبد الله بن أُبىّ بن سلول بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق

والريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، يقول : يا قوم ، أذكركم «الله» ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم ، فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنا لا ندرى أنه يكون قتال . قال : فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم ، قال : أبعدكم «الله» أعداء «الله» فسيغنى «الله» عنكم نبيه .

وفى شأن هؤلاء الذين تراجعوا وانخذلوا نزل قول « الله » تعالى :

﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾(١).

وفى هاتين الآيتين وضح « الله » تعالى الحكمة العالية فيما أصاب المسلمين فى هذه الغزوة من فرار أولئك المنافقين وأن هذا كان بقضاء «الله» تعالى ليظهر المؤمنون الثابتون ، والمنافقون الفارون .

وقد استدل العلماء بذلك على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون فى حال أقرب إلى الكفر ، وفى حال أقرب إلى الإيمان لقول الله تعالى :

﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾(٢).

ولما رجع ابن أبىّ وأصحابه همت بنو سلمة وبنو حارثة أن ترجعا ولكن «الله» سبحانه وتعالى قد ثبتهما وعصمهما وفى هذا نزل قوله تعالى :

---

(١) آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧ . (٢) آل عمران : ١٦٧ .

﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾(١) ..

وفى منتصف شهر شوال سار رسول الله (ﷺ) فى ألف من أصحابه ورجع ابن أبى بثلث الجيش كما سبق ، وتهيأ رسول الله (ﷺ) للقتال وهو فى سبعمائة من أصحابه ، وأمر على المدينة عبد الله بن جبير وكان الرماة يومئذ خمسين رجلا فقال لهم : «انضحوا الخيلَ عنا ولا نُؤتين من قِبلكم ، والزموا مكانكُم إن كانت النوبةُ لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطيرُ فلا تبرحو مكانكم» .

وأعطى اللواء مصعب بن عمير . وأنزل رسول الله (ﷺ) الجيش فى مواقعه وجعل منه ميمنة وميسرة ونظم المسلمين وفى هذا يقول «الله» تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾(٢)..

قال ابن إسحاق : وتعبأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مائتا فرس قد جنبوها – أى جعلوها – إلى جنوبهم عند حاجتهم إليها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل .

وقال رسول الله (ﷺ) : «مَن يَأْخذ هَذَا السَّيفَ بِحقِّهِ ؟» فقام إليه رجال ، فأمسكه عنهم ، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، أخو بنى ساعدة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : «أن تضربَ به العدوَّ حتَّى ينحَنِي» قال : أنا آخذه يارسول الله بحقه ، فأعطاه إياه . وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، إذا كانت ، وكان إذا اعتمَّ بعصابة له

(١) آل عمران : ١٢٢ . (٢) آل عمران : ١٢١ .

حمراء ، فاعتصب بها علم الناس إنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله (ﷺ) أخرج عصابته تلك ، فعصب بها رأسه وجعل يتبختر بين الصفين .

فقال رسول الله (ﷺ) حين رأى أبا دجانة يتبختر : «إِنَّها لِمشيةٌ يبغضها الله، إِلاَّ فى مِثْلِ هَذَا الموطِنِ» .

ولما أخذ أبو دجانة السيف من يد رسول الله (ﷺ) تعصَّب وخرج قائلا :

أنـــا الـــذى عَاهَدَنِـــى خَليلـــى
ونَحْـــنُ بالسفـــحِ لـــدى النَّخيـــل
ألا أقـــوم الدهـــر فى الكبـــول
أضـــرب بسيـــف الله والرسُـــول

أى عاهده ألا يقاتل فى المؤخرة وإنما فى المقدمة ، فكان أبو دجانة لا يواجه مشركا إلا قتله ، وقيل : الكبول بالموحدة أي القيود .

وابتدأت المعركة بالمبارزة ثم التحم الفريقان ، وقاتل حمزة بن عبد المطلب فأبدى ضروبا من الشجاعة لها أكبر الأثر بحيث ما كان أحد يقدر أن يهوى إليه ، ولكن كمن له وحشى لينال منه يقول وحشى : كنت غلاما لجبير ابن مطعم ، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم «بدر» فلما سارت قريش إلى «أحد» قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت حر ، قال : فخرجت مع الناس وكنت رجلا أقذف بالحربة قذف الحبشة ، قل ما أخطئ بها ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عرض الناس كأنه الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هدًا ما يقوم له شيء فو «الله» إنى لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى ، فلما دنا هززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته - تحت سرته - حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوى فغلب وتركته

وإياها حتى مات ، ثم أخذت حربتي ورجعت ، ولم يكن لي بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق .

بطولات ومواقف في يوم أحد :

ولقد كان للإيمان أثره في نفوس المجاهدين المسلمين في هذه الغزوة ، فقد اجتهدوا في قتال أعدائهم ، وأسرعوا إلى تلبية نداء المعركة ، حتى إن أحدهم وهو حنظلة بن أبي عامر لما سمع نداء المعركة وهو في عرسه خرج مسرعا للجهاد في سبيل «الله» حتى لقي ربه راضيا مرضيا ، ونال الشهادة ، وهو جُنبٌ فكرمته الملائكة وغسَّلته . عن حنظلة بن أبي عامر أخي بني عمرو بن عوف : أنه التقي هو وأبو سفيان بن حرب يوم «أحد» ، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود وكان يقال له ابن شعوب قد علا أبا سفيان فضربه شداد فقتله ، فقال رسول الله (ﷺ) : «وإِنَّ صَاحِبَكُم - يعني حنظلة - لَتغسّلُهُ الملائِكَةُ . فاسْأَلوا أَهْلَهُ .. مَا شَأْنُهُ ؟» . فسُئِلَت صاحبته فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة ، فقال رسول الله (ﷺ) : «لِذَلِكَ غَسَّلَتْهُ الملائِكَةُ» .

ومن بطولات هذا اليوم ما رواه البيهقي بسنده عن جابر أن المشركين رهقوا رسول الله (ﷺ) وهو صاعد في الجبل وجماعة من الأنصار معهم أبو طلحة ، فقال رسول الله (ﷺ) : «أَلاَ رَجُلٌ لِهَؤُلاءِ ؟» فقال أبو طلحة : أنا ، فقال : «كَمَا أَنْتَ يَاأبا طَلْحَة» فقال رجل من الأنصار ، أنا ، فقاتلهم حتى قُتِل ، فلحقه المشركون ، و... يقول : «أَلاَ رَجُلٌ لِهَؤُلاءِ ؟» وأبو طلحة يقول : أنا ، فيذّخره ، ويتقدم أحد الأنصار فيقاتلهم حتى يُقتل ، حتى قُتِلوا جميعا ، ثم قاتلهم أبو طلحة فقاتل مثل قتال جميع من كانوا قبله ، وأُصيبت أنامله فقال (حس) فقال رسول الله (ﷺ) : «لَوْ قُلْتَ بِسْمِ «الله» لَرَفَعَتْكَ الملائِكَةُ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ حَتَّى تَلِجَ بِكَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ» .

ومن البطولات والمواقف العظيمة فى هذا اليوم ما رواه الإمام مسلم بسنده ، عن أنس بن مالك قال : لما كان يوم «أحد» انهزم ناس من الناس عن النبى (ﷺ) - وأبو طلحة بين يدى النبى (ﷺ) مُجَوِّبٌ عليه بحجفة - قال : وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع ، وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثا ، قال : فكان الرجل يمر معه الْجُعْبة من النبل ، فيقول انثرها لأبى طلحة ، قال : ويشرف نبى الله (ﷺ) ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : يانبى الله - بأبى أنت وأمى - لا تشرف لا يصبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك ، قال : لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما ، تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه فى أفواههم ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان تفرغانه فى أفواه القوم ، ولقد وقع السيف من يدى أبى طلحة إما مرتين وإما ثلاثا من النعاس .

وفى هذا الحديث الشريف بيان لما قامت به المرأة المسلمة فى ميادين الجهاد ، وتوضيح لما شرعه الإسلام لها من القيام ببعض الأعمال الهامة التى لا تقل أثرا عن نتيجة القتال فى سبيل «الله» ، فكانت المرأة تسقى الماء وتداوى الجرحى ، وتناول السهام وتثير الحمية ، وتقوم على خدمة الجرحى وتمريضهم ، وهذا نموذج من تلك النماذج الرائعة .

قال أنس : لما كان يوم «أحد» انهزم ناس من الناس عن النبى (ﷺ) ، أى بعضهم ، وهم الذين تسببوا فى هزيمة يوم «أحد» حيث خالفوا أمر النبى (عليه الصلاة والسلام) وهؤلاء هم فرقة الرماة الذين أمرهم الرسول (ﷺ) بالوقوف خلف الجيش لحمايته ، ولكنهم لما رأوا انتصار المسلمين أول الأمر شرعوا فى أخذ الغنائم ، فانتهز خالد بن الوليد الفرصة وهو يومئذ على غير الإسلام - وشد عليهم من الخلف . وهنا أدرك المسلمون نتيجة مخالفة أمر

رسولهم (ﷺ) ؛ وأن المجاهد ينبغي عليه ألا يضع عينه على الغنائم ، فما الغنائم إلا عَرَض زائل ...

وقوله : «أبو طلحة بين يدى النبى (ﷺ) مُجَوِّب» بضم أوله وفتح الجيم وتشديد الواو المكسورة : مترس عنه ليقيه سلاح الكفار ، يقال للترس إذا كان من جلود ليس فيه خشب وحجفه بفتح الحاء والجيم درقة بفتحات والجمع حجف . وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع .

قال : فكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل ، بفتح الجيم وهى الكنانة التى تجعل فيها السهام .

فيقول : انثرها لأبى طلحة . قال : ويشرف نبى الله (ﷺ) ينظر إلى القوم : ويشرف : مضارع «أشرف» يقال : أشرف المكان وعلاه ، وأشرف عليه : اطلع عليه من فوق .

فيقول طلحة : يا نبى الله – بأبى أنت وأمى – لا تشرف لا يصبك سهم من سهام القوم ، وهنا إشفاق وحب منه لرسول الله (ﷺ) ، وقوله : نحرى دون نحرك : «النحر» هو أعلى الصدر ، وهذه الجملة دعائية والمراد بها : جعل «الله» نحرى أقرب من نحرك إلى العدو حتى أصاب دونك . وهكذا كان حبهم لنبيهم وافتداؤهم وتضحيتهم فى سبيله .

«ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم» : أما عائشة فهى أم المؤمنين وزوج رسول الله (عليه الصلاة والسلام) ، وأما أم سليم : فهى أم أنس بن مالك وهى من الصحابيات اللاتى جاهدن فى سبيل «الله» ، «وإنهما لمشمرتان» أى خدم سوقهما» والتشمير : رفع الرداء تأهبا للجد فى السعى والعمل «وخدم» جمع خدمة ، وهى الخلخال ، «والسوق» جمع ساق ، ومعنى العبارة : أنه كان يرى موضع الخلخال ...

ورؤيته لهذا الموضع من الجسم ، وإن كان عورة ، إلا أن النظرة حصلت فجأة منه دون قصد وتعمد ولم يحصل منه دوام النظر ، وليس فى كشف السيدتين الطاهرتين عن هذا الموضع ما يوهم شبهة ، حاشا لله فهما من الطهارة بمكان بحيث لا يرتاب فى شأنهما احد ، وإنما كان ذلك منهما قبل الأمر بالحجاب ، فإن حدوث ذلك كان فى يوم أحد من السنة الثالثة قبل نزول الحجاب ، الذى كان فى السنة الخامسة للهجرة ، أو أنه يباح فى وقت الحرب مالا يباح فى غيره ، لأن الحرب ضرورة .

«تنقلان القرب على متونهما» وفى رواية البخارى : تنقزان بضم القاف ومعناها : تحملان ، والقرب : جمع قربة وهو ما يحمل فيه الماء من الجلد .

وقيل فى معنى تنقزان : تقفزان ، والقفز هو الوثب ، لإنقاذ الجريح ، وإسعاف الظمآن ، وعلى هذا المعنى يكون قوله : «القرب» منصوبا على نزع الخافض أى تقفزان بالقرب .

على متونهما : أى على ظهورهما ، وقوله : (ثم تفرغانه فى أفواههم .. إلخ) والضمير فى (تفرغانه) للماء وفهم من سياق العبارة ، لأن القربة إناء المياه ، ويراد بالقوم : الجرحى والعطشى من المقاتلين . والجملة كناية عن مداومة كل منهما واستمرارهما ، وبدراسة هذه النماذج من نساء الإسلام يتبين لنا :

١ - حكم جهاد المرأة .

٢ - كيفية اشتراكها فى ميدان القتال .

٣ - ما أحرزته المرأة المسلمة من سبق .

١ - حكم جهاد المرأة :

لم يحرم الإسلام المرأة من كرامة الجهاد ومثوبته ، و لم يمنعهن أن يشاركن بسقى

الماء ومداواة الجرحى ، كل ذلك مع المحافظة عليهن وعدم الانكشاف والاختلاط المحرم بالرجال .

وهناك جهاد بالمال لإعداد القوة ، وتجهيز الجيوش ، وهناك جهاد باللسان لإثارة الحمية ودفع الشبه ورد الإشاعات والدعوة إلى الجهاد ، وهذه الأنواع يؤدى كل من الرجل والمرأة فيها الرسالة اللائقة بحاله ، ويقوم حيالها بما يمكنه من عمل .

أما الجهاد بالسلاح ، والاشتراك فى ضرب العدو فى الميدان فهذا لا يتفق مع طبيعة المرأة وتكوينها ، ولذا لم يفرضه الإسلام عليها ، ولكن شارك بعض النساء فى الجهاد فهذا تطوع منهن وليس مفروضا كما هو الحال بالنسبة للرجال حيث فرض عليهم .

٢ - كيفية اشتراك المرأة فى ميدان القتال :

وقد وضح هذا الحديث كيفية اشتراك المرأة فى ميدان القتال ، وأنه يمكنها أن تقوم بدور هام ، هو إحياء الحمية ، والقيام بالتمريض وسقى الماء وكثير من المهام التى يحتاج إليها الجيش ، فتوفر على الجيش قيام بعض الرجال بهذا العمل ، وتقوم هى به ، ليؤدى جميع أفراد الجيش المهمة القتالية على أكمل وجه .

٣ - ما أحرزته المرأة المسلمة من سبق :

وقد أحرزت المرأة المسلمة - بدلالة هذا الحديث وغيره - سبقا فى ميدان الجهاد والشرف ، لم تحرزه غيرها من الغربيات ، ولكم كان للمرأة المسلمة بطولات فذة وأمثلة رائعة فى التاريخ الإسلامى ، حيث نهضت مع الرجل ، فهاجرت فى سبيل «الله» متحملة مرارة الفراق والغربة ، وخرجت فى كثير من الغزوات ، وهذه أم عطية (رضى الله عنها) تقول : غزوت مع النبى (ﷺ) سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم ، فأصنع لهم الطعام وأداوى

لجرحى ، وأقوم على المرضى ، بل إن بعض النساء المسلمات كن يحملن السلاح دفاعا عن النفس ويجاهدن بأنفسهن جهادا مشكورا مهما كلفهن ذلك ، حتى سجل لهن التاريخ صفحات مشرقة بالبطولة ، تقول أم سعد بن الربيع : دخلت على أم عمارة نسيبة فقلت لها : يا خالة أخبريني خبرك ، فقالت : خرجت أول النهار ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله (ﷺ) وهو في أصحابه والدولة والريح – أى الغلبة والنصر – للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله (ﷺ) فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلىّ فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور ، فقلت : من أصابك بهذا ، فقالت : ابن قمئة أقمأه «الله» – أى أذله – لما ولى الناس عن رسول الله (ﷺ) أقبل يقول : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله (ﷺ) ، فضربنى هذه الضربة ، فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو « الله » كانت عليه درعان ، ولاستبسالها هذا يوم أحد ، وموقفها المشرف قال الرسول (ﷺ) : «لَمَقَامُ نَسِيبَةَ بِنتِ كَعْبٍ الْيَومَ خَيْرٌ مِنْ مَقَامِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ» . وَقَالَ عَنْهَا أيضا : «مَا الْتَفَتُّ يَمِينًا وَلا شِمَالاً إلا وأنا أَرَاهَا تُقَاتِلُ دُونِي» .

وروى الإمام أبو داود قال : حدثنا عبد الله بن محمد النفيلى حدثنا أبو إسحاق قال : سمعت البراء يحدث قال : جعل رسول الله (ﷺ) على الرماة يوم أحد – وكانوا خمسين رجلا – عبد الله بن جبير ، وقال : «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» قال : فهزمهم «الله» قال : فأنا والله رأيت النساء يسندن على الجبل . فقال أصحاب عبد الله ابن جبير الغنيمة أى قوم الغنيمة ظهر أصحابكم ، فقال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال رسول الله (ﷺ) .

قالوا : و « الله » لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فأتوهم ، فصرفت وجوههم وأقبلوا منهزمين .

ولقد تحقق النصر للمسلمين فى بادىء الأمر ، لولا ما حدث بعد ذلك من ترك الرماة المواقع وتحولهم عنها ، وكان هذا بسبب اختلافهم ؛ منهم من رأى ألا يبرح المكان سواء انتصروا أو انهزموا ومنهم من رأى أن الأمر بعدم ترك المكان إنما هو وقت القتال أما وقد انتهى فليذهبوا لجمع الغنائم ، فتحولوا وأتاهم أعداؤهم من الخلف وأحاطوا بالرسول (ﷺ) ودافع المسلمون عن رسولهم (ﷺ) ومنعوه من المشركين ، ولكن كسرت رباعيته و شج وجهه وهو يقول : «لَنْ يُفلحَ قومٌ شجُوا وَجه نَبِيِّهم وهو يَدعُوهم إلى الله» ، وكُسِرَت رُبَاعِيَّته اليمنى السفلى ، وجرحت شفته العليا وجرح ابن قمئة وجنته ودخلت حلقتان من المغفر فى وجهه الشريف فأخرج أبو عبيدة عامر بن الجراح إحداهما بأسنانه فسقطت ثنيته ، ثم أخرج الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى فلقب بذى الثنيتين .

وفى هذه الغزوة انطلقت إشاعة قتل النبى (ﷺ) ، فذهل كثير من المسلمين ومنهم من ولى هاربا ، ثم رجع استحياء وفى شأنهم نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) ﴾(١) :

ولكن كانت هناك بطولات تجبر ما كان من قصور البعض ، وتعتذر إلى « الله » عن فرارهم . روى الإمام البخارى فى صحيحه – بسنده – عن أنس (رضى الله عنه) قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يارسول

---

(١) آل عمران : ١٥٥ .

الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن «الله» أشهدنى قتال المشركين ليرين «الله» ما أصنع ، فلما كان يوم أحد ، وانكشف المسلمون ، قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا سعد ابن معاذ ، الجنة ورب النضر أنى أجد ريحها من دون أحد ، قال سعد : فما استطعت يارسول الله ما صنع أنس فوجدنا بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾(١) .

ولقد ثبت رسول الله (ﷺ) ، وظل يجاهد ويدافع من كل جهة وهو يقول : «إلىّ عِبَاد ، الله ، إلَىّ عِبَاد «الله» فتجمع حوله جمع من أصحابه فسار بهم حتى وصل إلى الصخرة التى فوق الجبل .

وبعد أن انتهت المعركة ، أشرف أبو سفيان بن حرب وقال : أفى القوم محمد ؟ فقال لهم النبى : «لاَ تُجِيبوهُ» أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ أفى القوم ابن الخطاب ؟ والنبى (ﷺ) يقول : «لاَ تُجِيبوهُ» فقال أبو سفيان : إن هؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه أن قال : كذبت و «الله» يا عدو «الله» إن الذى عددت لأحياء وقد بقى لك ما يسوؤك ، فقال : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، فقال له عمر : لا سواء ؛ قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار ..

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .

ثم قال أبو سفيان : اعل هبل فقال النبي (ﷺ) :

«أجيبوه» ، قالوا : ما نقول ؟ قال : «قولوا : «الله» أعلى وأجل» فقال أبو سفيان : لنا العزى ، ولا عزى لكم فقال النبي : «أجيبوه» . قالوا : ما نقول ؟ قال : «قولوا : «الله» مولانا ولا مولى لكم» ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال رسول الله (ﷺ) لرجل من أصحابه : «قل نعم هو بيننا وبينك موعد» .

واستشهد في غزوة أحد من المسلمين سبعون منهم أربعة من المهاجرين ونيل ستة والباقي من الأنصار ومن المهاجرين : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وقتل من المشركين عشرون ، وسأقدم نبذة عن الصحابي مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين يوم أحد .

مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين

من الرعيل الأول ، ومن الصفوف المتقدمة من سلف هذه الأمة الخيرة .. رجال صدقوا ما عاهدوا «الله» عليه .. نذروا أرواحهم «لله» تعالى ، ولدعوة الحق ، فجاهدوا فى «الله» حق جهاده .. من هؤلاء : الصحابى الجليل : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى .

كان من الصحابة الأجلاء .. والدعاة الفضلاء .. والمجاهدين الأوفياء . إنه أعطر أهل مكة كما وصفه المؤرخون .

وكان رسول الله (ﷺ) يذكره ويقول : «مَا رَأيتُ بمكَّةَ أحدًا أحسنُ لمة ، ولاَ أرق حلَّة ، ولاَ أنعم مِن مُصعَبِ بن عُمير» .

إنه من السابقين للإسلام ، بلغه أن رسول الله (ﷺ) يدعو إلى الإسلام فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، فدخل عليه . فأسلم وصدق به ، وخرج فكتم إسلامه ، خوفا من أمه وقومه .

وكان مصعب يختلف إلى رسول الله (ﷺ) سرًّا ، فبصر به عثمان بن طلحة يصلى ، فأخبر أمه وقومه ، فأخذوه فحبسوه فلم يزل محبوسا حتى خرج إلى أرض الحبشة فى الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا .

عُرِفَ بمكارم الأخلاق ، وشهد له الرسول (ﷺ) ، وشهد له رفاقه وأقرانه بحسن الخلق ، عن عبد الله بن عمر بن ربيعة عن أبيه قال : كان مصعب بن عمير لى خدنا وصاحبا ، منذ يوم أسلم إلى أن قتل - رحمه «الله» - بأحد ، خرج معنا إلى الهجرتين جميعا بأرض الحبشة ، وكان رفيقى من بين القوم ، فلم أر رجلا قط كان أحسن خلقا ولا أقل خلافا منه .

وعرف بحبه الشديد «لله» ورسوله ، ومنذ دخل فى الإسلام ، وخالطت بشاشته قلبه ، وهو يتفانى فى مرضاة ربه ، عبادة ، وتقى ، وجهادا ، ودعوة فى سبيل «الله» .

لقد كان قبل دخوله الإسلام فتى مكة شبابا وجمالا ، ويلبس أحسن الثياب وأرقه ، وكان أعطر أهل مكة .. ولكنه ضحى بكل نعيم ومتعة ، وضحى بكل زخرف وزينة ، فى سبيل العقيدة الصحيحة ، ومن أجل الدعوة فى سبيل «الله» .

لقد تحمل الاضطهاد والحبس ، والقسوة والغلظة ، ولم تمتد عيناه بعد إلى زينة الحياة الدنيا ، بعد دخوله فى الإسلام ، وبعد يقينه بأنها زينة زائلة ، زخرف لا بقاء له ، وأن سعادته وهناءته إنما تتمثل فى الإيمان بـ «الله» تعالى ، وفى حب «الله» سبحانه ، وفى حب رسوله (صلوات الله وسلامه عليه) .

ذات يوم – والنبى (ﷺ) جالس فى أصحابه – يُقبِلُ مصعب ، وعليه قطعة نمرة ، قد وصلها بإهاب ، قد ردنه ثم وصله إليها ، فلما رآه أصحاب النبى (ﷺ) ، نكسوا رؤوسهم رحمة له ، ليس عندهم ما يعبرون عنه ، فسلم فرد عليه النبى (ﷺ) وأحسن عليه الثناء ، وقال : «الحمد «لله» ليقلب الدنيا بأهلها ، ولقد رأيت هذا – يعنى مصعب بن عمير – وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيما منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة فى الخير ، فى حب «الله» ورسوله» .

مصعب الداعيــة

بعد أن انصرف أهل العقبة الأولى – الاثنا عشر – وانتشر الإسلام فى دور الأنصار ، أرسلت الأنصار رجلا إلى رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) ، وكتبت إليه كتابا :

«ابعث إلينا رجلا يفقهنا فى الدين ، ويقرئنا القرآن» فبعث إليهم رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) ، الصحابى الجليل مصعب بن عمير فقدم عليهم مصعب ، ونزل على سعد بن زرارة ، ونهض بمهمته العالية على أكمل وجه ، فلم يكن فقط – يقرئهم القرآن الكريم ، وإنما كان يقرئهم ويفقههم ، ويدعو إلى «الله» على هدى وبصيرة .. لقد دعا إلى الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن الكريم ، فكان يسلم الرجل والرجلان ، حتى ظهر الإسلام ، وفشا فى دور الأنصار كلها والعوالى ..

واستمر (رضى الله عنه) يقرئهم القرآن ، ويعلمهم ، ويعظهم ويرشدهم .. ثم كتب إلى رسول الله (ﷺ) أن يجمع ، فأذن له ، وكتب إليه : «انظر مِنَ اليوم الَّذِى يَجهرُ فيه اليهودُ لِسَبتِهم فإذا زالتِ الشمسُ فازدَلِف إلى «الله» فيه بِرَكعَتين وَاخطُب فِيهم» .

فجمع بهم مصعب بن عمير فى دار سعد بن خيثمة ، وهم اثنا عشر رجلا فهو أول من جمع فى الإسلام جمعة .

وروى أن أول من جمع بهم : أسعد بن زرارة .

وعندما خرج من المدينة مع السبعين الذين وافوا رسول الله (ﷺ) فى العقبة الثانية .. فقدم مكة جاء منزل رسول الله (ﷺ) أولا ، ولم يقرب منزله . فجعل يخبر رسول الله (ﷺ) فسُرَّ رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) بما أخبره عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام .

ولما علمت أمه بقدومه أرسلت إليه تقول : يا عاق أتقدم بلدا أنا فيه لا تبدأ بي ؟

فقال : « ماكنت لأبدأ بأحدٍ قبلَ رسولِ الله (ﷺ) » .

هكذا كان إحساسه الصادق ، وهكذا كان نبض قلبه المؤمن . إنه يحب «الله» ورسوله ، إنه أخلص للإسلام ورسول الإسلام ، وامتلأ قلبه بالحب والتفاني في سبيل الدعوة ، فشغله هذا الحب وجعله يؤثر «الله» ورسوله على كل شيء : على الأهل ، وعلى المال ، وعلى كل مافي الحياة من زخارف وطيبات .

وصدق مصعب ، وصدق إيمانه وبرهانه على هذا الإيمان ، بحبه لرسول الله (ﷺ) أكثر من كل أحد ، وأكثر من كل شيء فلقد قال (صلوات الله وسلامه عليه) : «لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» . رواه مسلم .

وقال (صلوات الله وسلامه عليه) : «لاَ يؤمن أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِن وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» رواه مسلم .

وقد قال ابن بطال : ومعنى الحديث أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي (ﷺ) آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين . لأن به (ﷺ) استُنقذنا من النار ، وهُدِينا من الضلال .

ولننظر إلى قوة إيمان هذا الداعية الفذ ، وإلى موقفه مع أمه بعد ذلك .. لقد ذهب إلى أمه ، فماذا قالت له ؟

إنها تريد أن تثني عزمه ، وتحاول أن تكشف مدى ما هو عليه من هذا الدين ..

فقالت له : إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد ؟

فأجابها موضحا – فى إيجاز شديد – أنه على دين حق رضيه «الله» ، هو الدين القيم ، فقال : أنا على دين رسول الله (ﷺ) وهو الإسلام الذى رضى «الله» لنفسه ولرسوله .

فقالت له : ما شكرت ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ، ومرة بيثرب ؟

فقال : أفر بدينى أن تفتنونى . فأرادت حبسه ، فقال : لئن أنت حبستنى لأحرصن على قتل من يتعرض لى ، فقالت : فاذهب لشأنك ، وجعلت تبكى ، فقال مصعب : يا أمة إنى لك ناصح عليك شفيق ، فاشهدى أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله قالت : والثواقب لا أدخل فى دينك فيزرى برأيى ، ويضعف عقلى ، ولكنى أدعك وما أنت عليه وأقيم على دينى .

مصعـــب المجـــاهد

وكما كان لهذا الصحابى الجليل دوره البارز فى الدعوة إلى الإسلام وتوجيه الناس وتعليمهم وإرشادهم ، فإن له أدوارا بطولية فى ميدان الجهاد فى سبيل «الله» ، وهذه الأدوار وغيرها تعطينا صورة واضحة لما كان عليه صحابة الرسول (ﷺ) من علم ينتفعون به وينفعون غيرهم ويرشدونهم ، ومن استثمار العلم بالتطبيق والعمل ، ومن مشاركتهم فى ساحات الجهاد فى سبيل «الله» ، إعلاء لكلمة الحق ، ودفاعا عن دين «الله» الواحد الأحد .

فقد اشترك مصعب فى غزوة بدر ، وكان معه - رضى الله عنه - لواء المهاجرين .. وفى يوم أحد : حمل مصعب بن عمير اللواء ، فلما جال المسلمون ثبت مصعب ، فأقبل ابن قميئة وهو فارس ، فضرب يده اليمنى فقطعها ، ومصعب يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[1] ..

وأخذ اللواء بيده اليسرى ، وحنا عليه ، فضرب يده اليسرى فقطعها ، فحنا على اللواء ، وضمه بعضديه إلى صدره .. وهو يقرأ :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾[2] ..

ثم حمل عليه الثالثة بالرمح ، فأنفذه ، واندق الرمح ، ووقع مصعب وسقط اللواء ، وابتدره رجلان من بنى عبد الدار .

فأخذه أبو الروم بن عمير ، فلم يزل معه فى يده ، حتى دخل به المدينة .

---

(١) آل عمران : ١٤٤ . (٢) آل عمران : ١٤٤ .

وفيما رواه ابن سعد – بسنده – عن عبد الله بن الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قال :

أعطى رسول الله (ﷺ) – يوم أحد – مصعب بن عمير اللواء ، فقتل مصعب ، فأخذه ملك فى صورة مصعب ، فجعل رسول الله (ﷺ) يقول له فى آخر النهار :

«تقدّم يا مصعب» ، فالتفت إليه الملك فقال :

لست بمصعب ، فعرف رسول الله ﷺ أنه ملك أيد به .

قال ابن إسحاق : وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله (ﷺ) حتى قتل ، وكان الذى قتله ابن قميئة الليثى ، وهو يظن أنه رسول الله (ﷺ) ، فرجع إلى قريش ، فقال : قتلت محمدا ، فلما قتل مصعب بن عمير ، أعطى رسول الله (ﷺ) اللواء على بن أبى طالب ، وقاتل على بن أبى طالب ورجال من المسلمين (رضى الله عنهم أجمعين) .

ولم يترك مصعب إلا ثوبا ، إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطوا رجليه ، خرج رأسه ، فقال رسول الله (ﷺ) :
« اجعلوا على رجليه شيئا من الإذخر » ..

وقد صلى عليه رسول الله (ﷺ) ، وقرأ هذه الآية :

﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[1] ..

ثم قال : «إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة» وكان استشهاد مصعب على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة وهو ابن أربعين سنة أو يزيد شيئا فـ (رضى الله عنه) وعن سائر صحابة رسول الله (ﷺ) .

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .

نفعنا الله بسيرة سيدنا رسول الله (ﷺ) ، ووفقنا للعمل بالكتاب والسنة .

رب اغفر لي ولوالدى وللمؤمنين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

غَزْوَةُ حَمْرَاءِ الأَسَدِ

كانت غزوة «أحد» يوم السبت الخامس عشر من شهر شوال ، وفى اليوم التالى وهو يوم الأحد نادى منادى الرسول (ﷺ) فى الناس قائلا : **«لا يخرجن معنا إلا من حَضَرَ معنا القتال»** واستأذن جابر بن عبد الله فى الخروج ، لأنه كان قد تخلف عن الخروج لغزوة أحد بعذر ، فأذن له الرسول (ﷺ) ، ولم يأذن لابن أُبى بالخروج معه حين طلب ذلك .. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وحمل اللواء على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وساروا حتى وصلوا «حمراء الأسد» وهو موضع على بعد ثمانية أميال من المدينة وذلك يوم الإثنين ، ومرّ برسول الله (ﷺ) معبد بن أبى معبد الخزاعى وهو يومئذ مشرك وكانت خزاعة موضع مودة للرسول (ﷺ) فقال معبد : **يامحمد أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم** . ومر معبد بأبى سفيان وأصحابه فقال له: **ما وراءك يامعبد ؟** قال: **قد خرج محمد فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله يتحرقون عليكم تحرقا واجتمع إليهم من كان تخلف عنهم** .. ونصحه بعدم العودة ، فخاف أبو سفيان وأسرع إلى مكة .. ولكن لما مر بأبى سفيان ركب بنى عبد القيس وكانوا متجهين إلى المدينة عرض عليهم أن يبلغوا النبى (ﷺ) وأصحابه أن قريشا قد أجمعت السير إليهم ، ووعدهم أن يكافئهم على ذلك بأن يحمل إبلهم كثيرا من الزبيب إذا وافوا عكاظ فى الموسم ، فمرّ الركب برسول الله (ﷺ) وهو بحمراء الأسد فأخبروه بقول إبى سفيان ، فكان جوابه : **«حسبنا الله ونعم الوكيل»** وأقام المسلمون بها ثلاثة أيام ثم عادوا إلى المدينة وقد استردوا هيبتهم ، وفى هذا نزل قول «الله» تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟
رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾(١).

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤.

يوم الرجيع

قال الإمام البخارى رحمه الله : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال : أخبرنى عمرو بن أبى سفيان بن أسيد بن جارية الثقفى وهو حليف لبنى زهرة وكان من أصحاب أبى هريرة، أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله (ﷺ) عشرة رهط سرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى جد عاصم بن عمر بن الخطاب ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة – وهو بين عسفان ومكة – ذكروا لحى من هذيل ، يقال لهم : بنو لحيان ، فنفروا لهم قريبا من مائتى رجل كلهم رام . فاقتصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد[1] وأحاط بهم القوم ، فقالوا لهم : انزلوا ، وأعطونا بأيديكم ، ولكم العهد والميثاق ، ولا نقتل منكم أحدا ، فقال عاصم بن ثابت أمير السرية : أما أنا فوالله لا أنزل اليوم فى ذمة كافر ، اللهمَّ أخبِرْ عنَّا نبيَّك ، فرموهم بالنبل ، فقتلوا عاصما فى سبعة ، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق ، منهم خبيب الأنصارى وابن الدثنة ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم ، أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم ، إن لى فى هؤلاء لأسوة – يريد القتلى – وعالجوه على أن يصحبهم ، فأبى فقتلوه ، فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر فابتاعَ خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا ، فأخبرنى عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد به ، فأعارته ، فأخذ ابنا لى وأنا غافلة حتى أتاه ، قالت : فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ، ففزعت

---

(١) فدفد : موضع فيه غلظ وارتفاع .

فزعة عرفها خبيب فى وجهى ، فقال : تخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك ، والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب ، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب فى يده ، وإنه لموثق فى الحديد ، وما بمكة من ثمر ، وكانت تقول : إنه لرزق من الله رزقه خبيبا ، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه فى الحل ، قال لهم خبيب : ذرونى أركع ركعتين ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لطولتهما ، اللهم أحصهم عددا :

وَلَستُ أُبَالِى حِينَ أُقتَلُ مُسلِمًا ... عَلَى أَىِّ شِقٍّ كَانَ لله مَصرَعِى
وَذَلِكَ فِى ذَاتِ الإلٰه وَإن يَشَأْ ... يُبَارِك عَلَى أَوصَالِ شِلوٍ مُمَزَّعِ

فقتله ابن الحارث ، فكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبرا ، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب ، فأخبر النبى (ﷺ) أصحابه خبرهم وما أصيبوا وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشىء فيه يعرف ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر[1] ، فحمته من رسولهم فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا .

تلك هى سرية الرجيع – والرجيع : اسم موضع من بلاد هذيل بين مكة وعسفان على ثمانية أميال من عسفان . ووقفةٌ مع هذه السرية :

ففى السنة الرابعة وفى شهر صفر ، قدم على رسول الله (ﷺ) رهط من عضل والقارة ، فقالوا : يارسول الله ، إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك ، يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام ؛ فبعث رسول الله (ﷺ) معهم عشرة ليقوموا بمهمة الدعوة والتبليغ من جهة ، وليكونوا عيونا على المشركين من جهة أخرى .

(١) الدبر : ذكور النحل .

فقد كانت هذه السرية تمثل حلقة هامة فى سلسلة الدعوة والجهاد فى سبيل الله أمر عليهم رسول الله (ﷺ) عاصم بن ثابت ، وما إن وصلوا الرجيع إلا وغدر القوم بهم ، واستصرخوا عليهم آخرين ، فلجأوا إلى ربوة عالية ، يمتنعون بها منهم ، وأخذوا سيوفهم ليقاتلوهم ، فلجأ المشركون إلى الخدعة : **إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم** ، فأما عاصم وآخرون فقالوا والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا ، وظلوا يجاهدون وأبوا أن يسلموا حتى استشهدوا فى سبيل الله .. وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق فنزلوا إليهم فلما تمكنوا منهم أوثقوهم ، فانتزع عبد الله يده وأخذ سيفه وحاول أن يقاتلهم فرجموه بالحجارة حتى استشهد ، وأما خبيب وزيد فباعوهما لبعض أهل مكة الموتورين منهم : فاشترى بنو الحارث خبيبا ليقتلوه بأبيهم الذى قتله يوم بدر ، واشترى صفوان زيدا ليقتله بأبيه . وحبسوهما حتى انتهت الأشهر الحرم فأخرجوهما إلى التنعيم فقتلوهما .. ولقد كان لهذين الفدائيين المسلمين نبأ عظيم ، وكرامة عند الله ، ومنزلة عالية ، أما خبيب : فقد ضرب أروع الأمثلة فى سمو الخلق الإسلامى الرفيع الذى يأبى عليه أن ينال من غلام صغير وأن يؤاخذه بجريرة غيره ، فقد فزعت أم هذا الغلام ، وقد رأت فى يده الموسى الذى استعاره ليستحد به ورأت الغلام بين يديه فأدرك شعورها ، فقال لها : **أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله** ، وكانت الجارية تحدث بعد أن أسلمت فتقول : **ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب ، ولقد رأيته يأكل من قطف من عنب وما بمكة يومئذ ثمرة وإنه لموثق فى الحديد ، وما كان إلا رزقا رزقه الله** .. وكان أول من سن الركعتين عند القتل .. لقد وقف بعد صلاة الركعتين ضارعا إلى ربه هاتفا من أعماقه قائلا : **اللَّهُمَّ إِنَّا بَلَّغْنَا رِسَالَةَ رَسُولِكَ ، فَبَلِّغْهُ الغداة مَا يُفْعَلُ بِنَا ، اللَّهُمَّ**

أحصهم عددًا ، واقتلهم بددًا، ولا تُبقِ منهم أحدًا . وأما زيد بن الدثنة ، فقد ضرب أروع الأمثلة فى الفدائية وفى حب رسول الله (ﷺ) ، فعندما هموا بقتله قال أبو سفيان بن حرب : أنشدك الله يازيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى ، فقال أبو سفيان : ما رأيت أحدًا من الناس يحب أحدا كحبُ أصحاب محمد محمدا .. وأما عاصم بن ثابت : فقد أرادت قريش أن تنال من جسده ، فمنعه الله وبعث على جسده مثل الظلة من الدبر وهى ذكور النحل ، فقالوا : دعوه حتى يمشى فيذهب عنه ، فغيبه الله فى الوادى وما عرفوا له أثرا ، وعن قتادة قال : كان عاصم بن ثابت أعطى الله عهدا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا ، فكان عمر يقول لما بلغه خبره : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه فى حياته» .. إنها دروس الإيمان واليقين ، والتضحية والفداء وأمثلة البطولة والصبر ممن عاشوا فى رياض النبوة وتربوا على مأدبة القرآن ، فكانوا نماذج عالية للفدائية والبطولة على مر أدوار الحياة .

يَوْمُ بِئرِ مَعُونَة «سَرِيَّةُ القُرَّاءِ»

قدم عامر بن مالك إلى المدينة ، فعرض عليه الرسول (ﷺ) الإسلام ، فأبى ، وقال : يامحمد ، لو أنك بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك لرجوت أن يستجيبوا لهذا الأمر .

فقال له الرسول (ﷺ) : «إنى أخشى عليهم أهل نجد» ، فقال عامر بن مالك : فإنى لهم مجير ، فأرسل لهم الرسول (ﷺ) أربعين[1] رجلا من أصحابه تحت قيادة المنذر بن عمرو ، وكانوا من خيرة صحابة رسول الله (ﷺ) فيهم الحارث بن الصمة ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، فساروا حتى نزلوا بالقرب من بئر معونة ، وأرسلوا واحدا منهم بكتاب رسول الله (ﷺ) إلى عامر بن الطفيل فأخذ الكتاب وقتل حامله ، ثم جاء على الباقين فقتلهم جميعا .

وكان فى أثرهم – من قِبَل النبى (ﷺ) – عمرو بن أمية الضمرى والمنذر ابن محمد بن عقبة الأنصارى ، فرأوا الطير تحوم حول الأرض ، فقالا : إن لهذه الطيور لشأنا ، ثم أقبلا حتى وجدا القوم كلهم قتلى . فقال عمرو بن أمية : أرى أن نلحق برسول الله (ﷺ) فنخبره ، وقال صاحبه : أرى ألا نبرح حتى نقاتل ، فقاتلا حتى قتل المنذر بن محمد بن عقبة الأنصارى ، وأخذ عمرو أسيرا ثم أطلقه عامر بن الطفيل ليد كانت له عنده ، فلما خرج عمرو وجد رجلين من بنى عامر بن الطفيل فقتلهما ثأرا لأصحاب رسول الله (ﷺ) ، فلما علم النبى (ﷺ) قال له : «لقد قتلت رجلين قد عقدت لهما حلفا وجوارا فلهما علينا الدية» ثم قال عليه الصلاة والسلام : «هذا رأى عامر بن مالك وإنى كنت لرأيه كارها» فبلغ ذلك عامرا فشق عليه أن يخفر

(١) قيل عددهم سبعون وكانوا من حفظة القرآن الكريم .

فى جواره ، فأرسل ابنه ربيعة بن عامر إلى ابن الطفيل فحمل عليه وضربه بالرمح فأصاب فخذه ، ووقع عن فرسه فتركه .

ولقد حزن الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) على هؤلاء الصحابة ، ومكث شهرا يدعو فى صلاة الصبح على رِعْل وذَكْوان وعُصَيّة الذين غدروا بالقراء ، وهم أحياء من بنى سُليم .

غزوة بني النضير

ذهب رسول الله (ﷺ) إلى بني النضير ليستعين بهم في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية ، وكان بين بني النضير وبين بني عامر بن الطفيل عقد وحلف ، وأجابوا رسول الله (ﷺ) على طلبه بقولهم : نعم نحن نعينك على ذلك ، ووجدوا فيما بينهم أن الفرصة قد سنحت لقتل الرسول (ﷺ) ، فهمّ رجل منهم بالذهاب إلى أعلا الدار ليُلقي حجرًا على رسول الله (ﷺ) ، فأعلمه الله بمكرهم وتدبيرهم ، فانصرف إلى المدينة وأعلم أصحابه بذلك ، وأن يهود بني النضير قد نقضوا ما بينهم وبينه من عهد فتجهز لغزوة بني النضير واتجه رسول الله (ﷺ) إلى بني النضير ، فدخل القوم حصونهم وتحصنوا بها فحاصرهم ست ليال أو إحدى وعشرين ليلة ثم قذف الله في قلوبهم الرعب ، فطلبوا أن يكف عنهم وأنهم سيتركون بيوتهم ، فيأخذ كل رجل منهم من ماله وما حمل بعيره إلا السلاح وينصرفون ، فوافق النبي (ﷺ) ، وخرج منهم من خرج إلى خيبر والشام وتركوا باقي أموالهم إلى النبي (ﷺ) نقسمها بين المهاجرين والأنصار .. وقد تحدثت آيات سورة الحشر عن شأنهم ..

وعندما حاصرهم النبي (ﷺ) وأمر بقطع نخيلهم وإتلافها نادوه : يامحمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يصنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟! فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝ ﴾[1] .

---

(١) سورة الحشر : (٥) .

غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ

كان السبب فى هذه الغزوة أن رسول الله (ﷺ) سمع بتجمع بنى محارب وبنى ثعلبة لحربه ، فرأى أن يغزوهم ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى رضى الله عنه ، وقيل : عثمان بن عفان رضى الله عنه . ونزل نخلا أو نخلة من منازل بنى ثعلبة بنجد ، وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع ؛ لأن أقدامهم لما تقرحت لفوها بالرقاع ، وقيل : لأنهم رقعوا فيها الرايات ، وقيل : «ذات الرقاع» هى شجرة فى هذا المكان تسمى بذلك ، وقيل : إن الجبل الذى نزلوا عليه كانت أرضه ذات ألوان بين احمرار واصفرار وسواد ، فسموا الغزوة ذات الرقاع لذلك . وواجه الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) جمعين من غطفان ولم يقم بينهم قتال ، وصلى رسول الله (ﷺ) صلاة الخوف بالمسلمين .

وكانت هذه الغزوة فى السنة الرابعة ، وكان الرسول (ﷺ) قد أقام بعد غزوة بنى النضير شهر ربيع الآخر وبعض جمادى ، ثم غزا نجدًا .

وعن جابر بن عبد الله أن رجلا من بنى محارب يقال له غَوْرث قال لقومه من غطفان ومحارب : ألا أقتل لكم محمدًا ؟ قالوا : بلى وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به ، قال : فأقبل إلى رسول الله (ﷺ) وهو جالس ، وسيف رسول الله (ﷺ) فى حجره فقال : يامحمد ، انظر إلى سيفك هذا ؟ قال : نعم وكان محلى بفضة فأخذه فاستلّه ثم جعل يهزه ويهمّ فيكبته الله . ثم قال : يامحمد ، أما تخافنى ؟ قال : لا ، وما أخاف منك ؟ قال : أما تخافنى وفى يدى السيف ؟ قال : لا ، يمنعنى الله منك ، ثم عمد إلى سيف رسول الله (ﷺ) فردّه عليه ، قال فأنزل الله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة : ١١ .

غزوة دُومَةِ الْجَنْدَلِ

«دُومَةُ الجندل» : هى واحة على الحدود تقع ما بين الحجاز والشام .

وسبب هذه الغزوة : أن رسول الله (ﷺ) علم أن بهذا المكان مجموعة كبيرة من الناس يظلمون من مرّ بهم ، ويريدون الاقتراب من المدينة ، فدعا أصحابه إلى الخروج ، فخرجوا فى شهر ربيع الأول سنة خمس فى ألف ، واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغفارى وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار ، ومعهم هادٍ اسمه «مذكور» فلما اقتربوا من المكان هجموا على الماشية والرعاء وأصابوا من أصابوا ، وتفرق من كان هناك ونزل الرسول (ﷺ) بساحتهم فلم يبق أحد هناك وأقام بعض أيام ونشر السرايا والعيون وأصاب منهم محمد بن سلمة وقد عرض عليه الإسلام فأسلم وعاد رسول الله (ﷺ) إلى المدينة بعد أن مكث شهرا .

وكانت هذه الغزوة مقاومة ومواجهة للظالمين الذين يؤذون المارّين بهذا المكان ، كما كان فيها إعلان عن قوة الإسلام وقدرته على مواجهة من يعادى المسلمين ، ونشر دعوة الإسلام بين سكان البوادى والأطراف وهى أول غزوة بعيدة عن المدينة من جهة الشام ، ولذا كانت هذه الغزوة تدريبا للجيش الإسلامى على خوض المعارك فى الأماكن النائية ، وهى بمثابة البداية للفتوحات المقبلة وعند عودة الرسول (ﷺ) صالح عيينة بن حصن الفزارى وكانوا يلقبونه «الأحمق المطاع» حيث كانوا يتبعونه ولا يسأله أحد عن سبب غضبه ، وأقطعه الرسول (ﷺ) أرضا يرعى فيها دوابه لأن أرضه كانت أجدبت .

غَزْوَةُ بَنِى المُصْطَلِق أو المُرَيسِيع

المصْطَلِق : لقب جُزيمة بن كعب وهم بطن من خزاعة ،
والمريسيع : ماء بنى خزاعة .

عن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) أن النبى (ﷺ) أغار على بنى المصطلق وهم غارّون وأنعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأصاب يومئذ جُوَيرية (رضى الله عنها) .

وجاءت هذه الإغارة نتيجة طبيعية لهؤلاء القوم الذين ساعدوا قريشا على حرب المسلمين فى غزوة أُحُد ، فقد بلغ الرسول (ﷺ) أنهم جمعوا جموعهم لحربه فى شعبان من السنة الخامسة .. وخرج رسول الله (ﷺ) فى سبعمائة من أصحابه حتى دهموهم عند «المريسيع» وهم فى غفلة فقتلوا الطائفة المقاتلة منهم وأسروا الباقين ولم يستشهد من المسلمين إلا هشام بن صبابة الذى قتل خطأً من أحد الأنصار ظنا أنه من الأعداء وكانت هذه الإغارة جزاء وفاقا لهؤلاء الذين بيتوا الشر للمسلمين ، قال تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1] .

وأما بالنسبة لموقف الرسول (ﷺ) من الأسرى فقد كان تصرفا حكيما تبين بعد النظر فيه ، وماله من أسمى النتائج التى ترتبت عليه ، وذلك أن الرسول (ﷺ) كما قالت السيدة عائشة (رضى الله عنها) ، لما قسّم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جُويرية بنت الحرث فى السهم لثابت بن قيس الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها ، فأتت رسول الله (ﷺ) تستعينه فى

(١) سورة الأنفال : (٥٨) .

كتابها ؛ فقالت : يا رسول الله أنا جويرية بنت الحرث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت ابن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على كتابتى ، قال : «فهل لك من خير من ذلك ؟» قالت : «وما هو يا رسول الله ؟» قال : «أقضى عنك كتابتك وأتزوجك» قالت : نعم يارسول الله ، قال : «قد فعلت» ، عندئذ قال المسلمون : أصهار رسول الله (ﷺ) يُسترقون ؟ ! فأطلقوا مَنْ بأيديهم ، قالت عائشة : لقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها ، وترتب على هذا أن أسلم بنو المصطلق جميعا وأصبحوا عونا للمسلمين بعد أن كانوا أعداء .

وفى رواية أخرى : أن أباها جاء فى فدائها بإبل وفى الطريق غيّب بعيرين ضنّاً بهما ، فلما قدم قال له الرسول (ﷺ) : «أين البعيران اللذان غيبتهما فى شعب كذا ؟!» ، فقال الرجل : والله ما اطلع على هذا إلا الله ، فأسلم وأسلم من معه ، وأحضر البعيرين وسلمت إليه ابنته فأسلمت وخطبها الرسول (ﷺ) من أبيها فزوّجه إياها .

غزوةُ الخَنْدَقِ «الأحْزَاب»

وقعت غزوة الخندق فى شهر شوال فى السنة الخامسة من الهجرة .

وسببها : أن قريشا كانت تودُّ أن تنال من رسول الله (ﷺ) والمسلمين بعد ما أصابها من خزى ونكسة لأنها نكصت عن الخروج فى بدر الأخرى ، كما كان الأعراب الذين نال منهم النبى (ﷺ) وأصحابه يرغبون فى الانتقام وكان يهود بنى قينقاع وبنى النضير الذين أجلاهم النبى (ﷺ) عن المدينة فى غيظ فسعوا للقضاء على المسلمين الذين أجلوهم ، ونسوا عفو الرسول (ﷺ) عنهم ، فتجمعت هذه القوى لمحاربة المسلمين ، فكانت غزوة الأحزاب .. لقد خرج وفد من اليهود على رأسهم حُيَى بن أخطب النضرى وسلاّم بن أبى الحُقيق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ونفر من وائل حتى قدموا على قريش فدعوهم إلى حرب النبى (ﷺ) ، فرحبت قريش وقائدهم أبو سفيان ، وخرجت غطفان وقائدهم عُيينة بن حصن الفزارى .

ولما علم الرسول (ﷺ) بذلك لم يأخذ قرارا قبل أن يستشير أصحابه كما هى عادته فى مثل هذه الأمور ، فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة من الجهة التى يتوقع أن يأتى العدو منها .. فأخذ رسول الله (ﷺ) بمشورة سلمان رضى الله عنه وأخذ يطبقها بالفعل ويعمل مع المسلمين بنفسه تشجيعا لهم وتحصيلا للثواب وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف ، وعدد الذين تجمعوا من قريش والأحزاب والقبائل عشرة آلاف .

وبينما كان المسلمون يعملون فى حفر الخندق إذ صخرة اشتدت عليهم ؛ فجاءوا إلى رسول الله (ﷺ) فأخذ المعول وقال «باسم الله» وضرب ضربة فكسر جزءا من الصخرة فكبر صلوات الله وسلامه عليه وقال : وأعطيت

مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا» .. ثم قال : «باسم الله» وضرب ضربة ثانية فكسر جزءا آخر ، فكبر صلوات الله عليه وسلامه وقال : «أعطيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا» ثم قال : «باسم الله وضرب الثالثة ثم كبر» وقال : «أعطيت مفاتيح فارس والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن» ثم قال صلوات الله وسلامه عليه لسلمان الفارسى : «هذه فتوح يفتحها الله بعدى ياسلمان» وكان المسلمون يرتجزون وهم يحفرون الخندق قائلين :

نحن الذين بايعوا محمدًا على الإسلام ما بقينا أبدا

فيجيبهم قائلا : اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة

فبارك فى الأنصار والمهاجرة

ومن المعجزات التى أجراها الله تعالى على يد رسول الله (ﷺ) فى هذه الغزوة ماروى عن جابر رضى الله عنه قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبى (ﷺ) ، فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا ، فأخذ النبى (ﷺ) المعول فضرب ، فعاد كثيبا أهيل (أو أهيم) فقلت : يارسول الله ، ائذن لى إلى البيت ، فقلت لامرأتى : رأيت بالنبى (ﷺ) شيئا ما كان لى فى ذلك صبر ، فعندك شىء ؟ قالت : عندى شعير وعَنَاق [هى الأنثى من المعز] فذبحوا العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ، ثم جئت النبى (ﷺ) والعجين قد انكسر ، والبرمة بين الأثافى [هى الحجارة التى يوضع القدر عليها] قد كادت أن تنضج ، فقلت : طعيم لى ، فقم أنت يارسول الله ورجل أو رجلان . قال : «كم هو ؟» فذكرت له قال : «كثير طيب ، فقل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى» ثم نادى المهاجرين والأنصار فقال لهم : «قوموا» وفى طريق أخرى

فصاح النبى (ﷺ) : «ياأهل الخندق إن جابرًا قد صنع سورًا [الصنيع العام من الطعام] فحى هلا بكم ، فلما دخل جابر على امرأته قال : ويحك جاء النبى بالمهاجرين والأنصار ومن معهم ، قالت : هل سألك : كم طعامك ؟ قال : نعم ، قالت : الله ورسوله أعلم ، ثم جاء النبى (ﷺ) فقال : ادخلوا ولا تضاغطوا ، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمّر البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا ، وبقى بقية قال : «كل هذا واهدى ، فإن الناس أصابتهم مجاعة» وفى رواية أخرى : فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى وإن عجيننا ليخبز كما هو»[1] .

وقد بعث الرسول (ﷺ) إلى عيينة بن حصن قائد غطفان يقول له : «إن لك ثلث تمر المدينة على أن ترجع بمن معك من غطفان» ، فرضى عيينة بذلك ، وعلم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فأتيا إلى رسول الله (ﷺ) ، وقالا له : يارسول الله ، أهذا الذى بعثت به إلى عيينة بن حصن أمر أمرك به ربك أم هو صنيعة تصنعها لنا ؟! فقال النبى (ﷺ) : «لا بل هو صنيعة أصنعها لكم لما رأيت من شدة الأمر عليكم» ، فقال سعد بن معاذ : يارسول الله ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وكان هؤلاء القوم لا يطمعون أن يأكلوا تمرة واحدة من تمر المدينة إلا عن قرى أو بيع ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا بك وبه سبحانه نعطيهم أموالنا ؟ ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله (ﷺ) : «ياسعد أنت وذاك» وكان رسول الله (ﷺ) لا يفتر عن الدعاء والتضرع والاستغاثة وكان من دعائه :

---

(١) رواه البخارى.

«اللهمَّ مُنزلَ الكتابِ ، سَريعَ الحِسَابِ ، اهزم الأحزابَ ، اللهمَّ اهزمْهُمْ وزَلْزِلْهُمْ»[1] .

وقد اقتحمت خيل للمشركين الخندق من مكان ضيق ، فأبصرهم على ابن أبى طالب وجماعة من المسلمين وأحاطوا بهم فولوا منهزمين .. وشاء رب العالمين ، أن يفرق أعداء الدين ويبدد شملهم فدبَّ الخلاف بينهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، وأرسل عليهم الريح ليلا فأكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم ، وهدمت منازلهم ، وأرسل الملائكة فمزقوهم شر ممزق ، وما أحد منهم يبصر أين هو ؟! وولّوا منهزمين قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) ﴾[2] .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة الأحزاب : ٩ – ١١

غزوة بَنِي قُرَيْظَة

لما رجع رسول الله (ﷺ) من غزوة الخندق ، ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل عليه السلام فقال : «قد وَضَعْتَ السلاحَ ؟ والله ما وضَعْناه ، فاخْرُجْ إليهم» قال : «فإلَى أين ؟» قال : هَهُنا ، وأشار إلى بنى قريظة ، فخرج النبى (ﷺ) إليهم[1] .

ونادى رسول الله (ﷺ) فى المسلمين : «ألا لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلا فى بَنِي قُرَيظة» فسار الناس ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ؟ فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، ولم يرد منا ذلك ، فذكروا ذلك للنبى (ﷺ) فلم يُعَنِّف واحدا منهم[2] .

وأرسل الرسول (ﷺ) على بن أبى طالب إلى بنى قُريظة ومعه رايته فاتبعها الناس ، ولحق رسول الله (ﷺ) بهَ ، وتلاحق المسلمون وحاصر رسول الله (ﷺ) بنى قُريظة - وهم متحصّنون فى حصونهم - خمسا وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب فلما رأوا أن رسول الله (ﷺ) غير منصرف عنهم قال كعب بن أسد لليهود : يامعشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثة ، فخذوا أيها شئتم ، قالوا : فما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل وأنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا ، قال : فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى .

نخشى عليه ، قالوا : فما ذنب المساكين ؟ قال : فإن أبيتم هذه أيضا فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة ، فأبوا ذلك أيضا . فنزلوا على حكم رسول الله (ﷺ) وكان بين بنى قريظة والأوس حلف ، فجعل رسول الله (ﷺ) الحكم لواحد من رؤساء الأوس وهو سعد بن معاذ ، وكان قد أصيب بسهم فى غزوة الخندق فكان يداوى فى خيمة هناك ، فلما دنا من مكان هناك أعده مسجدا ، قال رسول الله (ﷺ) للأنصار : «قوموا إلى سيدكم أو خيركم ، ثم قال إن هؤلاء نزلوا على حكمك» قال : تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم ، فقال له النبى (ﷺ) : «قضيت بحكم الله تعالى»[1] . وفى رواية : «لقد حكمت فيهم حُكْمَ الله من فوق سبع سماوات» ثم قتلوا وهم بين السبعمائة والثمانمائة .

فلما انقضى أمرهم انفجر جُرح سعد بن معاذ من السهم الذى أصابه يوم الخندق فمات شهيدًا (رضى الله عنه) ، وجاء جبريل (عليه السلام) إلى النبى (ﷺ) وقال له : «من الذى مات من أصحابك ففتحت له أبواب السماء واهتز لموته العرش ؟» فذهب رسول الله (ﷺ) إلى مكان سعد فوجده قد مات ، وكان سعد بدينا ، فلما حمل فى نعشه قال حاملوه : ما وجدنا أخف منه حملا ، فقال النبى (ﷺ) : «إن له حملة غيركم وإن الملائكة قد استبشرت بروح سعدٍ واهتزَّ له العرشُ» وقال (ﷺ) : «اهتز العرشُ لموت سعدِ بن مُعاذ»[2] . رضوان الله عليه ، وسلام عليه فى مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

صلح الحديبية

يطلق على ماوقع فى الحديبية ، غزوة الحديبية ، وصلح الحديبية . وعمرة الحديبية .

كانت غزوة الأحزاب وماتلاهامن غزو بنى قريظة فى آخر السنة الخامسة من الهجرة ومن غزوات بنى لحيان ، والغابة ، وبنى المصطلق ، ومن إنفاذه نحو عشرة سرية لمعاقبة بعض القبائل المجاورة للمدينة ، وتأديبهم على ماارتكبوه من جرائم ، ولبيان قوة الإسلام .

ولاشك أن هذه الغزوات والسرايا بثت الذعر فى القبائل العربية ، وأثرت فى قريش تأثيراً كبيراً ، لأن الأحداث كلها كانت تشير إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لابد أن يذهب إلى مكة بلده الذى أخرج منه، مسقط رأسه ، ومكان البيت الحرام وقد حسبت قريش لذلك ألف حساب . وكانت قد آلت على نفسها منذ هاجر الرسول والمسلمون معه أن يصدوهم عن المسجد الحرام ، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب .

انقضت ست سنوات منذ الهجرة ، والمسلمون يتحرقون شوقاً يريدون زيارة الكعبة ويريدون الحج والعمرة ، وإنهم لمجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبى بما ألهم فى رؤياه الصادقة : أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لايخافون : فما كاد القوم يسمعون إلى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى علا بحمد الله صوتهم ، وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة فى سرعة البرق الخاطف ، ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام؟ أفيحاربون فى سبيله؟ أفيحاربون قريشاً عنوة؟ أم ستفتح قريش لهم طريقه مذعنة صاغرة .

كلا الاقتتال ، ولا حرب ، بل أذن الرسول فى الناس بالحج فى شهر ذى القعدة الحرام حتى لا تفكر قريش فى صده عن مكة ، ولا يتسرب إليها الظن أن له هدفا غير الحج وأوفد إلى القبائل المحالفة له من غير المسلمين حتى يعلم العرب جميعاً أنه خرج حاجا ، ولم يخرج غازياً ، وأنه أراد أداء فريضة فرضها الإسلام . كما فرضتها أديان العرب من قبل ، فإن أصرت قريش مع ذلك على مقاتلته فى الشهر الحرام ومنعته من أداء مايؤمن العرب على اختلاف آلهتهم به . لم تجد قريش من العرب من يؤيدها فى موقفها ، ولا من يعينها على قتال المسلمين وبذلك يأمن المسلمون أن تجتمع العرب عليهم اجتماع الأحزاب من قبل(١) . ولكن القبائل العربية غير المسلمة أبطأت عليه لأنهم ظنوا ألا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وتخلصوا بأن قالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا .

فخرج عليه السلام بمن معه من المهاجرين والأنصار ، وكان عددهم ألفاً وخمسمائة ، ولم يكن معهم شىء من السلاح . إلا مايحمله كل مسافر وهو السيف فى قرابه .

ركب الرسول ناقته القصواء ، وأصحابه من خلفه وكلهم أحرم بالعمرة ، وساقوا هديهم سبعين بدنة ، ليعلم الناس أنه لايريد قتالا ، وأنه إنما خرج زائراً بيت الله الحرام . معظما له . فلما بلغوا ذا الحليفة - ميقات أهل المدينة بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة - دوى صوت الجميع بالتلبية إعلاناً عن عمرتهم التى أحرموا بها .

لكن قريشاً بمجرد علمها أن المسلمين يقصـــدون مكة . أخذت فى الإستعداد للحرب ، ولم يصدقوا أن هدف الرسول الحج ، وعقدوا النية

---

(١) راجع نبى الرحمن ٩٢ وابن الأثير ج ٢ ص ١٢٣ و ١٢٦ ونور اليقين ص ٨٦ وحياة محمد ص ٢٦٣ و ٢٦٦

على صد النبي عن مكة مهما كلفهم الأمر. وكان النبي قد وصل عسفان على بعد يومين من مكة، وبعسفان جاءه من أخبره أن قريشاً أجمعت رأيها على صده، وتجهزت للحرب، وتقدمت الطليعة من الفرسان إلى ذى طوى، وعسكرت به لصد الرسول عن التقدم.

ولما كان الرسول لا يريد قتالا فقد سار بالمسلمين في طريق غير الطريق المعهود حتى وصل إلى الحديبية الواقعة على طرف حدود أراضي مكة، وهناك نزل عن ناقته القصواء ونزل المسلمون عن رواحلهم، وعلم الجيش القرشي بنزول النبي بالحديبية فأسرع إلى مكة لحمايتها، وعسكرت قريش بقواتها على جميع مداخلها.

السفارات بين الطرفين :

رأيت قريش أن توفد إلى الرسول من رجالها من يتعرف قوته من ناحية، ومن يصده عن دخول مكة من ناحية أخرى فأرسلت «بديل بن ورقاء» في رجال من خزاعة. يسألونه عن سبب مجيئه، فلما تحدثوا إليه قتنعوا بأحقيته في زيارة البيت وتعظيمه، فرجعوا إلى قومهم ليقنعوهم بما اقتنعوا به من رسول الله. ولكن قريشاً اتهموهم، وجبهوهم، وصاحوا بهم، وإن كان جاء لا يريد قتالا، فوالله لا يدخل علينا عنوة أبداً. ولا تتحدث بذلك عنا العرب: ثم بعثت قريش رسولا آخر(١) لم يسمع إلا ما سمع من قبله، ولم يغامر بأن يتهم عند قريش، وكانت قريش تعتمد فيما أعدت على حلفائها من «الأحابيش(٢)»، ففكرت أن توفد سيدهم لعله إذا رأى أن محمداً

(١) كان الرسول من بني عامر.

(٢) الأحابيش قوم من رماة العرب سموا بذلك لاسوداد لونهم أو لتجمعهم أو لأنهم يسكنون جبل «حبشى» بضم الحاء وسكون الباء في أسفل مكة.

لا يسمع له ولا يتفاهم وإياه إزداد لقريش نصرة . فزادهم على محمد قوة ، وخرج «الحليس» سيد الأحابيش قاصداً معسكر المسلمين ، فلما رآه النبي مقبلا أمر بالهدى لتطلق أمامه فأطلقت واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك الحليس رجع وقال : سبحان الله ماينبغى لهؤلاء أن يصدوا . أتحج لخم وجذام وحمير ، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ؟ هلكت قريش ورب البيت إن القوم أتوا معتمرين(١) : فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له : أجلس إنما أنت أعرابى لا علم لك بالمكايد : ثم أرسلوا «عروة بن مسعود الثقفى» سيد أهل الطائف ورجع عروة بعد أن سمع من الرسول أنه ماجاء يريد حرباً ، وإنما جاء معظماً للبيت ، مؤدياً فرض ربه وقال : يامعشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله مارأيت ملكا فى قوم قط ، مثل محمد فى أصحابه ، لايتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، وإنهم لن يسلموه لشىء أبداً فروا رأيكم :

طالت المحادثات على نحو ماقدمنا ، فرأى الرسول أن يبعث هو إلى قريش رسولا من عنده لأن رسل قريش ربما لم يكن لديهم من الإقدام مايقنعون به قريشاً بالرأى الذى يرى ، فدعا إليه «عمر بن الخطاب» كى يبلغ عنه أشراف قريش ماجاء له ، ولكن عمر اعتذر بشدة عداوة قريش له وأشار بإرسال «عثمان بن عفان» فخرج عثمان فى رسالته ودخل مكة فى جوار «أبان بن سعيد الأموى» فبلغ ماحمل فقالوا : «إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً» : ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت ، فقال : لا أطوف ورسول الله ممنوع : وطال الحديث بين عثمان وبين قريش وطال احتباس عثمان عن المسلمين ؛ فلم يعد إليهم فى الموعد المنتظر وتراءى إليهم أن قريشاً قتلته غيلة وغدراً فقال

---

(١) راجع نور اليقين ص ١٨٦ و ١٨٧ وحياة محمد ص ٢٦٦ — ٢٢٨ والحقبة المثالية ق ١ ص ١٤٢ و ١٤٢ و ١٤٣

عليه السلام حينما سمع ذلك : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب(١) .

بيعة الرضوان :

أعلن رسول الله عزمه على مناجزة قريش ، ودعا أصحابه إلى ذلك ، فبايعوه تحت شجرة كانت هناك فى الحديبية ، فبايعوه جميعاً على الموت . بإيمان ثابت وعزيمة قوية وإصرار على الإنتقام من غدر بهم ؛ وقتل صاحبهم ، عثمان وهى البيعة التى نزل فيها قوله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) .

ولما أتم المسلمون البيعة ضرب عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان ، وبهذه البيعة اهتزت السيوف فى غمودها ، وتبدى للمسلمين جميعاً أن الحرب آتية لاريب فيها وأنهم لكذلك إذ ترامى إليهم أن عثمان لم يقتل ثم لم يطل بهم الأمر حتى جاء عثمان بنفسه إليهم . على أن بيعة الرضوان هذه بقيت مع ذلك كبيعة العقبة الكبرى علما فى تاريخ المسلمين يستريح الرسول إلى ذكرها . لما كشف من متانة الروابط بينه وبين أصحابه ، ولما دل عليه من مبلغ إقدامهم على خوض مخاطر الموت لا يخافون .

شاع أمر هذه البيعة فى قريش فداخلهم منها رعب عظيم فأرسلت سهيل ابن عمرو ، لمفاوضة النبى فى الرجوع بلا عمرة على أن تسمح له قريش بالعمرة والحج فى السنة التالية فوافق النبى على عقد معاهدة فيها هذا الشرط وغيره وهى :

---

(١) راجع الكامل ج ٢ ص ١٠٧ وحياة محمد ص ٣٦٩ — ٣٧٢ ونور اليقين ص ١٨٧ - ١٨٩ والحقبة المثالية : ص ١٤٣ - ١٤٥ .

شروط صلح الحديبية :

١ - عقد هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنين ، وقيل أربع . وقيل سنتان وعلى كل حال لا يعمل أثناءها أحد الطرفين على محاربة الآخر .

٢ - من جاء المسلمين من قريش يردونه ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون رده .

٣ - أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام ، ثم يأتي العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش فيقيم فيها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القراب والقوس .

٤ - من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه .

وقد قبل عليه السلام كل هذه الشروط ، أما المسلمون فداخلهم منها أمر عظيم وقالوا : سبحان الله . كيف نرد إليهم من جاءنا مسلما ، ولا يردون من جاءهم مرتدا : ؟؟

فقال الرسول : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله لأنه وجوده في صفوف المسلمين كالمرض في الجسم السليم فالتخلص منه خير من بقائه ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا فوجوده بين المشركين لمصلحة المسلمين فقد يهدي الله به قوما آخرين ومهما طال الزمن فسيجد له مخرجاً أما الأمر الثالث وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشد تأثيراً في قلوبهم لأن الرسول أخبرهم أنه رأى في منامه ، أنهم دخلوا البيت آمنين ، وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك فقال : أبو بكر : هل ذكر أنه في هذا العام : ؟ ثم كتبت شروط الصلح بين الطرفين ، وكان الكاتب ، علي بن أبي طالب ، فأملاه عليه السلام ، بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم :

فأمره الرسول بذلك ، ثم قال : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله : فقال سهيل ، لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك اكتب محمد بن عبد الله : فأمر عليه السلام عليا بمحو ذلك وكتابة « محمد بن عبد الله » فامتنع فمحاها النبي بيده ، وكتبت نسختان نسخة لقريش ، ونسخة للمسلمين ، وشهد عليها نيابة عن المسلمين « أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة » ووقعها بأسمائهم كشهود عن قريش « حويطب بن عبد العزى ومقراظ ابن حفص » .

وما كاد هذا العهد يوقع حتى حالفت خزاعة الرسول وحالفت بنو بكر قريشاً وما كاد هذا العهد يوقع أيضاً حتى أقبل « أبو جندل بن سهيل بن عمرو » على المسلمين يريد أن ينضم إليهم ويسير معهم ، فلما رأى سهيل ابنه ضرب على وجهه ، وجعل يجره ليرده إلى قريش ، وأبو جندل يصيح بأعلا صوته : يامعشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنوني في ديني : ؟ فقال عليه السلام : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا مع القوم صلحا وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم :

ولما انتهى الأمر أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا الهدى ليتحللوا من عمرتهم فاحتمل المسلمون من ذلك هما عظيما حتى أنهم لم يبادروا بالامتثال ، فدخل عليه السلام على أم المؤمنين « أم سلمة » وقال لها : هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا : فقالت : يا رسول الله أعذرهم فقد حملت نفسك أمراً عظيما في الصلح ورجع المسلمون من غير فتح ، فهم لذلك مكروبون ، ولكن أخرج يا رسول الله وأبدأهم بما تريد فإن رأوك فعلت أتبعوك : فتقدم عليه السلام إلى هديه فنحره . ودعا بالحلاق فحلق رأسه ، فلما رآه

المسلمون تواثبوا على الهدى فنحروه وحلقوا ، ثم رجع المسلمون إلى المدينة ، وقد آمن كل فريق الآخر (١) .

دلالة صلح الحديبية وآثاره فى مستقبل الإسلام : كان صلح الحديبية كسباً كبيراً فقد أثبتت الأيام دلالته على حكمه سياسية وبعد نظر كما كان ذا أثر كبير فى مستقبل الإسلام والعرب جميعاً للأمور الآتية :

أولا : كان أول اعتراف من قريش بأن محمداً طرف معترف به له أهمية فليس مجرد ثائر خارج على التقاليد والأوضاع ، وفى هذا اعتراف بالدولة الإسلامية ، وأصبح المسلمون يقفون من قريش موقف الند للند واعترفت لهم قريش بذلك ، فكان الصلح نقطة تحول فى حياتهم ومبدأ عهد جديد وضحت فيه قوتهم .

ثانيا : اعترفت قريش بأن الإسلام دين مقرر معترف به فى الجزيرة العربية ، وقد كانت لا تعترف به قبل ذلك ، وأصبحت القبائل العربية لا تهيب الانضمام إلى المسلمين ما دامت قد التزمت بتأمين من يدخلون فى حماية الرسول وحلفه .

ثالثا : الهدنة التى حدثت فى الصلح أتاحت الفرصة للمسلمين أن يطمئنوا من جانب قريشا نهائيا ، وأتاحت الفرصة كذلك لانتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجا بعد أن عرف العرب أن محمداً رسول سلام لا رسول حرب كما كانت دعايات قريش .

رابعا : مكن هذا الصلح لرسول الله من التفرغ لمخاطبة الملوك وتوسيع دائرة الدعوة ونقلها إلى كل العناصر والأمناكن فأرسل إلى هرقل وإلى كسرى نجاشى الحبشه وإلى الحارث الغسانى وإلى باذان عامل كسرى على اليمن وإلى

---

(١) نور اليقين ص ١٩١

أمير البحرين وأمير اليمامة وهؤلاء هم القوى السياسية المحيطة بالجزيرة العربية فخرجت الدعوة الإسلامية إلى نطاق عالمي، وإلى نطاق الإنسانية العام، كما كانت هذه الرسائل نقطة الانطلاق بهذا الدين إلى كل من بلغهم العلم به.

خامسا: لم تلبث قريش أن تنازلت عن شرط منع المسلمين فى مكة من الذهاب إلى المدينة بعد أسلم «أبو بصير» وفر إلى مكان على ساحل البحر: الأحمر فى طريق تجارة قريش إلى الشام.

ومن أجل هذه المكاسب التى طواها صلح الحديبية سماه الله عزوجل فتحا مبينا، ونزلت فيه سورة «الفتح»، وقال فيه أبو بكر: ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعملون والله لايعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد:

وفى هذا الوقت أراد الرسول أن يفرغ من اليهود جميعاً حتى تهدأ الأحوال فى الجزيرة العربية فغزا خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء ودانت العناصر اليهودية لسلطان الرسول وأصبح رسول الله فى مأمن من ناحيه الشمال إلى الشام كما أصبح فى مأمن من الجنوب بعد صلح الحديبية، وإلى القارىء الكريم تلك الغزوات بإيجاز:

غزوة خيبر: تقع خيبر فى شمال المدينة على بعد مائة ميل منها وهى واحة كبيرة خصبة بها نخل كثير، ومزارع واسعة وحصون عالية مقامة بين النخيل والحقول على مرتفعات من الأرض تزيدها حصانة ومناعة، وكان اليهود الذين أجلاهم النبى عن المدينة، نزل بعضهم فى خيبر، والقرى المتصلة بها، والداخلة فى نفوذها مثل وادى القرى وفدك وتيماء. بينما تابع بعضهم الآخر سيرهم إلى الشام.

وكان ممن ذهب إلى خيبر زعماء بنى النضير، ومن هذا الموقع بدؤا يدبرون المكايد، وطريقة الانتقام لأنفسهم ولدينهم ظانين أن يد الرسول

ان تصل إليهم وكان من أهم ماقاموا به تحريض قريش على الرسول وتحالفهم معهم ، ثم ذهابهم إلى غطفان وتحالفهم معهم أيضا وجمع الأحزاب ، ثم اقناعهم ليهود بنى قريظة بنقض عهدهم مع الرسول . وجمع الأحزاب ، وزحفهم على المدينة ذلك الزحف الخطير الذى كان من نتائجه أن زلزل المسلمون زلزالا شديدا .

ولكن الله نصر المسلمين نصراً رائعا وتم القضاء على بنى قريظة ، كما عرفنا وكان من المنتظر أن يقف نشاط اليهود ، وأن يرتدعوا بما حدث للقرظيين .

ولكنهم مازالوا فى غيهم سادرين ، واستمروا فى نشاطهم و ... يحضهم قبائل غطفان وغيرها على غزو المدينة ، ومن هؤلاء (سلام بن ا لحقيق) زعيم بنى النضير الذى جعل لغطفان جعلا لحرب رسول الله وجعل لبنى سعد بن بكر تمرا من خيبر وعلم النبى بذلك فبعث بعثا من الأنصار بقيادة « عبد الله بن عتيك » الذى كان يعرف اللغة العبرية ، فاستطاعوا بذلك أن يدخلوا عليه ويقتلوه وقد تصايح اليهود وخرجوا إليهم فى ثلاثة آلاف ولكنهم أفلتوا منهم ووصلوا سالمين ، فأمر اليهود عليهم فى خيبر « أسير بن رزام » فصار يجمع الأحزاب لحرب المسلمين فأرسل رسول الله « عبدالله ابن رواحة » فى جماعة فقتلوه هو ومن معه وكانوا ثلاثين شخصا .

وهكذا صار الرسول يرسل سراياه للتنكيل بالمتآمرين وفى عزمه أن يطهر شمال المدينة من الرجس ، ولكن يظهر أنه أخر ذلك لأنه كان لا يزال فى حالة حرب مع مكة فلما عقد معها صلح الحديبية ، وأمن ظهره من الجنوب زاد حنق اليهود ، ولجأوا إلى سلاحهم الدنىء ، هو سلاح الشائعات الكاذبة لبلبلة الأفكار ، وإشاعة الأقاويل ضد الإسلام والمسلمين فما أن تناهى إلى علمهم أن الرسول عقد صلحا مع قريش ـ صلح الحديبية ـ حتى أثاروا شائعة هى : أن النبى والمسلمين كانوا ذاهبين لفتح مكة ، فلما لم يقدروا

لضعفهم وقلتهم عقدوا صلحا ويظهر أن بعض القبائل العربية فى نجد صدقت هذه الشائعة ، فبدءوا يستعدون للتحالف مع اليهود وكان علم ذلك يصل إلى الرسول فيباغتهم ويمزقهم شر ممزق فتغير الموقف لأن القبائل الكثيرة التى كانت تقف موقف المتربص ، تبدل موقفها ، فأخذت تتقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلام بالتعاهد ، والدخول فى الإسلام ، بل أخذ يفد وافدون على النبى من وراء مكة ، ويدخلون الإسلام من الأشاعرة ، اليمنيين الذى جاءوا وعلى رأسهم « أبو موسى » وشهدوا حرب خيبر . حينئذ . عزل اليهود وصاروا وحدهم فكانت . الفرصة مهيأة لغزوهم ، فلم يكن الرسول متعديا عليهم ، بل كان يدفع عن نفسه وأتباعه ودعوته أذى قوم أكل الحقد قلوبهم ، فدأبوا على الكيد للإسلام والمسلمين ، ولم يكن طامعا فى أموالهم كما زعم كثير من المستشرقين من أمثال مرجليوث فى كتابه محمد وظهور الإسلام ص ٣٦٢ .

فسار الرسول إليهم فى المحرم من السنة السابعة للهجرة بألف وستمائة مقاتل فيهم مائتان من الفرسان ، وإن هذا الجمع فى مسيره إلى تطهير أرض الجزيرة من عنصر اليهود أو تقليم أظفارهم . كانت علامات البشر بادية على وجوههم وصدرت أوامر رسول الله إلى عامر بن الاكوع أن يتولى حداء القافلة ليشحذهم القوم ، ويجدد نشاط الإبل فنزل عامر بن الأكوع يحدو الإبل بهذه الأبيات :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
أنا إذا صيح بنا أتينا وبالصياح عولوا علينا

وهكذا قطع المسلمون الطريق إلى خيبر فلما تراءت لهم حصونها المنيعة الكثيرة وأشرف عليها رسول الله أمر أصحابه بالوقوف ثم رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين

وما أقللن ، ورب الرياح وما أذرين ، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير مافيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر مافيها ، أقدموا باسم الله - ولا غرابة أن يأمر الرسول أصحابه بالوقوف أمام خيبر ويدعو ربه الذى لاملجأ له سواه ، ولا معين غيره ، فتلك عادته صلى الله عليه وسلم فى جميع مواقفه لاسيما أمام حصون خيبر فالاستيلاء على حصونها ليس بالأمر الهين فهى تقع فى منطقة صخرية ، وتربتها بركانية خصبة بالنخيل،والحبوب الغذائية وكان أهلها أعرف بشئون الحرب ، وعندهم آلات تخريب ودفاع عن الحصون وكانوا أقوى طوائف اليهود بأسا ، وأكثرهم سلاحا.لكنهم كبكل اليهود يغلب عليهم الجبن ، ولا يحاربون إلا أمام حصونهم (لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر) وكان الرسول يعرف فيهم هذه الطبيعة ، فأعد للأمر عدته وكان وصول المسلمين إلى خيبر ليلا ، فلما كان الصباح فوجىء يهودها برسول الله يقول : الله أكبر خربت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين : وردد أصحابه التكبير فدوى صوتهم فى الفضاء ، وتردد صداه فملأ الجو فزعا ، ورعباه أستيقظ أهل خيبر على هذا الصوت فزعين فأسقط فى أيديهم وأعتصموا بحصونهم وهى كثيرة منها ناعم . والصعب والنطاة وهذه فى وادى السرير ومنها القموص ، والوطيح والسلالم . لحاصرها رسول الله حصنا حصنا ، وأستولى على مافيها من أموال وسلاح بعد أن قاتل اليهود على حصونهم وأرضهم شبرا شبرا ، وكلما ظهر منهم زعيم معتد بنفسه دحر أمام قوات المسلمين وثباتهم، وتلعب الفدائية الإسلامية دورها فى نفوس وقلوب المقاتلين المسلمين ، ويقدم المسلمون فيها نماذج للبذل والتضحية كى يتخلصوا من كل آلامهم وضيقهم من مطاردات ومؤامرات اليهود ضدهم ، وقد أستمر القتال سبعة أيام فى نهايتها صرخ اليهود ، وطلبوا الاستسلام والحفاظ على أنفسهم ، ودارت مفاوضات بين الفريقين أنتهت بمجموعة من القواعد أتفق عليها وكان منها .

١ ــ أن يحقن الرسول دماءهم ويطلق أسرام .

٢ ــ أن يقيهم على أرضهم التى آلت للمسلمين بحكم الفتح على أن يكون لهم نصف ثمرها نظير عملهم ولعل رسول الله عامل يهود خيبر بغير ما عامل به إخوانهم من بنى قينقاع وبنى النضير للأسباب الآتية .

أولا : أنه بسقوط خيبر آمن بأن اليهود لن تقوم لهم قائمة بعد ذلك أبداً .

ثانيا : لأن الأرض الزراعية التى آلت إليهم من خيبر . بحدائقها وزروعها ونخيلها كانت تحتاج إلى الأيدى العاملة وليس يوجد فى المدينة من الأنصار من يستطيع القيام بحاجـــة أرض خيبر إلى جوار بساتينهم فى المدينة .

ثالثا : كان النبى فى أشـــد الحاجة إلى جنوشه التى تعمل معه فى ميادين الحرب فليس من الحكمة أن يطرد يهود خيبر ليحل محلهم جنوده وصفوة جيشه للعمل فى زراعة أرض اليهود الراحلين فكان الأمر يقتضى بقاء أهل خيبر فى أرضها ليقوموا بزراعتها بالنصف للمسلمين ،وهذا يدل على أن النبى محمد لم تكن رغبته فى الحصول على الأموال كما يزعم « مرجليوث » لأنه لوكان كذلك لاختص بها دون اليهود ، وكان الرسول راغبا عن حطام الدنيا كما أجمع على ذلك المؤرخون . هذا وقد قسم الرسول غنائم خيبر فقسم أربعة أخماسها بين المجاهدين وأعطى جميع من حضر الحديبية سواء حضر خيبر أم لم يحضرها وأعطى من خمسه ما أراه الله .

يهود فدك : من غير شك أن سقوط حصون خيبر المنيعة ألقى الرعب فى قلوب يهود المنطقة ، ومنهم يهود فدك فإنه حينما أرسل إليهم الرسول : إما أن يسلموا أو يسلموا سارعوا إلى إعلان رغبتهم فى الصلح

على نصف ما بأيديهم من غير قتال ، فكانت خيبر للمسلمين الذين قاتلوا عليها ، وكانت فدك من نصيب رسول الله لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب .

يهود وادى القرى : تجهز الرسول بعد ماسبق الرجوع إلى المدينة عن طريق وادى القرى فوجد أهلها قد تجهزوا للقتال فقاتلهم حتى اضطروا للإذعان والصلح على ما اصطلحت عليه خيبر وأقام عليه عاملا هو « عمرو بن سعيد بن العاص » .

يهود تيماء : وصنع يهود تيماء كما صنع أهل فدك بمجرد علمهم بما أصاب أهل وادى القرى ، فرغبوا فى الصلح على أن يدفعوا الجزية من غير حرب ولا قتال .

وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبى، وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى جزيرة العرب ، وأصبح الرسول بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام . كما صار من قبل ذلك بمأمن من الجنوب بعد صلح الحديبية .

عموم الرسالة : أسلفنا فى آثار صلح الحديبية . أنه أتاح الفرصة لانتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجا ، وأنه مكن لرسول الله من التفرغ لمخاطبة الملوك والأمراء ، وتوسيع دائرة الدعوة ونقلها إلى كل العناصر والأماكن ، وأنها خرجت بذلك إلى نطاق الإنسانية العام . وماذلك إلا لأنها دعوة إنسانية عامة ، تصلح حال المجتمع البشرى وتنقذه مما تردى فيه وتأخذ بيده إلى الإصلاح والسلام ، فالدعوة المحمدية كانت دعوة لإنقاذ جميع الناس وفى هذا المعنى يقول الله تعالى .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ويقول الرسول : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة :

ويقول : بعثت إلى الأحمر والأسود : ويروى أنه خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم : إنى بعثت رحمة للناس كافة فأدوا عنى يرحمكم الله ولا تختلفوا على كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم : إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تدل دلالة قاطعة على أن رسالة الرسول كانت للناس كافة ، لأنها رحمة لهم فهى لم تخرجهم من ظلمات الجهالة ، وما انغمسوا فيه من وثنية ، وعبادة أصنام، إلى عبادة الله الواحد القهار فحسب بل تناولت صورا من النشاط الاجتماعى يحقق للإنسان مثلا عليا وحياة كريمة، ووازنت بين الروح والمادة . بحيث لا تطغى إحداهما على الأخرى ، ودعت إلى التعايش السلمى بين جميع الشعوب ، واحترمت الدعوة الحرية الشخصية ، ونهت عن الاعتداء والبغى، ووضعت للأسرة نظاما يضمن سعادتها، ويكفل حقوق أفرادها وأباحت الكسب الحلال ، وحرمت السرقة والاغتصاب والربا والقهر وكل مايؤدى إلى الاستيلاء على حق الغير دون مقابل ، وعالجت مشكلة الرق علاجا ناجعا . وحثت على معاملة الرقيق معاملة إنسانية كريمة إلى غير ذلك من التشريعات التى تضمن لصاحبها السعادة فى الدنيا وفى الآخرة ، وحيث اتصفت الدعوة بتلك الصفات وغيرها كان لابد للداعى الشغوف الذى ملىء قلبه بالرحمة أن يخرج بها إلى النطاق العالمى ليؤدى رسالته ، ويبلغها للناس كافة ليسيروا على الطريق المستقيم ، وليبلغ للناس ماأمره الله بتبليغه (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) .

فلهذه المعانى السامية أرسل إلى جميع الملوك والأمراء فى الجزيرة العربية ، والمحيطين بها . الكتب والرسل وهذه الكتب متحدة فى جوهرها وإن اختلفت بعض الاختلاف فى أسلوبها فتتحد فى الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده فأرسل إلى هرقل قيصر الروم دحية بن خليفة الكلبى ، وإلى

كسرى ملك فارس عبد الله بن حذافة السهمى ، وإلى نجاشى الحبشة عمرو ابن أمية الضمرى ، وإلى ملكى عمان عمرو بن العاص السهمى وإلى المقوقس حاكم مصر . حاطب بن أبى بلتعه ، وإلى ملك اليمامة . سليط بن عمرو وإلى ملك اليمن المهاجر بن أبى أمية المخزومى ، وإلى الحارث بن أبى شمر أمير دمشق . شجاع بن وهب وإلى الحارث الغسانى أمير تخوم الشام . الحارث ابن عمير الأزدى وانطلق هؤلاء الرسل يحملون كتب الرسول مختومة بخاتم نقش عليه « محمد رسول الله » فى وقت واحد على قول أكثر المؤرخين أو انطلقوا فى أوقات مختلفة على قول بعضهم . ويبدو أن بعضهم سافر قبل غزو الرسول لخيبر والبعض الآخر بعد الغزو ، فقد جاء فى أكثر من رواية : أن دحية بن خليفة الكلبى شهد خيبر ثم ذهب برسالة هرقل إلى حمص حيث سلمها إليه هناك ، وفى نفس الوقت بعث الحارث الغسانى - حاكم تخوم الشام من قبل الروم - إلى هرقل يخبره أن كتابا وصله من « محمد » فرأى هرقل شبهه بالكتاب الذى أرسل إليه ، وكان الحارث يستأذنه فى أن يذهب على رأس جيش لمعاقبة هذا الرجل الذى يدعى النبوة لكن هرقل آثر السلامة وطلب منه أن يكون فى استقباله ببيت المقدس حين يصل إليه للاحتفال برد صليب الصلبوت - الذى كان الفرس قد استولوا عليه - إلى مكانه ببيت المقدس ، وتظاهر بعدم الاكتراث بهذا الداعى إلى دين جديد ، وقد كان الكتاب إلى قيصر الروم : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله . إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين(١) : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك

---

(١) الفلاحين ، ومن معانيها الخدم والحشم . يريد أنه مسئول عن إثم رعيته لصده إياهم عن الدين (راجع النهاية لابن الأثير ومعجمات اللغة مادة « أرس »

به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

وحينما وصل الكتاب هرقل قال : انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه - وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة - لجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة القيصر فأجاب ، ولما قدموا عليه في القدس قال الترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا ! فأدناه منه وجعل أصحابه خلفه ، وسأله عن أشياء كثيرة في نهايتها آمن هرقل بأنه سيملك موضع قدميه ، فلما سار إلى حمص أذن لعظماء الروم أن يلتقوا به . ثم أمر بالأبواب فأغلقت ، وبين لهم أن الفلاح في اتباع هذا النبي لحاصوا حيصة حمر الوحش وحصل هرج ومرج نخاف على ملكه فقال : إني أريد اختبار شدتكم على دينكم(١) ورد هرقل دحية الكلبي رداً جميلا . وكذلك رد المقوقس عظيم القبط وحاكم مصر رداً جميلا فقد أكرم رسول رسول الله ، وقال في كتابه : وقد بعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط ، وبثياب ، وأهديت لك بغلة تركبها .. الخ ، ومثلهما في التلطف نجاشي الحبشة فقد قال لعمرو : إني أعلم - والله - إن عيسى بشر به ، ولكن أعواني بالحبشة قليل فانظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب : وأسلم المنذر ابن ساوى أمير البحرين ، وكذلك أسلم أميرى عمان (جيفر وعبد ابنى الجلندى) .

وأما كسرى ملك فارس فقد استشاط غضباً من كتاب الرسول ومزقه ، وكتب إلى باذان . عامله على اليمن يأمره أن يبعث إلى الحجاز رجلين جلدين يأتيانه برأس هذا المدعى للنبوة ، فلما بلغت رسول الله مقالة

---

(١) راجعوها في صحيح البخارى . حديث هرقل .

كسرى وما فعله بكتابه قال : مزق الله ملكه : فاستجاب الله دعاءه ؛ وانتزع ابنه شيرويه الملك منه وقتله وكان باذان قد أرسل إلى النبي من يستطلع أمره فأخبرهم رسول الله بقتل كسرى وولاية شيرويه فآمنوا برسالته وحملوا دعوة الإيمان إلى باذان فاستجاب لها وبقي واليا على اليمن من قبل رسول الله .

ومن هنا نرى أن أغلب الملوك والرؤساء كان ردهم رداً جميلا . فلماذا هذا ؟ ولم لم يتفقوا على محاربة النبي والقضاء على الدولة الإسلامية وهي ما تزال في مهدها ويجاب عن ذلك بأجوبة كثيرة . منها أن التعاليم الإسلامية كانت قوتها ذاتية . تأخذ بمجامع القلوب ، وتثلج لها الصدور وكانت النفوس مستعدة لها تمام الاستعداد ، لأنه كان يوجد فراغ كبير في ذلك الوقت فالوثنية قد محت واليهودية حرفت وتمالى دعاتها ،والنصرانية عقدت . فصارت الأديان طقوسا غير مفهومة ، ورموزا مبهمة فلما الناس وحينما سمعوا دعوة الإسلام وما فيها من وضوح ومسايرة للعقل ، ومساواة أمام رب السموات والأرض من بيده النفع والضر وحده لا شريك له حينما سمعوا بذلك مست الدعوة شغاف قلوبهم فآمنوا بها أو على الأقل أنها حق لا ريب فيه .

ومنها أن الوازع الديني كان قد ضعف في النفوس وطغت المادة على الروح ، فغرقوا في الترف فآثروا الحياة الناعمة الوادعة على حياة الكفاح والحرب ، وآثروا السلام على الحرب ، مع ما في تعريض ملكهم للخطر إذا هم حاربوا ، ومنها أن كثيرا منهم كان قد قرأ أو سمع عن نبي يبعث من العرب يدعو إلى مكارم الأخلاق فلما بعث آمنوا أنه هو المبشر به في التوراة والإنجيل فأسلم من أسلم ، ورد من لم يسلم ردا جميلا ، وحتى الذين غضبوا لم يكن الدافع لهم المحافظة على العقيدة ، وإنما كان الخوف على الملك ، والحياة الدنيا .

عمرة القضاء :

أقام المسلمون بالمدينة ليقضوا بقية العام السابع حتى يحين الموعد المضروب بينهم و بين قريش ليحققوا فيه آمالهم ، ويرووا فيه ظمأهم إلى البيت ، وإلى مدارج طفولتهم فى مكة ، وفيما بين الانتصار على اليهود وانتظار موسم الحج . كان الرسول يبعث السرايا والفرق من الجيش إلى الجهات المختلفة ليشعروا خصومهم بأنهم فى منعة وقوة وبلقوا بالرعب فى قلوب أهل الجزيرة كلها .

فلما حان الموعد المضروب نادى رسول الله فى أصحابه بالتجهز لعمرة القضاء ، فاستجاب أنفان من المسلمين بعد أن كانوا فى العام الماضى ألفا وأربعمائة تقريبا .

وقبيل بداية شهر ذى الحجة سار الركب الشغوف إلى أم القرى ، وفى ظل من احترام عهد الحديبية لم يحمل واحد منهم سلاحا سوى سيفه فى قرابة (١) ، واستخلف الرسول على المدينة « أبا ذر الغفارى »وساق معه الهدى ستين بدنة ، وكان معه مائة فرس عليها « بشير بن سعد » وأحرم من باب المسجد المدنى .

ولما انتهى إلى ذى الحليفة . قدم الخيل أمامه ليكونوا طليعة له ، وأمر الفرسان ألا يتعدوا حرم مكة . وفى طليعة كل هؤلاء رسول الله على ناقته « القصواء » حتى وصلوا إلى مكة ، وعرفت قريش بمقدم رسول الله مع أصحابه فجلت عن مكة نزولا على صلح الحديبية ، ودخل الرسول مكة بالمسلمين فقضوا عمرتهم ، ومكث الرسول بمكة ثلاثة أيام يصلى فيها بأصحابه وكان يؤذن لهم بلال بعد أن يرقى سطح الكعبة ، وكان الرسول يريد أن يبقى بعد

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٢٢٣ - وقراب السيف جعبته التى يحفظ فيها .

ذلك بعض الأيام يبنى فيها بميمونة ـ أخت زوج عمه العباس ـ فأبت قريش فبنى بها فى مكان يسمى سرف بفتح السين وكسر الراء ـ بالقرب من مكة فى طريق المدينة ـ وكانت ميمونة هذه آخر أمهات المسلمين . ثم رجع عليه السلام فرحا مسرورا بما حباه الله من تصديق رؤياه .

وقد تركت عمرة القضاء آثارها العظيمة فى نفوس الحجاج والقرشيين فكان إسلام فارس قريش وبطل أحد ، خالد بن الوليد ، ربحا كبيرا للإسلام والمسلمين وهزيمة واضحة للمشركين . كما أسلم عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وتبع إسلام هؤلاء إســـلام عدد كبير من أهل مكة ، وبدأ جيش الشرك يضعف وجيش التوحيد يقوى ، ووضح عند المسلمين ضرورة العودة إلى مكة فاتحين (١) .

سرايا السنة الثامنة : فى السنة الثامنة بدأ الرسول يرسل السرايا لدعوة الناس إلى الإسلام ، ونشر هيبته ، وكان من تلك السرايا سرية أرسلها الرسول عليه السلام إلى ذات أطلاح من أرض الشام ، كان عددها خمسة عشر رجلا بقيادة كعب بن عمير الغفارى ، فوجد رجال السرية جمعا كثيرا فدعوهم إلى الإسلام ، فلم يجيبوا ، وقاتلوا فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم كعب ، فإنه نجا وأتى بالخبر إلى رسول الله فشق عليه وأراد أن يبعث إليهم من يقتص منهم فبلغه أنهم تحولوا من منزلهم فعدل عن ذلك . (راجع فى هذه السرايا نور اليقين ص ٢١٢ ـ ص ٢١٤) .

---

(١) نور اليقين ص ٢١١ و ٢١١ وحياة محمد ص ٣٩٨ ـ ٤٠١ والحقبة المثالية ق ١ ص ١٥٨ ـ ١٦١ .

سرية مؤتة أو غزوة مؤتة (١) :

يروى أن سببها قتل شرحبيل والى مؤتة الحارث بن عمير الأزدى الذى كان قد أرسله الرسول عليه الصلاة والسلام بكتاب إلى الأمير الغسانى المقيم فى بصرى الشام ، وهذا السبب تواتر فى المراجع التاريخية ، وقد يكون من الأسباب أيضا القصاص لرجال سرية كعب بن عمير ، وإعادة هيبة الإسلام .

فلهذه الأسباب أعد الرسول حملة كبيرة عددها ثلاثة آلاف فى جمادى الأولى من السنة الثامنة وعقد اللواء فيها لزيد بن حارثة . وأمره بالزحف إلى مؤتة (معان) - من أرض الشام - حيث قتل حامل الكتاب ، وأوصاه بدعوة الناس إلى الإسلام فإن رفضوا الدعوة أعمل السيف .

وقد رافق النبى تلك الحملة حتى جبل الوداع الواقع شمالى المدينة ، وكان شرحبيل قد وصل إلى علمه زحف المسلمين فاستعد واستنجد بمن حوله من قبائل العرب المسيحيين ، ووجد من هؤلاء ملبيا لأن أخبار اتساع دائرة الإسلام من ناحية الشام ، ومهاجمة دومة الجندل واستيلائهم على خيبر كان قد جعلهم يستعدون لملاقاة المسلمين يوماً ما .

ولما وصل المسلمون (معان) بلغهم عظم الجيش الذى اجتمع لملاقاتهم فعقد زيد مجلسا حربيا للمشاورة ووضع الخطة ، فغلب الرأى الذى قال به

(١) سميت سرية باعتبار أن القائد فيها غير الرسول ، وسميت غزوة لأن العدد كبير من جهة ولأن الرسول رتب القيادة فقد أمر زيد ، وقال لهم : إن أصيب فالأمير جعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة . من جهة أخرى ، ومن جهة ثالثة أن النبى خرج معهم إلى جبل الوداع . ومؤتة تقع جنوب شرقى عمان بالمملكة الأردنية الهاشمية .

: عبد الله بن رواحة ، أحد القادة ، وهو وجوب التقدم والهجوم . فزحف المسلمون حتى وصلوا البلقاء فى جنوب البحر الميت ، فوجدوا أنفسهم أمام جيش يفوق عدده وعدته أقصى ماذهبت إليه ظنونهم . لذلك تقهقروا إلى مؤتة وعسكروا هناك استعداداً للقتال وحمل الجيش الرومانى ومن معه من العرب المسيحيين على المسلمين ووقف زيد بن حارثة يصد الهجمات حتى وقع قتيلا فانتقلت الرياسة واللواء لجعفر بن أبى طالب كما أوصى الرسول . وهجم المسلمون حتى وقع جعفر أيضا قتيلا مثخنا بالجراح فانتقلت القيادة بعده لعبد الله بن رواحة كما أوصى النبى أيضا ، وسرعان ماسقط قتيلا .

وعندئذ هم بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء فقال لهم « عقبة بن عامر » يا قوم يقتل الإنسان مقبلا . خير من أن يقتل مدبرا : فتراجعوا واتفقوا على تأمير البطل الباسل « خالد بن الوليد » وبهمته وتدبيره حمى هذا الجيش من الضياع إذ ماذا يصنع ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفا كما فى الرواية ؟

أخذ خالد الراية وقاتل وقاتل يومه قتالا شديدا وفى غده خالف ترتيب العسكر فجعل الساقة مقدمة ، والمقدمة ساقة ، والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ، وأمرهم أن يحدثوا جلبة وضوضاء مع طلوع النهار لياقى فى روع العدو أن مددا كبيرا جاءهم ونجحت الخطة ، فقد ظن الروم أن المدد جاء المسلمين فرعبوا ، وصار خالد يناوش الأعداء وهو راجع إلى الوراء سبعة أيام . ثم تحاجز الفريقان لأن الكفار ظنوا أن الأمداد تتوالى المسلمين ، وخافوا أن يجروهم إلى وسط الصحارى حيث لايمكنهم التخلص ، وبذلك انقطع القتال .

وقد نعى النبى صلى الله عليه وسلم زيدا وجعفرا وابن رواحة للناس . قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب . ثم أخذها جعفر فأصيب . ثم أخذها ابن رواحه فأصيب — وكانت عينا رسول الله تذرفان — ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله عليهم :

ولما أقبل الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم : يافرار : فقال عليه السلام : بل هم الكرار : وأثنى على خالد ومهارته (١) .

أثر غزوة مؤتة ، وأهم السرايا التى خرجت :

أثر انسحاب المسلمين فى هيبة الإسلام عند قبائل العرب الساكنة بين المدينة والشام ، وانتشرت فعلا شائعة مؤداها أن قبائل البدو فى شمال المدينة قد اجتمعت وعزمت على مهاجمتها ، فأرسل النبى حملة لكبح جماح هؤلاء ولإثارة حلفاء المسلمين من هذه القبائل للقيام بمناوشة على الحدود الشامية وسارت تلك الحملة بقيادة « عمرو بن العاص » حتى أطراف الشام فوجدت جيوشا تتهيأ المسير جنوبا فأرسل يطلب النجدة فأنفذ إليه النبى حملة بقيادة « أبى عبيدة بن الجراح » وفيها « أبو بكر الصديق » و « عمر بن الخطاب » وعند وصول تلك النجدة إليه تقدم « عمرو » وفرق الجيوش المعادية وأعاد إلى قبائل الأحلاف طمأنينتها فأرجع بذلك هيبة الإسلام على الحدود الشامية ، ورجع إلى المدينة ظافرا ، وتسمى هذه السرية سرية السلاسل نسبة إلى ماء بأرض جذام يقال له السلسل (٢) .

---

(١) راجع نور اليقين ص ٢١٤ — ٢١٦ . وحياة محمد ص ٤٠٤ — ٤٠٩ والعقبة ق ١ ص ١٦١ - ١٦٤ .

(٢) راجع نور اليقين ص ١١٦ و ٢١٧ وحياة محمد ص ٤٠٩ و ٤١٠ .

فَتـحُ مَكـَّـةَ

وفى سنة ثمان من الهجرة شاء الله تعالى أن يكون فتح مكّة على رسول الله (ﷺ) ، وكان السبب فى ذلك ما حدث بين حلفاء قريش وحلفاء الرسول (ﷺ) ، فقد نقضت «بنو بكر» صلح الحديبية ، وكانوا فى حلف مع قريش فاعتدوا على «خُزاعة» وكانوا فى حلف مع رسول الله (ﷺ) وقتلوا منهم بعض الرجال ، ولما علم الرسول (ﷺ) بنقض قريش للعهد تجهّز وأمر الناس أن يستعدوا للمسير إلى مكة ، وكانت هناك امرأةٌ من «مُزينة» جاءت المدينة تسأل رسول الله (ﷺ) بالرحم أن يعطيها شيئا فجمع لها مالا ومتاعا ورجعت إلى مكة ، فحملها حاطب بن أبى بَلْتَعَة كتابا لتوصله إلى قريش فتخبرهم بما أجمع عليه الرسول (ﷺ) من الأمر للسير إليهم ، فوضعت الكتاب فى رأسها وخرجت ، وأوحى الله تعالى إلى رسوله (ﷺ) بما صنع حاطب فبعث عَليّ ابن أبى طالب والزبير بن العوام فى طلبها . روى البخارى - بسنده - عن علىّ رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله (ﷺ) أنا والزبير والمقداد فقال : «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[1] فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها» فانطلقنا تَعادَى بنا خلينا ، حتى انْتَهَيْنا إلى الروْضَةِ ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الكتاب . فقالت : ما معى كتاب ، فقلنا لَتُخرجن الكتاب أو لَنُلقِيَنَّ الثياب ، فأخْرجَتْه من عِقَاصِها[2] فأتينا به رسول الله (ﷺ) ، فإذا فيه : من حاطِب بن أبى بلتعة إلى أناسٍ من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله (ﷺ) ، فقال رسول الله (ﷺ) : «يا حاطِبُ ما هذا ؟» قال : يارسول الله لا تعْجَلْ علىَّ إنى كنت امرءا

---

(١) موضع بقرب حمراء الأسد وهو بين مكة والمدينة على اثنى عشر ميلا .

(٢) هو الشعر المفتوص شبه المضفور .

ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمونه بها أهلهم وأموالهم ، فأحببتُ إذْ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمُون بها قرابتى ، ولم أفعله وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضاءً بالكُفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله (ﷺ) : «لقد صَدَقَكُمْ» فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله دعْنى أضربْ عنق هذا المنافق . فقال رسول الله (ﷺ) : «إنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله يكونُ قَدِ اطَّلَعَ على مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فقال : ﴿اعملوا ما شِئْتُمْ فقد غَفَرْتُ لَكُمْ﴾» فأنزل الله السورة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾[1]

وفى رواية أخرى فى صحيح البخارى أيضا : فقال عمر بن الخطاب : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى أضرب عنقه قال : فقال : «ياعُمَرُ وما يدريك لعل الله قد اطَّلعَ على أهل بدر ، فقال : ﴿اعملوا ما شئتم فقد وَجَبَتْ لكُم الجنَّة﴾» قال : فدمعَتْ عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

ولهذا الحديث رواية فى صحيح الإمام مسلم :

روى مسلم - بسنده - عن الحسن بن محمد أخبرنى عبيد الله بن أبى رافع وهو كاتب عَلِيّ قال : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : بعثنا رسول الله

---

(١) سورة الممتحنة : ١ .

(ﷺ) أنا والزبير والمقداد فقال ائتوا «روضة خاخ» فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا تعادَى بنا خيلنا فإذا نحن بالمرأة فقلنا :- أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معى الكتاب : فقلنا : لتُخرجنَّ الكتاب أو لَنُلقِينَّ الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله (ﷺ) فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله (ﷺ) ، فقال رسول الله (ﷺ) : «يا حاطب ما هذا ؟» قال : لا تعجل علىّ يارسول الله إنى كنت امرءًا ملصقا فى قريش ، قال سفيان : كان حليفا لهم ولم يكن من أنفسها ، وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم فأحببتُ إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا[1] يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله كفرا ولا ارتدادًا عن دينى ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام ، فقال النبى (ﷺ) : «صدق» فقال عمر : دعنى يارسول الله أضربْ عنق هذا المنافق، فقال : «إنه قد شَهِدَ بَدْرًا وما يُدْرِيك لعل الله اطَّلعَ على أهل بَدْرٍ» فقال : ﴿اعمَلُوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم﴾ ، فأنزل «الله» عز وجل : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وعَدُوَّكُمْ أولياءَ﴾ .

وفى هذه القصة معجزة واضحة لرسول الله (ﷺ) حيث أخبر عن شأن هذه المرأة وما تحمله من كتاب ، زما فى هذا الكتاب وهو لا علم له بها ولا بما تحمله من قبل ولم يخبره بذلك أحد ﴿إنْ هُوَ إلا وَحْىٌ يُوحَى﴾ واسم هذه المرأة : سارة مولاة لعمران بن صيفى القرشى .

ولعل هذا الحديث يشير إلى النظر فى «حكم الجاسوس» ومذهب الشافعى وطائفة أنه يُعزَّر ولا يجوز قتله ، ويرى بعض المالكية أنه يقتل إلا إذا تاب ، ويرى البعض أنه يقتل وإن تاب ، وقال مالك : يجتهد فيه الإمام[2] .

(١) يدًا : أى منة ونعمة وجميل .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم .

ويرى العلماء أن المراد بقوله (ﷺ) : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» أن الغفران لهم فى الآخرة وإلا فإن توجه على أحد منهم حدٌّ أو غيره أقيم عليه فى الدنيا .

ونقل القاضى عياض الإجماع على إقامة الحد ، وأقامه عمر على بعضهم ، قال : وضرب النبى (ﷺ) مِسْطحًا الحدّ وكان بَدْريًّا[1] وليس فى قوله (ﷺ) : «اعملوا ما شئتم ...» إلخ إغراء بالتجاوز أو فعل للمعاصى ، فإن رسول الله (ﷺ) لا يأمر إلا بالمعروف ولا ينهى إلا عن المنكر ، وإنما هذا القول محمول على الغفران فى الآخرة كما سبق أو أنها تقع مغفورة لما يوفق «الله» تعالى أهلها إلى التوبة والرجوع إلى «الله» تعالى بسرعة ، أو أن «الله» تعالى يوفق أصحابها فلا يقعون فيما يغضب «الله» سبحانه .

كما يستنبط من القصة أنه لا يجوز للمسلمين أن يتخذوا عدوَّ «الله» وعدوَّهم أولياء يلقون إليهم بالمودة ، إذ أن آيات القرآن الكريم واضحة صريحة فى جعل الولاء «لله» تعالى ولهذا الدين الحنيف .

٥ - ولنا وقفة مع إنسانية الرسول (ﷺ) وشفقته ورحمته بحاطب بن أبى بلتعة ، لقد راعى الرسول (ﷺ) فى حاطب جانبه البشرى الذى يغشاه -- عادة -- الضعف ، ويمسه طائف من الشيطان ، فيعود ويتذكر ويثوب إلى رشده ، وكل إنسان بصدد أن يتعرض للخطأ ، لأن كل بنى آدم خطاء ، والمعصوم من عصمه «الله» ، وقد رحم رسول الله (ﷺ) ضعف حاطب ، وقبل عُذره وصدَّق قوله .

وهكذا نقضت قريش «عهد الحديبية» ، وكان فى بنود الصلح أنه من شاء دخل فى عقد قريش ومن شاء دخل فى عهد رسول الله (ﷺ) ، فدخلت

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم .

«خزاعة» فى عقد محمد وعهده ، ودخلت «بنو بكر» فى عقد قريش وعهدهم ، وبعد مدة وثب «بنو بكر» حلفاء قريش على «خزاعة» حلفاء الرسول (ﷺ) على غفلة منهم ودون سبب وساعدت قريش حلفاءها وكانت للوقعة عند ماء خزاعة يسمى «الوتير» فأسرع عمرو بن سالم الخزاعى وذهب وأخبر رسول الله (ﷺ) بما حدث وأنشد قصيدة جاء فيها :

هم بيتونا بالوتير هُجدا　　　وقتلونا ركعا وسجدا

فقال له رسول الله (ﷺ) : «نصرت ياعمرو» فأمر الرسول (ﷺ) بالجهاد والدفاع عن الحق وعزم أن ينقى البيت الحرام من الوثنية وأن يطهره للطائفين والعاكفين والركع السُجود .. وحاول أبو سفيان أن يجدد العهد الذى نقضته قريش فلم يجد عونا على ذلك ، بل إن ابنته أم حبيبة زوجه رسول الله (ﷺ) وصلت بها كراهية الشرك أنها طوت فراش رسول الله (ﷺ) حتى لا يجلس عليه أبوها ، فلما سألها : أرغبت بى عن الفراش أم رغبت بالفراش عنّى ؟ قالت : هو فراشُ رسولِ الله وأنت مُشركٌ نجس ، فانصرف مغضبا وقائلا : والله لقد أصابكِ من بعدى شرٌّ .. وهذا زعمه الباطل ، وإنما هى على الحق الذى آثرته على كل شىء مصداقا لقول «الله» تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

(١) سورة التوبة : ٢٤ .

وتوجه الرسول (ﷺ) بعشرة آلاف مسلم يوم الأربعاء بعد العصر لعشر ليال خلون من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة ، حتى إذا بلغ «الكديد» أخذ إناء فشرب منه ثم قال : «أيها الناسُ مَنْ قَبِلَ الرخصةَ فإنَّ رسولَ الله (ﷺ) قبلها ومَنْ صَامَ فإنَّ رسول الله (ﷺ) قد صَامَ» ، ووصل الجيش «مرَّ الظهران» بالقرب من مكة وعسكر الجيش هناك ، فلما مرّ بأبى سفيان بعد أن أمّنه العباس (رضى الله عنه) قال للعباس : ياأبا الفضل ، لقد أصبحَ مُلْكُ ابنِ أخِيكَ عظيما ، فقال العباس : ويحك إنه ليس بمُلكٍ ولكنها نبوة قال أبو سفيان : نعم ..

ولقد أجار العباس أبا سفيان وأردفه خلفه على بغلة رسول الله (ﷺ) ، وعندما نزلا لحق بهما عمر رضى الله عنه فقال : يارسول الله هذا عدوُّ الله أبو سفيان قد أمكننا الله منه من غير حرب ولا حلف بيننا وبينه ولا عهد ، فقال العباس : يا رسول الله ، إنه فى جوارى ، فقال له (ﷺ) : «هو فى جوارك فاذهب به إلى رَحْلِكَ فإذا أصبحت فائْتِنِى به» ، فذهب به العباس إلى رحله ، وفى الصباح ذهب به إلى رسول الله (ﷺ) فقال له : «أما آن لك ياأبا سفيان أن تشهد ألا إله إلا الله ؟» فقال أبو سفيان : أما والله لو كنت أعلم أن معه إلٰها آخر لطلبت من ذلك الإله أن ينصرنا عليك ، فقال أبو سفيان : أما هذه ففى النفس منها شىء ، فقال العباس : قلها قبل أن تنزل رأسك عن جسمك ، فقال أبو سفيان : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأسلم وحسن إسلامه وقال العباس : يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له من الأمر شيئا ، فقال رسول الله (ﷺ) : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ومن أغلق باب داره عليه فهو آمن ..» .

ودخل (عليه الصلاة والسلام) مكة وهو مطأطئ رأسه [illegible] «الله» تعالى حذراً من إراقة الدماء ، وعندما سمع سعد بن عبادة وهو أحد قادة الجيش يقول : **اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة** ، عزله النبى (ﷺ) ، موجها أنه يوم المرحمة وليس يوم الملحمة .. وأول عمل له هو أنه طاف بالبيت سبعا وعندما رأى صور الملائكة فى البيت فى صورة النساء ورأى صورة إبراهيم عليه السلام فى يده الأزلام قال : **«قاتلهم الله ما شأنُ إبراهيم والأزلام .: ما كان إبراهيمُ يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفًا مُسْلما وما كان من المشركين»** وأمر بطمس الصور كلها وحطم الأصنام مردِّدا قول «الله» تعالى :

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[1] ..

وعندما اجتمعت قريش قال لهم : «يا معشرَ قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟» فقالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال وهو يبكى : «اذهبُوا فأنتم الطلقاءُ أقولُ لكم ما قاله أخى يُوسُفُ لإخوته :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[2]

---

(١) سورة الإسراء : ٨١ . (٢) سورة يوسف : ٩٢

غـزوة «حُنَيْـن»

حدثت غزوة حُنين(١) فى السنة الثامنة الهجرية ، وذلك عندما رأت قريش النصر والفتح الذى أحرزه رسول الله (ﷺ) والمسلمون خاصة بعد فتح مكة ، أخذت تجمع قواها وانضمت إليها ثقيف وقبائل كثيرة تحت قيادة مالك ابن عوف النضرى ، حيث أمر أن يأخذ كل إنسان معه أهله وماله وأولاده ، وقال لهم : إذا رأيتم المسلمين فشدُّوا عليهم شدة رجل واحد .. وأرسلوا بعض الجواسيس لتأتيهم بأخبار رسول الله (ﷺ) ، فعادوا وهم فى رعب ، فقال لهم قائدهم مالك بن عوف : ويحكم ، ما شأنكم ؟

فقالوا : لقد رأينا رجالاً بيضا على خيل بلق فلم نملك أنفسنا حتى أصابنا ما ترى ، ولكن أصر على اتجاهه وسار إلى رسول الله (ﷺ) ، فلما علم الرسول (ﷺ) بهم خرج لهم فى اثنى عشر ألفا من المسلمين منهم ألفان فى مكة وعشرة آلاف ممن كانوا معه فى فتح مكة يريد هوازن وثقيفا ومن ظاهرهما ، فلما قدم المسلمون وادى حنين قال قائلهم : لن نغلب اليوم من قلة ، فلم يرعهم إلا الكتائب تنقضُّ عليهم من ثقيف وهوازن وكانوا مختبئين وراء الوادى فانهزم الناس ، وانحاز رسول الله (ﷺ) إلى اليمين ونادى فى القوم : «إلىّ عبادَ الله فإنى رسولُ اللهِ وإنّى محمدُ بن عبد الله» .

أنَـا النَّبِـيُّ لا كَـذِبْ . أنَـا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِب

فثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والعباس والفضل بن العباس وأسامة بن زيد واجتمع إليه مائة من المسلمين فاستقبلوا المشركين وقاتلوا معهم فقال عليه الصلاة والسلام : «الآن حمى الوطيس» وشدّ المسلمون على المشركين فما مضت ساعة حتى انتصر المسلمون عليهم وولى المشركون الأدبار وتبعهم

---

(١) حنين : هو وادٍ من أودية تهامة متسع كثير الحدود .

المسلمون يقتلون ويأسرون ، وتنزلت ملائكة «الله» تعالى .. وفى هذه الغزو: قال «الله» تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1] ..

وكان إعجابهم بكثرتهم ، حيث قال قائلهم : **لن نغلب اليوم من قلة** وكان عددهم اثنى عشر ألفا ، وكان عدد أعدائهم أربعة آلاف فلم تنفعهم الكثرة ، لأن النصر ليس بكثرة العدد بل هو بيد الله الواحد الأحد ، قيل للبراء بن عازب : **أفررتم عن رسول الله (ﷺ) يوم حُنين ؟** فقال البراء : **أشهد أن رسول الله (ﷺ) لم يفر ، ولقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها يقودها فلما غشيه المشركون فجعل يقول :**

أنـا النبـى لا كـذب ... أنـا ابـن عبـد المطلب

ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه المشركين وقال : «شاهت الوجوه» ففروا ، فما بقى أحد إلا ويمسح القذى عن عينيه . ثم أنزل الله تعالى السكينة ، بالأمن والطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنين **﴿وأنزل جنودًا لم تَرَوْهَا﴾** وهىَ الملائكة **﴿وعذّبَ الذين كفروا وذلك جزاءُ الكافرين﴾** المزيمة والعقوبة لمن كفروا بالله سبحانه .

---

(١) سورة التوبة : ٢٥ ، ٢٦ .

غَزْوَةُ «الطَّائِفِ»

حدثت غزوة «الطائف» فى السنة الثامنة من الهجرة ، وكان سببها أن المشركين المنهزمين تجمعوا فى الطائف متحصنين بها وعلم الرسول (ﷺ) أنهم تأهبوا لقتاله مرة أخرى فاتجه إليهم ومن معه من المسلمين ونزلوا بالقرب من «الطائف» بوادى «العقيق» وحاصروهم بضعا وعشرين ليلة .. وقاتلهم وكان أول من رمى بالمنجنيق .

والمِنْجَنيق : هو آلة قديمة من آلات الحروب التى كانت تستخدم فى الضرب والهدم والحصار وكانوا يرمون بالمنجنيق الحجارة الثقيلة على الأسوار فتهدمها .

وكان الاتجاه إلى «الطائف» بعد الانصراف من غزوة «حُنين» وقبل تقسيم الغنائم ، وبعد أن اشتد الحصار على المشركين نزلوا أرسالا(١) فأسلموا ، ورجع الرسول (ﷺ) من هوازن وثقيف ومعه الأسارى والغنائم ، فأتاه وفد «هوازن» «بالجعرانة» بالقرب من مكة وقالوا له : يارسول الله ، قد أصابنا من الأمر ما تعلم فامنن علينا مَنَّ الله عليك فخيرهم الرسول (ﷺ) قائلا لهم :

«أبناؤكُمْ ونساؤكُم أحبُّ إليْكُم أم أمْوَالُكُم ؟!» فقالوا : نساؤنا وأبناؤنا أحبُّ إلينا من أموالنا .. فقال رسول الله (ﷺ) : «ما كان لى ولِبَنِى عبدِ المطَّلِبِ من نسائِكم وأبنائكم فهو لكُمْ ، وإذا صَلَّينا الظهرَ بالناس فَسَلُونى أمرَكُم» فلما صلى سألوه فى أمرهم ، فأمر الرسول (ﷺ) بردِّ نسائهم وأبنائهم ، كما قسم ما أفاءه «الله» عليه من الأموال على المقاتلين من المسلمين ، ومن بين من أعطاهم من أعطاه ليتألف قلبه للإسلام ولم يعط الأنصار شيئا فوجدوا وجْدًا شديدا ، حتى جاء سعد بن عُبادة وهو من الأنصار فقال :

---

(١) أى جماعات .

يارسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا فى أنفسهم . فقال النبى (ﷺ) : «إذن فاجْمَعْهُم إلىَّ» فخرج سعد ونادى فى الأنصار : أن ائتوا رسول الله (ﷺ) ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «يا معشر الأنصار ، بلَغنى أنكُمْ تجدون علىَّ فى أنفسكم ألم آتكم ضلالا فهدَاكُمُ الله بى ، وعالةً فأغناكم الله ، وأعداء فألّف الله بين قلوبكُمْ فقالوا : بلى ، الله ورسولهُ أمنُّ وأفضلُ فقال لهم : «ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟!» فقالوا : بماذا نُجيبُك يارسول الله ؟! ولرسوله المنّ والفضل - فقال رسول الله (ﷺ) : «أما والله لو شِئتُم فَلَصُدِّقْتُمْ وصَدَقْتُم : أتيتنا مكذَّبا فصدَّقناك ، وجئتنا مخذُولا فنصرنَاك ، وطريدًا فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك ، أوجدتم علىَّ يا معشر الأنصارَ فى أنفُسِكُم لشَىءٍ من الدنيا أعطيتُه لقَوم أتألّف به قلوبهم ليُسْلِمُوا ووكلتكُم إلى إسْلاَمِكُمْ ؟! ألا تَرْضَوْن يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ أن يَرْجِعَ الناسُ بالشاءِ والبَعير وترجعُونَ أنتم برسولِ الله (ﷺ) ؟! .. فو الذى نَفْسُ محمدٍ بيده لولا الهجرةُ لكنتُ امرءًا من الأنصارِ ولو سَلَكَ الناسُ شِعْبًا وسَلَكَتِ الأنصَارُ شِعبًا لسَلَكْتُ شِعْبَ الأنصارِ ، اللهم ارحم الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ وأبناءَ أبناءِ الأنصار» فبكى القوم حتى اخضلَّت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله (ﷺ) قسما وحظا ، ثم انصرف الرسول (ﷺ) عقب هذا خارجا محرما بالعمرة ودخل مكة وأدى العمرة ثم عاد إلى المدينة .

غـزوة «تبـوك»

كانت غزوة «تبوك» بعد الانصراف من حصار الطائف والإقامة فى المدينة ، وخرج الرسول (ﷺ) إلى الروم فى هذه الغزوة فى السنة التاسعة وهى آخر الغزوات التى غزاها (ﷺ) بنفسه ، وسببها أنه بلغ المسلمين أن الروم جمعت جموعها ووصلت إلى أرض «البلقاء» فندب النبى (ﷺ) الناس إلى الخروج ، وكان عدد جيش الروم أربعين الف مقاتل وكان عدد المسلمين يقارب ثلاثين ألفا ، وكان الوقت حارًا حرارة شديدة ، وكان الناس يحبون أن يقيموا فى ثمارهم حيث طابت الثمار وكان رسول الله (ﷺ) إذا أراد غزوة ورّى بغيرها أى كنّى بغيرها أخذًا فى الحيطة والحذر ولأن الحرب خدعة إلا هذه الغزوة فإنه حدّدها وبيّنها ، لبعد المسافة والمشقة وقوّة العدو .. وتأخر الجد بن قيس من بنى سلمة فى هذه الغزوة مدّعيا أنه يخشى ألا يصبر إذا رأى نساء بنى الأصفر وهم الروم فاستأذن فى التخلّف وكان متهما بالنفاق ، فلما استأذن فى البقاء مع أنه كان قويا وغنيا أذن الرسول (ﷺ) له وأعرض عنه ، فنزل فى شأنه قول «الله» تعالى ..

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[1] .

وحاول بعض المنافقين أن يثبطوا عزائم المسلمين فى الخروج قائلين لهم : لا تنفروا فى الحر ، فنزل قول «الله» تعالى :

---

(١) سورة التوبة : ٤٩ .

﴿ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[1].

وحث رسول الله (ﷺ) المسلمين على الإنفاق وأعلن عليهم أن من جهَّز جيش العُسْرَةِ فله الجنة فتسابقوا فى البذل والإنفاق ، حتى إن أبا بكر الصديق (رضى الله عنه) جاء بكل ماله وكان أربعة آلاف درهم فسأله الرسول (ﷺ) : **«هل أبقيت لأهلك شيئا ؟»** فقال (رضى الله عنه) : **أبقيت لهم الله ورسوله** ، وجاء سيدنا عثمان بن عفان (رضى الله عنه) بثلاثمائة بعير وبألف دينار ووضع الدنانير فى حجر رسول الله (ﷺ) فَيُسرّ الرسول (ﷺ) بها ويدخل يده فيها يقلبها ويقول : **«اللهم ارْضَ عن عثمان ، فإنى عنه راض»** ، ويقول : **«ما على عثمانَ ما عَمِلَ بَعْدَ اليوم»** .

وجاء سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وقسم ماله نصفين أتى بنصفه إلى رسول الله (ﷺ) وأمسك لأهله النصف ، فقال له النبى (ﷺ) : **«بارك الله لك فيما أنفقت وفيما أمسكت»** .

وجاء إلى رسول الله (ﷺ) البكّاءون وهم الذين طلبوا من رسول الله (ﷺ) ما يحملهم عليه من الإبل ليخرجوا معه ، فقال لهم الرسول (ﷺ) : **«لا أجدُ ما أحمِلُكُمْ عليه»** فانصرفوا باكين ، فسمُّوا بالبكّائين ، ذهبوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألّا يجدوا ما ينفقون ..

وأما أبو خيثمة فقد روى[2] الطبرانى وابن إسحاق أن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله (ﷺ) بعدة أيام إلى أهله فى يوم حار فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى بستان له قد رشَّت كل واحدة منهما عريشها وبرَّدت له ماء فيه وهيأت له فيه طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى

---

(١) سورة التوبة : ٨١ . (٢) رواه الطبرانى والواقدى وابن إسحاق .

امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسولُ الله (ﷺ) فى الشمس والريح والحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله يقيم ؟! ما هذا والله بالنصف ، ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله (ﷺ) فهيأتا له زادا ثم قدَّم ناضحه فارتحله وخرج فى طلب رسول الله (ﷺ) حتى أدركه حين نزل «تبوك» ولما دنا أبو خيثمة من المسلمين قالوا : هذا راكب على الطريق مُقبلٌ فقال رسول الله (ﷺ) : «كن أبا خيثمة» فقالوا : يارسول الله ، هو والله أبو خيثمة وسار الرسول (ﷺ) ، وتخلف عنه ثلاثة هم من صالحى المسلمين : كعب بن مالك الشاعر من بنى سلمة ومُرارة بن ربيعة ويقال ابن الربيع من بنى عمرو ابن عوف وهلال بن أمية الواقفى فلم يعلموا بخروج الرسول (ﷺ) إلا بعد أن غادر المدينة وعسكر «بثنيَّة الوداع» كل منهم قال : سألحق برسول (ﷺ) غدا ، حتى فاتهم اللحاق به فلما افتقدهم الرسول (ﷺ) بعد يوم أو يومين وقيل له تخلفوا ، عجب من ذلك وعز عليه لأنه كان يعرف إيمانهم وفضلهم .

ورجع عبد الله بن أُبىّ بجماعة من المنافقين ، وخلَّف رسول الله (ﷺ) على بن أبى طالب على أهله ، فقال المنافقون : استثقله ، فذكر ذلك علىّ (رضى الله عنه) لرسول الله (ﷺ) ، فقال : «كذبوا إنما خَلَّفْتُكَ لما تَرَكْتُ وَرَائِى فارْجِعْ فاخْلُفْنِى فى أَهْلِى وأهلِكَ فأنتَ مِنِّى بمنزلَةِ هارُونَ مِن مُوسَى إلا أنه لا نبىَّ بَعْدِى» .

ومرَّ الرسول (ﷺ) على «حِجْر ثمود» (مدائن صالح) فنهى المسلمين عن الوضوء من بئر «ثمود» كما نهاهم أن يعجنوا خبزهم بمائها ، ولما قيل له : إن قومًا عجنوا منه ، أمر أن يطرح علفا للإبل ، والسبب فى هذا أن هذه المياه

كان مغضوبا على أهلها وهم ثمود قوم صالح (عليه السلام) وكان من التوجيه النبوى : «إذا مَرَرْتُمْ بأرْض الظَلَمَةِ فأسْرِعُوا» وعطش الناس فى هذه الغزوة عطشا شديدا ، فدعا الرسول (ﷺ) ربه سبحانه وتعالى فأرسل عليهم سحابة ارتووا منها ورووا بها الإبل وأخذوا حاجتهم .

ولما وصل الرسول (ﷺ) إلى «تبوك» خرج أهلها وصالحوه وأعطوه الجزية ورجع إلى المدينة بعد إقامته فى تبوك بضع عشرة ليلة .

وأما الثلاثة الذين تخلّفوا عن هذه الغزوة وهم كعبَ بن مالك ، ومرارة ابن ربيعة ، وهلال بن أمية فقد نهى الرسول (ﷺ) عن كلامهم مِن بين مَن تخلّف عنه ، فاجتنبهم الناس ، وأمسكوا عن كلامهم خمسين يوما تقريبا وقد تحدث كعب عن موقفه هذا - كما روى حديثه البخارى ومسلم ومما جاء فيه قوله : «...ولما قيل إن رسول الله (ﷺ) قد أقبلَ زاحَ عنّى الباطل وأجمعت أن أصدقه ، فجئتهُ ، فلما سلّمتُ عليه تبسّم تبسُّم المغضب ، ثم قال : «تعَالَ» فجئت أمشى حتى جَلَسْت بين يَدَيْهِ فقالَ لى : «ما خلّفَك ؟ ألم تكُنْ قد ابتعت ظهرَكَ ؟!» فقلت : بلى إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سَخَطه بعُذْر ولقد أعْطِيتُ جَدَلاً ، ولكن و «الله» لقد علمت لئن حدَّثْتكَ اليوم حديث كَذِب ترضى به عنى ليوشكن «الله» أن يسخطك عَلَىَّ ولئن حدثتك حديثَ صِدْق تَجدُ علىّ فيه إنى لأرجو فيه عَفْوَ «الله» ، و «الله» ما كان لى من عذر و «الله» ما كنت قط أقوىَ ولا أيْسَرَ مِنّى حين تخلّفت عنك ، فقال رسول الله (ﷺ) : «أما هذا فقد صَدَقَ فقم حتى يَقْضِيَ «الله» فيك ..» إلى أن قال : فبينا أنا جالسٌ على الحال التى ذكر الله ﴿حَتَّى إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أنفُسُهُمْ﴾ سمعت صوت صارخ أوفى على جبل «سلع» بأعلى صوته : ياكعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجدا وعرفت أنه قد جاء

الفرج ، وآذن رسول الله (ﷺ) بتوبة «الله» علينا حين صلى صلاة الفجر .. وأنزلت توبته وتوبة إخوانه من فوق سبع سماوات حيث قال «الله» عز وجل :

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1] .

وكانت هذه الغزوة فى السنة التاسعة آخر الغزوات ، وهى سنة الوفود ، لأن الناس بعد فتح مكة والانتهاء من غزوة تبوك أيقنوا أنهم لا قبل لهم بحرب رسول الله (ﷺ) ، فجعلوا يفدون إليه ويدخلون فى دين «الله» أفواجا .

وهكذا كانت غزوة «تبوك» آخر غزوات الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) .

وهذا العام سمى «بعام الوفود» ، لأنه بعد فتح مكة والانتهاء من غزوة «تبوك» أسلمت «ثقيف» ، وجعل الناس يفدون إلى رسول الله (ﷺ) ،

---

(١) سورة التوبة : ١١٧ : ١١٩ .

ويدخلون فى الإسلام ، وأيقنوا أنهم لا قِبَل لهم بحرب الإسلام وأنه على حق ، فدخلوا طائعين مقتنعين بالإسلام ، ونزل فى هذه السنة قول الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾(١) .

(١) سورة النصر .

كُتُبُ الرسول (ﷺ) إلى الملوك للدعوةِ إلى الإسلام

إن الإسلام دين عالمي ، فكتابه ذكر للعالمين ، ودعوته للناس كافة ، ورسوله رحمة للعالمين .

ومن أجل هذا ، أرسل رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – البعوث والكتب للملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى الإسلام .. وعندما أراد الرسول (ﷺ) أن يرسل الرسل إلى الملوك ، ليدعوهم إلى الإسلام ، قيل له : يارسول الله إن الملوك لا يقرأون كتابا إلا مختوما فاتخذ رسول الله (ﷺ) – يومئذ – خاتما من فضة فَصُّه منه نَقْشُه ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، وختم به الكتب .. وإليك نماذج من هذه الكتب :

كتاب الرسول (ﷺ) إلى النجاشي

كان عمرو بن أُميةَ الضَّمْرى أول رسول بعثه رسول الله (ﷺ) إلى النجاشي ، وكتب إليه كتابين يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن .

فأخذ كتاب رسول الله (ﷺ) فوضعه على عينيه ونزل من سريره على الأرض تواضعا .

ثم أسلم ، وشهد شهادة الحق ، وقال : **«لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته»** وكتب إلى رسول الله (ﷺ) بإجابته وتصديقه وإسلامه — على يَدَى جعفر ابن أبى طالب — لله رب العالمين .

وأما الكتاب الثانى : فكتبه يطلب فيه أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ابْن حرب وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عُبيد الله بن جحش الأسدى فتنصر هناك ومات وأمره رسول الله (ﷺ) فى الكتاب أن يبعث إليه بمَنْ قِبَلَهُ من أصحابه ويحملهم ففعل ، فزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان وأصدق عنه أربعمائة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم ، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضَّمْرى ، ودعا بِحُقٍّ من عاج فجعل فيه كتابَىْ رسولِ الله (ﷺ) ، وقال : **«لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها»**[1] .

لقد كان تقدير النجاشي لكتابَىْ رسول الله (ﷺ) واضحا وعظيما ، حيث وضع الرسالة على عينيه ونزلِ من سريره ، حبا وإكبارا واحتراما ، وأجاب دعوته إلى الإسلام وصدق ..

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ١٥ طبع دار التحرير بالقاهرة .

كتاب رسول الله (ﷺ) إلى قيصر

أرسل عليه الصلاة والسلام دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتابا وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصرى ليدفعه إلى قيصر ، فدفعه عظيم بُصرى إليه وهو يومئذ بحمص وقيصر - يومئذ - ماض فى نذر كان عليه إن ظهرت الروم على فارس أن يمشى حافيا من قسطنطينية إلى إيلياء فقرأ الكتاب[١] :

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[٢] ،

﴿... يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾[٣] .

وسأورد قصة هذا الكتاب ، كما أوردها الإمام البخارى فى صحيحه، ثم أعقب بالتعليق عليها والشرح .

(١) رواه البخارى .

(٢) الأريسيون : الفلاحون أو اليهود والنصارى أو الملوك .

(٣) آل عمران : ٦٤ .

استدلال منصف على صدق النبوة :

إن كل من أنصف فى بحثه عن الإسلام ، والتزم جانب الحق والصواب ، لابد وأن ينتهى به فكره إلى الحقيقة من أقرب طريق ، فشواهد هذا الدين من الوضوح بمكان بحيث لا تحتاج إلى طول معاناة ، ودلائل هذه الرسالة الخاتمة أوضح من الشمس فى رائعة النهار .

وفى هذه القصة العميقة ، من قصص السنة والسيرة ، ما يطلعنا على جانب من جوانب الاستدلال المنصف على صدق النبوة وحقيقتها .

قال الإمام البخارى رحمه الله : حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال : أخبرنا شعيب عن الزهرى قال : أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ) ماد[١] فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء[٢] فدعاهم فى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : **أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟** فقال أبو سفيان : **فقلت أنا أقربهم نسبا** . فقال : **أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره** . ثم قال لترجمانه : قل لهم : إنى سائل هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه . فوالله لولا الحياء من أن يأثروا[٣] على كذبا لكذبت عنه ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : **كيف نسبه فيكم ؟** قلت : هو فينا ذو نسب قال : **فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟** قلت : **لا** . قال : **فهل كان من آبائه من ملك ؟** قلت : **لا** . قال : **فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟** فقلت : بل

---

(١) هى مدة صلح الحديبية .   (٢) إيلياء : المراد به بيت المقدس .

(٣) أن يأثروا : أن ينقلوا .

ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت . لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت . نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال[1] ينال منا وننال منه قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله . وسألتك هل من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حين يتم . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته[2] القلوب ، وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق

(١) سجال : نوب .
(٢) البشاشة : انشراح الصدر والفرح .

والعفاف فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت[1] لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

ثم دعا بكتاب رسول الله (ﷺ) الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأ . فإذا فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم » سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[2] .

﴿ ... يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾[3] .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا . فقلت لأصحابى حين أخرجنا لقد أمر[4] ابن[5] أبى كبشة أنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فمازلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .

---

(١) تجشمت : تكلفت الوصول إليه . (٢) الأريسيين : الفلاحين أو اليهود والنصارى أو الملوك .
(٣) آل عمران : ٦٤ . (٤) أمر : عظم .
(٥) يريد النبى (ﷺ) لأن أبا كبشة أحد أجداده وعادة العرب إذا انتقصت نسبه إلى جد غامض قيل هو جده لأمه وقيل من قبل أبيه وقيل أبوه من الرضاعة .

وكان ابن الناطور[1] – صاحب إيلياء وهرقل – أسقفا على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوما خبيث النفس ، فقال بطارقته : قد استنكرنا هيئتك قال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء[2] ينظر فى النجوم . فقال لهم حين سألوه : إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختتن إلا اليهود ، فلا يهمنك شأنهم ، واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود . فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله (ﷺ) فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختتن هو ؟ فنظروا إليه ، فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب ؟ فقال : هم يختتنون . فقال هرقل : هذا ملك – وفى رواية ملك – هذه الأمة قد ظهر ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره فى العلم ، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم[3] حمص – أى لم يبرحها – حتى أتاه كتاب من صاحبه . يوافق رأى هرقل على خروج النبى (ﷺ) وأنه نبى ، فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له[4] بحمص – والدسكرة هى القصر الذى حوله بيوت – ثم أمر بأبوابها فغلقت .

ثم اطلع فقال : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصوا[5] حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت . فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : ردوهم على . وقال : إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل .

---

(١) صاحب البستان .
(٢) حزاء : كاهن .
(٣) فلم يرم : لم يبرح .
(٤) الدسكرة : القصر الذى حوله بيوت .   (٥) حاصوا : نفروا .

وفى قصة محاورة هرقل لأبى سفيان . ومساءلته له عن أحوال النبى (ﷺ) استنتاجات لها أهميتها وقيمتها ، وهذا الحديث يمثل جانبا من منهج الدعوة إلى الإسلام وهو إرسال الكتب إلى الملوك ، ودعوتهم إلى الدين الذى جاء به رسول الله (ﷺ) .. كما يمثل جانبا آخر من علامات النبوة ، وكيف يصل الفكر المستنير إلى الحق . ويعرف عن طريق الاستنتاج الصحيح أن صاحب هذه الدعوة مرسل من ربه .

فإن هرقل حين جاءه كتاب الرسول (ﷺ) قرأه ، وأراد أن يصل إلى الحقيقة من أقوم طريق ، وإنما طلب هرقل أن يسأل أقربهم نسبا بالرسول (ﷺ) ، لأنه هو الذى يكون أكثر معرفة بأحواله ، والاطلاع على شئونه ظاهرا وباطنا أكثر من غيره ولأن البعيد عنه لا يؤمن أن يقدح فى نسبه بخلاف الأقرب ، ثم أكد الأمر لأصحابه فقال لهم : **إن كذبنى فكذبوه** ، أى لا تستحيوا منه ، كما أنه جعل أصحابه خلفه ، ليكون تكذيبهم له — إن كذب — أهون وأيسر ، ولئلا يستحيوا أن يواجهوه فإن المقابلة بالكذب وجها لوجه من الأمور الصعبة ، وفى قول أبى سفيان : **فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عليه** . فى هذا دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب أخذا عن الشرع السابق أو بالعرف .

وبعد أن أدار هرقل تلك المحاورة الدقيقة ، وانتهى من الأسئلة المحكمة ، والإجابة التى فهمها وعرف جوانب ما تدل عليه ، كون صورة استنتجها بمنطقه السليم ، مع أنه لم تكن له معرفة بالرسول (ﷺ) من قبل ، ومع هذا فقد كانت صورة صحيحة ، رتب نتائجها على مقدمات سليمة .

لقد استنتج هرقل بالسؤال عن نسب الرسول (ﷺ) وأنه فيهم ذو نسب أن الرسول على حق ، فإن الرسل تبعث فى نسب قومها ، فهم يبعثون فى

أفضل أنسابهم وأشرفها فذلك أبعد عن انتحال الباطل ، لأن الإنسان الذى يتمتع بالشرف وأصالة المعدن – غالبا – لا يميل إلى انتحال الباطل ؛ وليس فى حاجة إليه ، كما أنه يكون أقرب إلى انقياد الناس له ، وإخبار هرقل بذلك كان عن العلم المقرر عنده فى الكتب السالفة .

كما استنتج صدق الرسالة والرسول من أنه لم يقل هذا القول أحد قبله حتى يقال أنه متأس به ، وأنه ليس من آبائه من ملك حتى يقال إنه يطلب ملك أبيه .. وأنه غير متهم بالكذب قبل ذلك ، فلم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله كيف !! وهو المعروف بالصادق الأمين وقد عرف بالصدق وسائر الفضائل قبل البعثة وبعدها .. كما استنتج صدق الرسول (ﷺ) عن طريق اتباع الضعفاء له لأن أتباع الرسل أهل تواضع وأنهم يزيدون وهو أمر الإيمان حين يتم ، وأن من دخل فى الإسلام لا يرجع عنه بعد أن ذاق حلاوته وخالطت بشاشته قلبه ، فإن الذين يخلصون فى إيمانهم يستشعرون حلاوة الإيمان فلا يتزعزعون ولا ينحرفون عنه مهما كان حولهم من اضطهاد ، ومهما نزل بهم من عذاب ، وهذا بلال كم كان يقاسى ما يقاسى فى الصحراء المحرقة والعذاب الأليم ، فما كان يزيد عن قوله أحد أحد ، وما زاده الاضطهاد إلا إيمانا وتثبيتا . كما استنتج من عدم الغدر بأنه رسول إذ أن الرسل لا تغدر ، لأنهم لا يطلبون حظا من حظوظ الحياة الدنيا التى لا يبالى طلابها بالغدر ، بخلاف أهل الآخرة وطلابها فإنهم أوفياء أمناء لا يخونون ولا يغدرون .

ثم كان الاستنتاجان الأخيران بالسؤال عن قتالهم له وكيفيته وأنهم قاتلوه وأن الحرب بينهم وبينه سجال ، وهذا شأن الرسل عليهم السلام تبتلى ثم تكون لهم العاقبة وإنما يبتليهم «الله» تعالى بذلك ، ليعظم أجرهم بكثرة صبرهم وما بذلوه من أقصى ما فى وسعهم فى طاعة الله [illegible] !! .

وأما ما أمرهم به : فهو أن يعبدوا «الله» ولا يشركوا به شيئا ، وأما ما ينهاهم عنه فهو ينهاهم عن عبادة الأوثان ، ويأمرهم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وأخيرا يصل هرقل إلى النتيجة الهامة ، والنظرة البعيدة الثاقبة ، لمنزلة هذا الرسول وما لدعوته من مستقبل عظيم ، هذه النتيجة تتلخص فى قوله : (**فإن كان ما تقول حقا ، فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه**) . والمراد بموضع قدميه : هو بيت المقدس أو أنه كناية عن الشام كله .

وهنا نصل إلى درجة المعرفة التى بلغها هرقل ، لقد كان يعلم الحقيقة ، ويعلم أن النبى مرسل من ربه ، ولكنه خاف على نفسه وعلى ملكه ، وهل عذر يمكن أن يكون ؟ نقول : لا إنه لا ينهض عذرا له ، فقد عرف الرجل صدق الرسول (ﷺ) ، إلا أنه رغب فى استمرار الرياسة ، وخاف على الملك ، فآثر ذلك على الإسلام ، ولكن الرجل لو فطن لقول الرسول (ﷺ) فى الكتاب «**أسلم تسلم**» ووعى ما يترتب على الإسلام من السلامة دنيا وأخرى لكان سالما من كل ما يخافه ولكن الهدى هدى «الله» .

- ويمكن أن نستنبط من هذه القصة بعض العبر والنتائج الهامة منها : صدق الرسول (ﷺ) وحقيقة الرسالة ، وكثرة العلامات التى دلت على الرسول (ﷺ) فى الكتب السابقة والعلامات المذكورة فى هذه القصة منها ما يتعلق بشخص الرسول (ﷺ) ، ومنها ما يتعلق بشأن أتباعه المؤمنين السابقين ، ومنها ما يتعلق بشأن دعوته .

- كما يستنبط وجوب العمل بخبر الواحد حيث أنه بعث الكتاب مع دحية . ووجوب الدعوة إلى الإسلام والعمل على نشرها ودعوة غير المسلمين للدخول فى الإسلام .

- وأن من اهتدى وكان سببا فى هداية غيره آتاه «الله» أجره مرتين ، ومن ضل وكان سببا فى إضلال غيره كان عليه إثمه وإثم من تبعه .

- وبهذا المنطق العاقل يمكن لكل إنسان أن يستعمل عقله الذى منحه «الله» إياه وأن ينظر إلى تلك الصورة المعتدلة التى كونها هرقل عن شخصية الرسول (ﷺ) ويستطيع أن يزن بعقله وفكره أمر الرسول والرسالة يمكن لكل عاقل ممن لم يؤمن أن ينظر بإنصاف وفهم لحقيقة هذا الدين فإنه لاشك حين ينصف فى بحثه وفكره سيهتدى إلى الإسلام ، فهو الدين القيم ، الذى ارتضاه «الله» لعباده .

كتاب رسول الله (ﷺ) إلى كسرى

بعث رسولُ الله (ﷺ) عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتابا ، قال عبد الله : فدفعت إليه كتاب رسول الله (ﷺ) ، فقرئ عليه ، ثم أخذه فمزقه ، فلما بلغ ذلك رسول الله (ﷺ) قال : «اللهم مَزّق مُلْكَه» .

وكتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن أن ابعث من عندك رجلين جَلْدين إلى هذا الرجل الذى بالحجاز فليأْتيانى بخبره . فبعث باذان قهرمانه ورجلا آخر ، وكتب معهما كتابا ، فقدما المدينة فدفعا كتاب باذان إلى النبى (ﷺ) فتبسم رسول الله (ﷺ) ودعاهما إلى الإسلام وفرائصهما تُرعَد وقال : «ارجعا عنى يومكما هذا حتى تأتيانى الغد فأخبركما بما أريد» فجاءاه الغد ، فقال لهما : «أبلغا صاحبكما أن ربى قد قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها وهى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع وأن الله تبارك وتعالى سلّط عليه ابنه شيرويه فقتله» فرجعا إلى باذان بذلك فأسلم هو والأبناء الذين باليمن .

كتاب رسول الله (ﷺ) إلى المقوقس

بعث رسول الله (ﷺ) حاطب بن أبى بلتعة اللخمى إلى المقوقس صاحب الإسكندرية عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتابا فلما وصله الكتاب قرأه وجعله فى حُقّ من عاج وختم عليه : ودفعه إلى جاريته ، وكتب إلى النبى (ﷺ) : **قد علمت أن نبيا قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها** ، ولم يزد على هذا ولم يسلم فقبل رسول الله (ﷺ) هديته ، وأخذ الجاريتين «مارية» أم إبراهيم بن رسول الله (ﷺ) وأختها «شيرين» وبغلة بيضاء ..

هذه بعض الكتب التى بعث بها رسول الله (ﷺ) إلى الملوك يدعوهم فيها ويدعو قومهم وأتباعهم إلى الإسلام ، مشيرا إلى مبادئ الإسلام .. وكان (ﷺ) سمحا وعظيما فى دعوته وأسلوبه ، متبعا المنهج الربانى الذى أمره رب العزة سبحانه وتعالى فيه بالدعوة حين قال :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(١) .

فكان عليه الصلاة والسلام يخاطبهم بأسلوبه الرقيق الحكيم لاعنف فى دعوته ولا تهديد ، بل الأدب العالى والزوق الرفيع وصدق «الله» إذ يقول فيه :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢) .

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ . (٢) سورة القلم : ٤ .

الوفــــود

ولقد كانت سنة تسع من الهجرة النبوية تسمى بسنة الوفود ، حيث فتح الله سبحانه وتعالى على رسوله صلوات الله وسلامه عليه مكة المكرمة فأقبل عليه وفود العرب من كل ناحية .

وقويت الدولة الإسلامية ، وعرف العرب جميعا أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله (ﷺ) ، فدخلوا فى دين الله أفواجا ، كما قال الحق سبحانه وتعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③﴾[1]

وإليك نماذج من هذه الوفود :

---

(١) سورة النصر .

قدوم وفد مُزَيْنَةَ على رسول الله (ﷺ)

روينا(١) من طريق البيهقى عن النعمان بن مُقَرِّن قال : «قدمنا على رسول الله (ﷺ) أربعمائة رجل من مزينة ، فلما أردنا أن ننصرف قال : ياعمر ، زَوِّد القومَ ، فقال : ما عندى إلا شىء من تمر ، ما أظنه يقع من القوم موقعًا . قال : انطلق فزودهم . قال : فانطلق بهم عمر فأدخلهم منزله ، ثم أصعدهم إلى عِلِّية . فلما دخلنا إذا فيها من التمر مثل الجمل الأورق ، فأخذ القوم منه حاجتهم . قال النعمان : فكنت فى آخر من خرج ، فنظرت ، فما أفقد موضع تمرة من مكانها» .

---

(١) زاد المعاد لابن القيم جـ٣ ص٧٦ طبع مطبعة السنة المحمدية .

قدوم وفد دَوْسٍ على رسول الله (ﷺ) قبل ذلك بخيبر

قال ابن إسحاق وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يُحدث : أنه قدم مكة ورسول الله (ﷺ) بها . فمشى إليه رجال من قريش – وكان الطفيل رجلا شريفًا ، شاعرًا لبيبًا – قالوا له : إنك قدمت بلادنا ، وإن هذا الرجل – وهو الذى بين أظهرنا – فرّق جماعتنا ، وشتّت أمرنا . وإنما قوله كالسحر ، يُفرّقُ به بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه . وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد حلَّ علينا ، فلا تكلمه ، ولا تسمع منه . قال : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعتَ أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه ، حتى حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا[1] ، فَرَقًا[2] من أن يبلغنى شىء من قوله .قال : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله (ﷺ) قائم يصلى عند الكعبة ، فقمت قريبا منه ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلامًا حسنًا ، فقلت فى نفسى : واثُكْلَ أمّيَاه ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى علىَّ الحسَنُ من القبيح . فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان ما يقول حسنا قبلت ، وإن كان قبيحًا تركت ؟ قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله (ﷺ) إلى بيته فتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يامحمد ، إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سَدَدْتُ أذنى بكُرْسُف ؛ لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يُسْمِعَنِيه ، فسمعت قولا حسنًا ، فاعرضْ علىَّ أمرَك . فعرض علىَّ رسول الله (ﷺ) ، وتلا علىَّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرًا أعدل منه . فأسلمت وشهدت

---

(١) الكُرْسُف : القطن .

(٢) فرَقًا : خوفا .

شهادة الحق . وقلت : يانبى الله ، إنى امرؤ مُطاع فى قومى ، وإنى راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله لى أن يجعل لى آية تكون عونًا لى عليهم فيما أدعوهم إليه . فقال : «اللهم اجعل له آية» . قال : فخرجت إلى قومى ، حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر : وقع نور بين عينَيّ مثل المصباح . قال : قلت : اللهم فى غير وجهى ، إنى أخشى أن يظنوا أنها مُثْلَةٌ وقعت فى وجهى لفراقى دينهم . قال : فتحول فوقع فى رأس سوطى كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط إليهم من الثنية ، حتى جئتهم وأصبحت فيهم . فلما نزلت أتانى أبى – وكان شيخا كبيرا – فقلت : إليك عنى ياأبت ، فلست منى ، ولست منك . قال : ولم يابنى ؟ قلت : قد أسلمت ، وتابعت دين محمد (ﷺ) . قال : يابنى فدينى دينك . قال : فقلت : اذهب فاغتسل وَطَهِّر ثيابك ، ثم تَعَالَ حتى أعلمك ما علمت . قال : فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ، ثم جاء ، فعرضت عليه الإسلام فأسلم ، ثم أتتنى صاحبتى ، فقلت لها : إليك عنى ، فلستُ منك ولست منى . قالت : لم بأبى أنت وأمى ؟ قلت : فرق الإسلام بينى وبينك ، أسلمت ، وتابعت دين محمد (ﷺ) قالت : فدينى دينك . قال : قلت : فاذهبى فاغتسلى ففعلت ، ثم جاءت ، فعرضت عليها الإسلام فأسلمت . ثم دعوت دَوْسًا إلى الإسلام فأبطئوا علىّ ، فأتيت رسول الله (ﷺ) ، فقلت : يارسول الله ، إنه قد غلبنى على دوس الزنا ، فادع الله عليهم ، فقال : «اللهم اهْدِ دَوْسًا» . ثم قال : «ارجع إلى قومك ، فادعهم إلى الله وارفق بهم» . فرجعت إليهم ، فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الله . ثم قدمت على رسول الله (ﷺ) ورسول الله بخيبر . فنزلت المدينة بسبعين – أو ثمانين – بيتًا من دوس ، ثم لحقنا برسول الله بخيبر ، فأسهم لنا مع المسلمين» .

قال ابن إسحاق : فلما قبض رسول الله (ﷺ) ، وارتدت العرب خرج الطفيل مع المسلمين ، حتى إذا فرغوا من طليحة ، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل ، فقال لأصحابه : إنى قد رأيت رؤيا فاعبروها لى : رأيت أن رأسى قد حلق ، وأنه قد خرج من فمى طائر ، وأن امرأة لقيتنى فأدخلتنى فى فرجها ، ورأيت أن ابنى يطلبنى طلبا حثيثا ، ثم رأيته حُبس عنى . قالوا : خيرا رأيت . قال : أما والله ، إنى قد أولتها . قالوا : وما أولتها ؟ قال : أما حلق رأسى فوضعه ، وأما الطائر الذى خرج من فمى فروح ، وأما المرأة التى أدخلتنى فى فرجها فالأرض تحفر فألقى فيها . وأما طلب ابنى إياى وحبسه عنى : فإنى أراه سيجهد لأن يصيبه من الشهادة ما أصابنى . فقتل الطفيل شهيدا باليمامة ، وجرح ابنه جرحا شديدا ، ثم قتل عام اليرْمُوك شهيدا فى زمن عمر رضى الله عنه[1] .

---

(١) مزاد المعاده لابن القيم جـ ٣ ص ٧٧ .

قدوم وفد الأزدِ على رسول الله (ﷺ)

ذكر أبو نعيم فى كتاب «معرفة الصحابة» والحافظ أبو موسى المدينى مِن حديث أحمد بن أبى الحَوَارِى قال : سمعت أبا سليمان الدارانى قال : حدثنى علقمة بن يزيد بن سويد الأزدى قال : حدثنى أبى جدّى سويد بن الحرث قال: «وَفَدْتُ سابعَ سبعةٍ من قومى على رسول الله (ﷺ) . فلما دخلنا عليه وكلمناه : أعجبه مارأى من سَمْتنا وزيِّنا ، فقال : «ماأنتم ؟» قلنا : مؤمنون . فتبسم رسول الله (ﷺ) . وقال : «إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟» قلنا : خمس عشرة خصلة ، خمس منها أمرتنا بها رسلك : أن نؤمن بها ، وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تخلّقنا بها فى الجاهلية ، فنحن عليها الآن ، إلا أن تكره منها شيئاً . فقال رسول الله (ﷺ) : «وما الخمس التى أمرتكم بها رُسُلى أن تؤمنوا بها ؟» قلنا : أمرتنا أن نؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت . قال : «وما الخمس التى أمرتكم أن تعملوا بها ؟» قلنا : أمرتنا أن نقول : لا إله إلا الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤْتِى الزكاة ، ونَصُومَ رمضان ، ونَحُجَّ البيت الحرام ، مَن استطاع إليه سبيلا . فقال : «وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية ؟» قلنا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بمر القضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء . فقال رسول الله (ﷺ) : حكماء علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» ثم قال : «وأنا أزيدكم خمسا ، فتتم لكم عشرون خصلة ، إن كنتم كما تقولون : فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبنوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه غدا تزولون ، واتقوا الله الذى إليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارْغَبُوا فيما عليه تَقْدُمُون وفيه تُخَلَّدُون» فانصرف القوم من عند رسول الله (ﷺ) ، وحفظوا وصيته ، وعملوا بها» .

قدوم وفد تجيب

وقدم عليه (ﷺ) وفد تجيب - وهم من السكون - ثلاثة عشر رجلا - قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم . فسُرّ رسول الله (ﷺ) بهم ، وأكرم نزلهم ، وقالوا: يارسول الله ، سُقنا إليك حق الله فى أموالنا . فقال رسول الله (ﷺ) : «ردوها فاقسموها على فقرائكم» قالوا : يارسول الله ، ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا . فقال أبو بكر : يارسول الله ، ما وفَدَ من العرب بمثل ماوَفَدَ به هذا الحيُّ من تجيب . فقال رسول الله (ﷺ) : «إن الهُدَى بيد الله عز وجل . فمن أراد به خيرا شرح صدره للإيمان» وسألوا رسول الله (ﷺ) أشياء ، فكتب لهم بها ، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن ؟ فازداد رسول الله (ﷺ) فيهم رغبة ، وأمر بلالا أن يُحسن ضيافتهم . فأقاموا أياما ، ولم يطيلوا اللُّبث . فقيل لهم : «ما يُعجِلكم ؟» فقالوا : نرجع إلى مَنْ وراءنا ، فنخبرهُم برؤيتنا رسول الله (ﷺ) ، وكلامنا إياه ، وما ردَّ علينا . ثم جاءوا إلى رسول الله (ﷺ) يودعونه ، فأرسل إليهم بلالا ، فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود . ثم قال: «هل بقى منكم أحد ؟» قالوا : نعم ، غلام خلفناه على رحالنا ، وهو أحدثُنا سِنًّا . قال : «أرسلوه إلينا» فلما رجعوا إلى رحالهم ، قالوا للغلام : انطلق إلى رسول الله فاقض حاجتك منه ، فإنا قد قضينا حوائجنا منه ، وودعناه . فأقبل الغلام حتى أتى رسول «الله» ، فقال : يا رسول الله ، إنى امرؤ من بنى أَبْذَىّ - يقول : من الرهط الذين أتوك آنفا - فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتى يارسول «الله» ، قال : «وما حاجتك ؟» قال : إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى ، وإن كانوا قدِمُوا راغبين فى الإسلام ، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم . وإنى و «الله» ما أعملنى

من بلادى إلا أن تسأل «الله» عز وجل أن يغفرَ لى ويرحَمنى ، وأن يجعل غناى فى قلبى ، فقال رسول الله (ﷺ) ، وأقبل على الغلام : «اللهم اغفر له وارحمه ، واجعل غناه فى قلبه» ثم أمر له بمثل ماأمر به لرجل من أصحابه ، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم . ثم وافوا رسول الله (ﷺ) فى الموسم بمنًى سنة عشر ، فقالوا : نحن بنو أبذَى ، فقال رسول الله (ﷺ) : «وما فعل الغلام الذى أتانى معكم ؟» قالوا : يارسول الله ، ما رأينا مثله قط ، وما حُدثنا بأقنع منه بما رزقه الله ، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ، ولا التفت إليها . فقال رسول الله (ﷺ) : «الحمد لله ، إنى لأرجو أن يموت جميعًا» فقال رجل منهم : أو ليس يموت الرجل جميعًا يارسول الله ؟ فقال رسول الله : «تتشعب أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا ، فلعل أجله أن يدركه فى بعض تلك الأودية فلا يبالى الله عز وجل فى أيها هلك» قالوا : فعاش ذلك الغلام فينا على أفضل حال وأزهده فى الدنيا ، وأقنعه بما رزق . فلما تُوفى رسولُ الله (ﷺ) ، ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام قام فى قومه ، فذكَّرهم «الله» والإسلامَ فلم يرجع منهم أحد . وجعل أبو بكر الصديق يَذْكُرُه ويسألُ عنه ، حتى بلغه حاله ، وما قام به ، فكتب إلى زيادِ بن لبيد يُوصِيه به خيرًا .

قدوم عدى بن حاتم

وأما عدى بن حاتم فكان يقول ، فيما بلغني : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله (ﷺ) حين سمع به منى ، أما أنا فكنت امرءا شريفا وكنت نصرانيا ، وكنت أسير فى قومى بالمرباع[1] فكنت فى نفسى على دين وكنت ملكا فى قومى ، لما كان يصنع بى فلما سمعت برسول الله (ﷺ) كرهته ، فقلت لغلام كان لى عربى ، راعيا لأبى : لا أبالك ، أعدد لى من إبلى أجمالا ذللا[2] سمانا ، فاحبسها قريبا منى ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذنى ، ففعل ، ثم إنه أتانى ذات غداة ، فقال : ياعدى . ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد ، فاصنعه الآن ، إنى قد رأيت رايات ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه جيوش محمد ، قال : فقلت : فقرب إلى أجمالى ، فقربها فاحتملت بأهلى وولدى ، ثم قلت : ألحق بأهل دينى من النصارى بالشام ، فسلكت الجوشية ، ويقال : الحوشية فيما قال ابن هشام وخلفت بنتا[3] لحاتم فى الحاضر ، فلما قدمت الشام أقمت بها .

وتخالفنى خيل لرسول الله (ﷺ) ، فتصيب ابنة حاتم ، فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله (ﷺ) ، فى سبايا من طيئ وقد بلغ رسول الله (ﷺ) هربى إلى الشام ، قال : فجعلت بنت حاتم فى حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا تحبسن فيها فمر بها رسول الله (ﷺ) ، فقامت إليه ، وكانت امرأة جزلة ، فقالت : يا رسول الله هلك الوالد ، وغاب الوافد فامنن على من الله عليك . قال : ومن وافدك ؟ قالت : عدى بن حاتم . قال : الفار

(١) أى آخذ ربع الغنيمة وكذلك كان يفعل الرؤساء فى الجاهلية .

(٢) الذلل : السهل .

(٣) قال السهيلى : اسمها سفانة لأنه لا يعرف له بنت سواها .

من الله ورسوله ؟» قالت : ثم مضى رسول الله (ﷺ) وتركني ، حتى إذا كان من الغد مر بي ، فقلت له مثل ذلك ، وقال لي مثل ما قال بالأمس : قالت : حتى إذا كان بعد من الغد مر بي ، وقد يئست منه ، فأشار إلى رجل من خلفه أن قومي فكلميه ، قالت : فقمت إليه ، فقلت : يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد ، فامنن علي من الله عليك ، فقال (ﷺ) : وقد فعلت ، فلا تعجلي بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة ، حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنيني» . فسألت عن الرجل الذى أشار إلى أن أكلمه ، فقيل : علي بن أبي طالب (رضوان الله عليه) ، وأقمت حتى قدم ركب من بلي أو قضاعة . قالت : وإنما أريد أن آتي أخي بالشام ، قالت : فجئت رسول الله (ﷺ) فقلت : يارسول الله ، قد قدم رهط من قومي ، لي فيهم ثقة وبلاغ . قالت : فكساني رسول الله (ﷺ) ، وحملني ، وأعطاني نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام .

قال عدى : فوالله إني لقاعد في أهلي ، إذ نظرت إلى ظعينة[1] تصوب إلى تؤمنا قال : فقلت ابنة حاتم ، فإذا هي هي ، فلما وقفت علي انسحلت[2] تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقية والدك عورتك ، قال : قلت : أى أخية ، لا تقولي إلا خيرا ، فوالله ما لي من عذر ، لقد صنعت ما ذكرت ، قال : ثم نزلت فأقامت عندى ، فقلت لها : وكانت امرأة حازمة ، ماذا ترين في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تذل في عز اليمن ، وأنت أنت . قال :قلت و والله إن هذا لرأى .

إسلام عدى :

قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله (ﷺ) المدينة ، فدخل

(١) الظعينة : المرأة في الهودج . (٢) انسحلت : أخذت تلوم .

عليه ، وهو فى مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : «من الرجل» ، فقلت : عدى بن حاتم ، فقام رسول الله (ﷺ) ، فانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها ، قال : قلت فى نفسى والله ما هذا بملك ، قال : ثم مضى رسول الله (ﷺ) حتى إذا دخل بى بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا ، فقذفها إلى فقال : «اجلس على هذه» ، قال : قلت : «بل أنت» فاجلس عليها . فقال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله (ﷺ) بالأرض ، قال : قلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك ، ثم قال : «إيه ياعدى بن حاتم ! ألم تك ركوسيا ؟» قال : قلت : بلى ، قال : «أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع» قال : قلت : بلى ، قال : «فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك» قال : قلت : أجل والله ، قال : وعرفت أنه نبى مرسل ، يعلم ما يجهل ، ثم قال : «لعلك ياعدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت ، لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم» قال : فأسلمت .

وكان عدى يقول : قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، وو «الله» لتكونن ؛ قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت وايم الله لتكونن الثالثة ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٤٣٦ . ط الحلبى .

وفد عبد القيس

قال البخارى : حدثنا على بن الجعد قال : أخبرنا شعبة :

عن أبى جمرة قال : كنت أقعد مع ابن عباس . يجلسنى على سريره فقال : أقم عندى حتى أجعل لك سهما من مالى ، فأقمت معه شهرين ثم قال : إن وفد عبد القيس ، لما أتوا النبى (ﷺ) قال :

« مَنِ القومُ ، أو مَنِ الوفد ؟» .

قالوا : ربيعة ، قال : « مَرحبًا بالقومِ ، أو بالوفدِ ، غير خَزَايا وَلاَ نَدَامَى » فقالوا : يا رسول الله ، إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا فى شهر الحرام ، وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة ، وسألوه عن الأشربة . فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع .

أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال : أتدرُونَ مَا الإيمانُ بالله وَحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شَهادَةُ أن لاَ إله إلاَّ الله . وأَنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ الله ، وَإقامِ الصَّلاة ، وَإيتاء الزَّكاةِ ، وصِيام رَمَضانِ ، وأن تُعطُوا مِنَ المغنم الخمس .

ونهاهم عن أربع : الحنتم[1] والدباء[2] والنقير[3] والمزفت وربما قال المقير[4] ، وقال : احفظوهن ، وأخبروا بهن من وراءكم » .

---

(١) الحنتم : جرار خضر . (٢) الدباء : القرع اليابس أى الوعاء منه .

(٣) النقير : جذع ينقر وسطه . (٤) المقير : المطلى بالقار وهو الزفت .

لقد حقق الله تعالى النصر والفتح للدعوة الإسلامية ، بعد جهاد طويل ، جاهد فيه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وجاهد أصحابه والمسلمون خير جهاد ، فدعوا للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجاهدوا فى «الله» حق جهاده ، بالنفس وبالمال وبالدعوة والكلمة ، حتى تم النصر والفتح من «الله» العزيز الحكيم .

ولما تم فتح مكة ، وفرغ رسول الله (ﷺ) من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، ضربت إليه وفود العرب من كل مكان ، قال ابن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة أن ذلك فى سنة تسع ، وأنها كانت تسمى سنة الوفود ، حيث وفد على رسول الله (ﷺ) وفود كثيرة ، يتعلمون منه ، ويأخذون عنه ، ويدخلون فى دين الله أفواجا ..

ومن هذه الوفود : وفد عبد القيس ، وكانت مساكنهم بالبحرين وما والاها من أطراف العراق . ووفد عبد القيس هؤلاء تقدموا قبائلهم للمهاجرة إلى رسول الله (ﷺ) ، وكانوا أربعة عشر راكبا ، الأشج العصرى رئيسهم .. وهو المنذر بن عائذ ، ومنهم منقذ بن حيان .. وروى ابن منده من طريق هود العصرى عن جده لأمه قال : بينما رسول الله (ﷺ) يحدث أصحابه ، إذ قال لهم : «سيطلع لكم من هذا الوجه ركب هم خير أهل المشرق» فقام عمر ، فلقى ثلاثة عشر راكبا .. فيجمع بين هذه الرواية والسابقة بأن يكون أحد المذكورين غير راكب أو مرتدفا . وأما ما رواه الدولابى وغيره من طريق أبى خيرة الصباحى قال : كنت فى الوفد الذين أتوا رسول الله (ﷺ) من وفد عبد القيس وكنا أربعين رجلا .. فيجمع بين هذه الرواية وبين الرواية الأخرى ، بأن الثلاثة عشر كانوا رؤوس الوفد ، ولهذا كانوا ركبانا ، وكان الباقون أتباعا ..

أما عن سبب وفودهم : فهو أن منقذ بن حيان أحد بنى غنم بن وديعة ، كان متجره إلى يثرب فى الجاهلية ، فشخص إلى يثرب ، بملاحف وتمر من هجر ، بعد هجرة النبى (ﷺ) ، فبينا منقذ بن حيان قاعد ، إذ مر به النبى (ﷺ) فنهض منقذ إليه فقال النبى (ﷺ) : «أمنقذ بن حيان ، كيف جميع هيئتك وقومك ؟» ثم سأله عن أشرافهم رجل رجل ، يسميهم بأسمائهم ، فأسلم منقذ ، وتعلم سورة الفاتحة واقرأ باسم ربك ، ثم رحل قبل هجر ، فكتب النبى (ﷺ) معه إلى جماعة عبد القيس كتابا ، فذهب به ، وكتمه أياما ، ثم اطلعت عليه امرأته ، وهى بنت المنذر بن عائذ ، والمنذر هو الأشج ، سماه رسول الله (ﷺ) به لأثر كان فى وجهه .. وكان منقذ (رضى الله عنه) يصلى ويقرأ ، فأنكرت امرأته ذلك ، فذكرته لأبيها المنذر فقالت : أنكرت بعلى منذ قدم من يثرب ، إنه يغسل أطرافه ويستقبل الجهة – تعنى القبلة – فيحنى ظهره مرة ، ويضع جبينه مرة ، ذلك ديدنه منذ قدم ، فتلاقيا ، فتجاريا ذلك ، فوقع الإسلام فى قلبه ، ثم سار الأشج إلى قومه عصر ومحارب بكتاب رسول الله (ﷺ) ، فقرأه عليهم فوقع الإسلام فى قلوبهم وأجمعوا على السير إلى رسول الله (ﷺ) ، فسار الوفد ، فلما دنوا إلى المدينة ، قال النبى (ﷺ) لجلسائه : «أتاكم وفد عبد القيس ، خير أهل المشرق ، وفيهم الأشج العصرى غير ناكثين ولا مبدلين ولا مرتابين» . فلما أتو النبى ﷺ قال : «من القوم أو من الوفد ؟» قالوا : ربيعة ، قال : «مرحبا بالقوم أو بالوفد ، غير خزايا ولا ندامى» – أى أنهم لا يصيبهم الخزى فقد أسلموا طائعين غير حرب أو سبى يخزيهم ويفضحهم ، وإذا كان هذا شأنهم فى الدنيا فإنهم فى الآخرة لا تلحقهم الندامة ولا الحسرة ، وفى هذا القول النبوى الحكيم بشارة لهم بالخير العاجل ، والآجل ، لأن الندامة إنما تكون فى العاقبة فإذا انتفت ثبت ضدها . ثم وضحوا لرسول الله (ﷺ) موقفهم ،

وأنهم لا يستطيعون الوصول إليه إلا فى شهر حرام من الأشهر الحرم وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وذلك خوفا من أعدائهم الكفار ، وفى رواية الإمام مسلم : « وقد حالت بيننا وبينك كفار مضر فلا نخلص إليك إلا فى شهر حرام ، فمُرنا بأمر نعمل به وندعو إليه من وراءنا » وكان أعداؤهم لا يتعرضون إليهم فى هذه الأشهر ، كما كانت عادة العرب من تعظيم الأشهر الحرم ، وامتناعهم من القتال فيها ، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع ، أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال : «أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحدَهُ ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال :«شَهَادَةُ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ ، وَأَن تُعطُوا مِنَ المَغنَمِ الخُمسَ» ولكننا إذا نظرنا إلى الأمور التى أمر بها وجدناها خمسا لا أربعا ، وأظهر ما أجيب به عن ذلك أنه أمرهم بالأربع التى وعدهم بها ثم زادهم خامسة وهى : أداء الخمس ، لأنهم كانوا مجاورين لكفار مضر فكانوا أهل جهاد وغنائم . وقيل : أنه لم يذكر الحج فى هذا الحديث ، لكونه لم يكن نزل فرضه . « ونهاهم عن أربع عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت وربما قال المقير .. » أما الدباء : فهو القرع اليابس أى الوعاء منه . وأما الحنتم فأقوى الآراء فيه أنه : جرار خضر . وأما النقير : فهو جذع ينقر وسطه .. وأما المقير : فهو المطلى بالقار وهو الزفت والمراد النهى عن الانتباذ فى هذه الأربعة بأن يجعل فى الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلو ويشرب ، وخصت هذه بالنهى لأنه يسرع إليها الإسكار فيها ، فيصير حراما نجسا وتبطل ماليته .. وجاء فى بعض الروايات بيان ما يترتب عليه من الإسكار ، وما يترتب على الإسكار من المفاسد قالوا : يا نبى الله ما علمك بالنقير ؟ قال : «بلى جذع تنقرونه فتقذفون فيه من القطيعاء» ، قال سعيد : أو قال من التمر ثم تصبون فيه من الماء حتى إذا سكن غليانه شربتموه حتى أن أحدكم

أو أن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف ، قال : وفى القوم رجل أصابته جراحة كذلك ، قال : وكنت أخبأها حياء من رسول الله (ﷺ) .

ومعلوم أنه – صلوات الله وسلامه عليه – لم يستوعب لهم جميع الأوامر وجميع النواهى ، وذلك لأنهم سألوه أن يخبرهم بما يدخلون به الجنة فاقتصر لهم على ما يمكنهم فعله فى الحال ولم يقصد إعلامهم بجميع الأحكام التى تجب عليهم فعلا وتركا . واقتصر فى المنهيات على الانتباذ فى الأوعية مع أن فى المنهيات ما هو أشد فى التحريم من الانتباذ ، لكن اقتصر عليها . لكثرة تعاطيهم لها . ومن هذه القصة يستنبط :

أن الإيمان بالله هو مجموع هذه الخصال من القول والعمل ويستنبط وجوب أداء الخمس من الغنيمة وأنه من الإيمان . وفى القصة – كذلك – : النهى عن الانتباذ فى هذه الأوعية قال العلامة ابن القيم : وهل تحريمه باق أو منسوخ ؟ على قولين . وهما روايتان عن أحمد ، والأكثرون على نسخه بالحديث الذى رواه مسلم :

« .. وَكُنْتُ نَهَيْتُكُم عَنِ الأَوْعِيَةِ فَانتَبِذُوا فِيمَا بَدَا لَكُم وَلاَ تَشْرَبُوا مُسْكِرًا » ومن قال بأحكام أحاديث النهى، وأنها غير منسوخة قال : هى أحاديث تكاد تبلغ التواتر ، فى تعددها ، وكثرة طرقها ، وحديث الإباحة فرد فلا يبلغ مقاومتها ، وسر المسألة : **أن النهى عن الأوعية المذكورة من باب سد الذرائع ، إذ الشراب يسرع إليه الإسكار فيها .**

وفى القصة مدح صفتى الحلم والأناة ، وأن الله يحبهما وضدهما الطيش والعجلة ، وهما خلقان مذمومان مفسدان للأخلاق والأعمال .. واستنباط مدح الحلم والأناة ، مأخوذ من بعض الروايات الأخرى ، فعند مسلم :

« وقال نبى الله (ﷺ) لأشج عبد القيس : إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا

الله وَرَسُولُهُ : الحِلْمُ والأناة » وسبب قول النبى (ﷺ) ذلك له : ما جاء فى حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة ، بادروا إلى النبى (ﷺ) وأقام الأشج عند رحالهم ، فجمعها ، وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه ، ثم أقبل إلى النبى (ﷺ) فقربه النبى (ﷺ) وأجلسه إلى جانبه ثم قال لهم النبى (ﷺ) : « تُبايعُونَ عَلَى أنفُسِكُم وَقَومِكُم» فقال القوم : نعم . فقال الأشج :

يا رسول الله ، إنك لم تزاول الرجل عن شىء أشد عليه من دينه نبايعك على أنفسنا ، ونرسل من يدعوهم فمن اتبعنا كان منا ، ومن أبى قاتلناه ، قال : « صَدَقْتَ ، إن فِيكَ خَصْلَتَين » الحديث .. فالأناة على هذا هى : تربصه حتى نظر فى مصالحه ولم يعجل ، والحلم : هذا القول الذى قاله الدال على صحة عقله ، وجودة نظره للعواقب .

ولا يخالف هذا ما روى أنه لما قال رسول الله (ﷺ) للأشج : إنَّ فِيكَ خصلتَين .. قال : يا رسول الله ، كانا فىَّ أم حدثا ؟ قال : «بل قديم» ، قال : قلت : الحمد لله الذى جبلنى على خُلقَين يُحِبُّهما .

كما يستنبط من القصة : وفادة الرؤساء والأشراف إلى الأئمة عند الأمور المهمة ، وتقديم الاعتذار بين يدى المسألة وفيها : بيان مهمات الإسلام وأركانه سوى الحج ، وفيها استعانة العالم فى تفهم الحاضرين والفهم عنهم ببعض أصحابه كما فعله ابن عباس (رضى الله عنهما) . وفى القصة أيضا : جواز الثناء على الإنسان فى وجهه إذا لم يخف عليه فتنة بإعجاب ونحوه ، وأما النهى عن المدح فى الوجه ، فهو فى حق من يخاف عليه الفتنة .

وفى بعض روايات القصة من التفصيل ما يفيد وصف الأشج بالحلم والأناة : ثم نزل الأشج فعقل راحلته وأخرج عيبته – وهى التى يضع فيها ثيابه وزاده – ففتحها فأخرج (ثوبين) أبيضين من ثيابه فلبسهما ، ثم أتى

رواحلهم فعقلها وجمع متاع القوم ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله (ﷺ) فقبلها فقال رسول الله (ﷺ) : « يا أَشَجُّ ، إن فيك خصلتين يُحِبُّهما الله عزَّ وجلَّ ورسولُهُ : الحِلْمُ والأناة » ، فقال : يا رسول الله ، أنا تخلقتهما أوجبلني الله عليها ؟ فقال : « بل الله جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا » . قال : الحمد لله الذى جبلنى على خُلُقين يحبهما الله ورسوله .

وهكذا نرى أن هذه القصة قد اشتملت على العديد من الأحكام والحكم ، والمأمورات والمنهيات ، والتوجيهات السديدة التى تأخذ بأيدى الناس إلى صراط ربهم المستقيم ، وتجنبهم طرق الغواية والضلال ، وهذه التوجيهات التى زودهم بها رسول «الله» (صلوات الله وسلامه عليه) لها أهميتها وأثرها فى بناء حياتهم ، واستقامة أمرهم ، ولهذا قال لهم رسول الله (ﷺ) : « احفَظُوهُنَّ وَأَخبِرُوا بِهِنَّ مَن وَرَاءَكم » .. إنها دعوة الإسلام الصادقة ، التى تفيض بها قلوب المؤمنين المخلصين ، وتنطلق داعية إلى «الله» على هدى وبصيرة . لتفوز برضوان من «الله» ، وذلك هو الفوز العظيم .

كما اشتملت القصة على أن «الله» تعالى يحب من عبده ما جبله عليه من خصال الخير ومكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، كالحلم والأناة ، والشجاعة والذكاء ، وغير ذلك لاسيما إذا سخر مواهبه فى البر والتقوى ، والعمل والمعروف والدعوة إلى الخير والإسلام .

قــدوم ضمـام بن ثعلبـة

من قصص السيرة الشريفة ، قصص الوفود ، الذين كانوا يقدمون على الرسول (ﷺ) فرادى وجماعات ، قال الإمام البخارى رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف قال : حدثنا الليث عن سعيد هو المقبرى عن شريك بن عبد الله بن أبى نمر ، أنه سمع أنس بن مالك يقول : بينما نحن جلوس مع النبى (ﷺ) فى المسجد ، دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم : أيكم محمد ؟ والنبى (ﷺ) متكىء بين ظهرانيهم . فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكىء فقال له الرجل : ابن عبد المطلب ، فقال له النبى (ﷺ) : «قد أجبتُك» . فقال الرجل للنبى (ﷺ) : إنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة ، فلا تجد علىَّ فى نفسه ، فقال : «سَل عمَّا بَدَا لَك» . فقال : أسألك بربك ، ورب من قبلك ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : «اللَّهُمَّ نَعَم» ، قال : أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة ؟ قال : «اللَّهُمَّ نَعَم» . قال : أنشدك بالله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال : «اللَّهُمَّ نَعَم» ، قال : أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ فقال النبى (ﷺ) : «اللهمَّ نَعَم» . فقال الرجل : آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد .

لقد كان قدوم ضمام ، فى سنة تسع ، كما جزم بهذا ابن إسحاق وأبو عبيدة ، وغيرهما . وكان وفوده بناء على رغبة بنى سعد بن بكر الذين أرسلوه إلى رسول الله (ﷺ) . وصادف مجيئه وسؤاله هوى فى نفوس المسلمين . حيث أنهم نهوا عن سؤال ما لا ضرورة إليه ، فكان يعجبهم أن يجىء الرجل

من أهل البادية العاقل ، فيسأل الرسول (ﷺ) وهم يسمعون .. ولما جاء ضمام سأل عن الرسول (ﷺ) قائلا : أيكم محمد ؟ والنبى (ﷺ) متكئ بين ظهرانيهم ، فقالوا له : هذا الرجل الأبيض المتكئ ، ولم يكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أبيض صرفا ، وإنما المراد : الأبيض المشرب بحمرة ، كما ورد فى صفته (ﷺ) أنه لم يكن أبيض ولا آدم .

أما أسئلة الرجل : فقد اشتملت على السؤال عن عموم رسالته ، وذلك فى قوله : الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ ثم عن الصلوات الخمس ، ثم الزكاة .. وفى رواية الإمام مسلم : سؤاله عن الحج وفيها كذلك ما يدل على حسن سؤاله وترتيبه ، ومنطقه وعقله ، حيث سأل أولا عن صانع المخلوقات من هو ؟ ثم أقسم عليه به أن يصدقه فى كونه رسولا للصانع ، ثم لما وقف على رسالته وعلمها ، أقسم عليه بحق مرسله وهذا الترتيب فى الأسئلة يدل على تفتح عقليته ، وقوة منطقه وحكمته . ففى رواية مسلم أنه قال : «يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : «صَدَقَ» ، قال : فمن خلق السماء ؟ قال : «الله» ، قال : فمن خلق الأرض ؟، قال : «الله» ، قال : فمن نصب هذه الجبال ؟ وجعل فيها ما جعل ؟، قال : «الله» ، قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال الله أرسلك ؟ قال : «نعم» .

لقد وجه الرجل أسئلة تتصل بكتاب الكون المفتوح من أرضه وسمائه وجباله ، سائلا عن خالقها وصانعها ، مستدلا من الصنعة على الصانع ، ومن الخلقة على الخالق ، مصدقا لما أجابه به الرسول (ﷺ) ، وهذه الأسئلة احتوت أدلة كونية ، شاهدة بوجود «الله» ووحدانيته وقدرته وعظمته ، وأنه الذى خلق فسوى وقدر فهدى ..

وهى أدلة واضحة وضوح الشمس ، ويمكن لكل من كان بعيدا عن الإسلام أن يستدل بها على ربه ، وأن يدع المكابرة والمراوغة ، فهى أدلة مبثوثة فى الكون ، شاهدة بوحدانية الخالق العظيم :

وفى كُلِّ شىْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ على أَنَّهُ الوَاحِدُ

أما قول الرجل : أيكم محمد ؟ فقد قيل : إنما لم يقل الرسول (ﷺ) له : نعم ، لأنه لم يخاطبه بما يليق بمنزلته من التعظيم ، لا سيما مع قوله تعالى :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾(١) ..

وقال الحافظ ابن حجر : والعذر عنه - إن قلنا أنه قدم مسلما أنه لم يبلغه النهى ، وكانت فيه بقية من جفاء الأعراب وقد ظهرت بعد ذلك فى قوله : « فمشدد عليك فى المسألة » .

ولما أجابه رسول الله (ﷺ) عما سأل عنه وشفى قلبه بتثبيت علمه وعقيدته قال الرجل : آمنتُ بما جئتَ به ، وأنا رسول من ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد . وفى رواية أنه قال : « وسَأُؤَدِّى هَذِهِ الفَرَائِضَ ، وأجتنبُ ما نهيْتنِى عنه ، لا أزيد ولا أنقص » ثم انصرف راجعا . فقال رسول الله (ﷺ) حين ولى : « إن يَصْدُق ذُو العُقَيصَتَين يَدخُل الجنَّة » وكان ضمام رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين ، ثم أتى بعيره ، فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا عليه ، وكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى ، فقالوا : صه يا ضمام ، اتق البرص والجنون والجزام ، قال : ويلكم ، إنهما ما يضران ولا ينفعان ، إن الله بعث رسولا ، وأنزل عليه كتابا ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وإنى قد جئتكم من عنده بما أمركم به ، ونهاكم

(١) النور : ٦٣ .

عنه ، فو الله ما أمسى فى اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما ، رواه ابن إسحاق وقال : فما سمعنا بوافد قوم أفضل من ضمام بن ثعلبة.

لقد كان الرجل صوت حق وصدق إلى قومه ، حيث حمل لهم مشعل النور والمعرفة ، بعد أن استقى ينابيع الحكمة والهداية من رسول الله (ﷺ) ، فثار على الأصنام والمعبودات الباطلة ونشر دعوة الحق فى ربوع قومه حتى تفيئوا جميعا ظلال الإسلام ، وسعدوا به ، ورضوا بالله ربًا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد (ﷺ) نبيًا ورسولا .

وقد استدل علماء السنة بهذه القصة على القراءة على العالم فإن ضماما قال للنبى (ﷺ) : آلله أمرك أن تصلى الصلوات قال : نَعَم ، فهذه قراءة على النبى (ﷺ) أخبر ضمام قومه بذلك فأجازوه وفى القصة أيضا : العمل بخبر الواحد ، وتأكيد الدعوة إلى دعائم الإسلام من الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج .

الفهرس